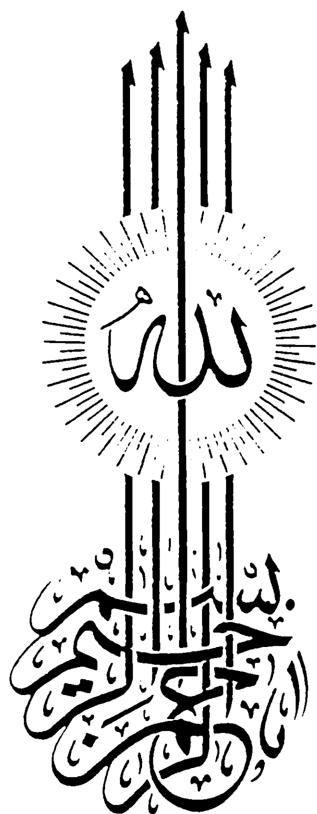
الأعمال بالخواتيم

سعد بن سعيد الحجري

دار الوطن

الأعمال بالخواتيم

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الغفور الرحيم شرع الدين القويم، ودعا إلى الصراط المستقيم وحذر من طريق الجحيم، ووعد المهتدين بالنعيم، وتوعد الغاوين بالحميم .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، رب العرش العظيم، له الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم، جعل الأعمال بالخواتيم فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز بالثواب المقيم، ومن اتبع هواه وشيطانه فقد استحق العذاب الأليم .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله النبي الكريم، صاحب القلب السليم والمنهج القويم، شرفه الله بالتكليم وأرسله للتعليم، فكان بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا، وللعالمين قدوة حليما أرشد أمته إلى القول السديد والعمل الرشيد وحذرهم يوم الوعيد، فصلى الله عليه كلما اعتبر أولو الألباب وكلما أذنب عبد وتاب، وكلما اهتدى عاص وأناب، وعلى آله وصحبه ومن سار على طريقه إلى يوم المآب .

أما بعد : فلقد خلق الله الإنسان فى أطوار مختلفة يرتقي من طور إلى طور، ويقوى من مرحلة إلى مرحلة، وينتقل من دار إلى دار . ينتقل من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى القبر ومن القبر إلى الحشر ومن الحشر إلى الحساب ومن الحساب إلى الجنة أو النار قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٦] وهذه الأطوار حقائق عظيمة تدل على عظمة المولى، وتدل على قدرته

وعلى وحدانيته وعلى تفرده بالخلق والإيجاد وتدل على أن له في كل شيء آية تدل على أنه واحد. ولقد أحسن القائل :

فيا عجبًا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة ... وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

ويقول أبو نواس :

تأمل في رياض الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأحداث هي الذهب السبيك
على قطب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقد حفظ الله الإنسان في جميع أطواره؛ بل وأطعمه وسقاه وسخر له كل شيء، وجعله خليفة في الأرض وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وزانه بالعقل وفطره على الإسلام. قال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. وروى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تجد فيها من جدعاء؟» متفق عليه، بل وأرسل الرسل وأنزل الكتب، وأقام الحجة وظهرت المحجة. ولم يبق للإنسان من اعتذار إلا اتباع الأهواء والشهوات، والزيغ وراء الفتن والشبهات. يغريه الشيطان بالمغريات، ويدعوه إلى الضلالات، ويزين له السيئات ويزهده في الطاعات، ويشغله بفضول المباحات، حتى حبسة بقيوده واستولى عليه بجنوده، وتركه مذبذبًا حتى هلك.

قال الله تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ

لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢] وروى عياض بن حمار - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «يا أيها الناس إن الله تعالى أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا، إن كل ما غفله عبدي فهو له حلال، إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا» رواه مسلم.

وقد جند الشيطان نفسه، وبذل جهده واستنفر أعوانه ليغوي الناس ويضلهم عن سواء السبيل قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] بل وتوعد الإنسان أن يأتيه من كل مكان من أمامه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله؛ يريد بذلك أن يسد جميع الطرق ويستولي عليه؛ ليعيش في ضلالة وغواية ويتخبط في ظلام دامس. قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

وكل عبادة محبوبة لله تعالى فهي بغيضة إلى الشيطان، وكل معصية حرمها الرحمن فهي محبوبة للشيطان؛ ولذا فالشيطان في عمل دائم لإضلال الإنسان. فلا تراه يكتفي بدعوة الناس إلى الكفر والذنوب والمعاصي؛ بل يصدهم عن فعل الخير، فلا يترك سبيلاً من سبل الخير يسلكه عبد من عباد الله إلا قعد فيه يصدهم ويميل بهم، ففي الحديث: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه فقعد له بطريق الإسلام فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك؟ فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد، فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال؟ فعصاه فجاهد.. فمن فعل

ذلك كان حقا على الله أن يدخله الجنة » رواه أحمد والنسائي وابن حبان بإسناد صحيح .

ويشتد إغواء الشيطان للإنسان عند الاحتضار ؛ لأنه يعلم أنها الخاتمة التي يختم بها عمله ويُنْهي بها دنياه ، ويستقبل بها آخرته ، فيدعوه إلى اليهودية أو النصرانية أو غيرها من المبادئ المعارضة للإسلام . وقد حدث عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل قال : حضرت وفاة أبي ، وبيدي خرقة لأشد لحييه فكان يغرق ثم يفيق ويقول بيده : لا بعد ، لا بعد . فعل هذا مراراً فقلت له : يا أبت أي شيء يبدو منك؟ قال : إن الشيطان قائم بحذائي ، عاض على أنامله يقول : يا أحمد فتني . وأنا أقول لا بعد لا بعد حتى أموت »[1] . وقال القرطبي : سمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر القرطبي يقول : حضرت أخا شيخنا أبي جعفر أحمد بن محمد القرطبي بقرطبة وقد احتضر ، فقيل له : قل لا إله إلا الله . فكان يقول : لا ، لا . فلما أفاق ذكرنا له ذلك فقال : إن الشيطان أتاني من على يميني ومن على شمالي ويقول : مت يهوديا ، مت نصرانيا فكنت أقول له : لا ، لا[2]»

وبدعوة الشيطان للناس أصبح أتباعه كثير ، فقد روى أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك. قال: يقول: أخرج بعث النار. قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. فذاك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ..» الحديث متفق عليه .

ولخطورة الأمر وغفلة الناس ، واتباع الأهواء والركون إلى الدنيا ،

---

(١) التذكرة للقرطبي : ١ / ٥٥ ، والقيامة الصغرى : ٢٩ .
(٢) التذكرة للقرطبي : ١ / ٥٥ ، والقيامة الصغرى : ٣٠ .

ونسيان الآخرة وعدم الاستعداد للموت وما بعده أحببت أن أذكر الغافلين، وأن أوقظ النائمين بهذه القصص التي جمعتها من مصادر شتى تحكي حياة السابقين وأحوال اللاحقين ممن ختمت أعمارهم بأعمالهم، وطويت صحفهم على آخر كلامهم وقد ورد في الحديث: «**كل ميت يختم على عمله**» رواه أبو داود والترمذي والحاكم بسند صحيح عن فضالة بن عبيد.

وقد سميت هذا الكتاب «الأعمال بالخواتيم» تفاؤلاً بخاتمة حسنة، وتحذيراً من خاتمة سيئة - وأعلم يقينًا أن الأمر لله وحده من قبل ومن بعد، وأن الأمور قد قضيت وقدرت؛ ولكن عملاً بالحديث المتفق عليه الذي رواه علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**» وطمعًا في بذل أسباب النجاة وتحذيراً للإنسان من اتباع هواه، وطلبًا لما يحبه الله ويرضاه.

والله تعالى أسأل أن يجعل العمل خالصًا لوجهه الكريم، صوابًا على سنة نبيه ﷺ، وأن ينفع به قائله وقارئه، وأن يظهر ثمرته عظة واعتباراً، وأن يغفر لنا ذنوبنا ويضاعف أجورنا ويرفع درجاتنا، وأسأله أن يعفو عني وعن إخواني المسلمين كل خطأ.

فما كان من صواب في هذا الكتاب فمن الله وحده، وما كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان. والله ورسوله منه بريئان وما هذا إلا جهد المقل الذي أراد به حسن العمل وذكّر به الأجل وحذّر به الاغترار بالأمل. نسأل الله حسن الختام وتذكير الأنام، ومراقبة الملك العلام.

وكتبه
سعد بن سعيد الحجري
أبها

---

(١) قطعة من حديث سهل بن سعد عند البخاري في كتاب الرقاق، باب الأعمال بالخواتيم.

خاتمة الدنيا الموت

الحياة والموت متناقضان تناقض النور والظلام والبرودة والحرارة؛ ولذا فإن معاجم اللغة العربية تعرف كل واحد منهما بأنه نقيض الآخر، فقالوا عن الموت: هو السكون، وكل ما سكن فقد مات. تقول: ماتت النار، إذا برد رمادها. وماتت الريح إذا ركدت وسكنت. (١) والحياة الإنسانية تتحقق بنفخ الروح في جسد الجنين في رحم أمه. والموت يتحقق بانقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته وحيلولة بينهما، وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار(٢) .

فالموت هو مفارقة الروح للجسد وتعطل الجوارح عن العمل، ومفارقة الأهل والجيران والمجتمع، وهو الانتقال من القصور إلى القبور، ومفارقة الحركة إلى السكون والانتقال من الدنيا إلى الآخرة، وترك الطعام والشراب والكساء، والانتقال من ظاهر الأرض إلى باطنها وترك الدنيا إلى دار البرزخ .

والموت حتم لازم لا مناص منه ولا مهرب منه؛ بل هو كائن لكل حي من المخلوقات قال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨] ، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]

ولو نجا أحد من الموت لنجا منه خيرة الله من خلقه محمد ﷺ قال تعالى له: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] ، وقد واسى الله تعالى رسوله ﷺ بأن الموت سنته في خلقه قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ

---

(١) لسان العرب: ٥٤٧ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ .
(٢) التذكرة للقرطبي: ١ / ١٦ .

فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] فالموت يجري على الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والحر والعبد، والراعي والرعية لا يقرع بابا ولا يهاب حجابًا، ولا يقبل بديلاً ولا يأخذ كفيلاً، ولا يرحم صغيراً ولا يوقر كبيراً.

كم من ملك أخذه من على كرسي ملكه، فقال الملك ياليتني كنت خبازاً أخبز الخبز للناس، يا ليتني كنت غسالاً أو نجاراً، يا ليت مسئوليتي عن نفسي وعن أهلي ولم أكن مسئولاً عن الناس.

وكم من شاب غره شبابه وألهاه أمله، واشتغل بهواه واعتمد على قوته قال: يا أسفى على الأيام الخالية، يا ليتني حفظت شبابي، واستثمرت قوتي، وراقبت ربي، وانتصرت على نفسي، وقدمت عقلي على شهوتي ولهوي، وتنورت بنور الإسلام وتخلصت به من الظلام، يا ليتني أطعت الله وأطعت الرسول، يا ليتني لم أتخذ الشيطان وقرناء السوء أصحابا.

وكم من غني قال: يا ليت مالي كان كفافًا واكتسابه كان حلالاً. وهكذا عند الموت تظهر الحسرات والزفرات من أهل السيئات، وتبدو الابتسامات على وجوه أهل الطاعات، وتظهر لهم الكرامات وترتفع الدرجات.

وقد روي أن نبي الله داود عليه السلام كان رجلاً غيوراً، وكان إذا خرج أغلق الأبواب فأغلق ذات يوم الأبواب وخرج، فأشرفت امرأته في الدار؛ وإذا هي برجل في الدار فقالت: من أدخل هذا الرجل؟ لئن جاء داود ليلقين منه عناءًا، فجاء داود فرآه فقال: من أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا يمنعني الحجاب فقال له داود عليه السلام: فأنت والله إذن ملك الموت» وقد ورد بهذا اللفظ في حديث أبي هريرة الذي رواه أحمد بإسناد جيد (١).

والواجب على المسلم أن يستعد للموت في كل لحظة؛ فإنه لا يدري متى يكون أجله؛ بل وقدم الله ذكر الموت على الحياة ليكون الاهتمام به أعظم قال

(١) إحياء علوم الدين: ٤/ ٤٢٢.

تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ١ , ٢].

وأمر ﷺ بالإكثار من ذكره فقد روى عبد الله بن عمر وأبو هريرة وأنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: « **أكثروا من ذكر هادم اللذات: الموت** » رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم بسند صحيح. وروى أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: « **اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه** » رواه أحمد والترمذي والحاكم بسند حسن.

وذكر الموت هو التفكر فيه وفي أهواله وسكراته وشدائده، وحالة الإنسان وقت الاحتضار وما سيئول إليه أمره من نعيم أو عذاب. ولقد أحسن من قال:

واذكر الموت تجد راحة في ادكار الموت تقصير الأمل

وقال الآخر:

صاح شمر ولا تزل ذاكر الموت فنسيانه ضلال مبين

وكان يزيد الرقاشي يقول لنفسه: ويحك يا يزيد من ذا يصلي عنك بعد الموت؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ ثم يقول: أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم، من الموت طالبه، والقبر بيته، والتراب فراشه، والدود أنيسه كيف حاله؟ ثم يبكي حتى يسقط مغشيا عليه. وقال التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت وذكر الموقف بين يدي الله تعالى. قال الدقاق: من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة. ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضى بالكفاف، والتكاسل في العبادة.

فتفكر يا مغرور في الموت وسكرته، وصعوبة كأسه ومرارته؛ فياللموت من وعد ما أصدقه! ومن حاكم ما أعدله! كفي بالموت مفرحًا للقلوب ومبكيا للعيون ومفرقًا للجماعات، وهاذمًا للذات وقاطعًا للأمنيات. فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك وانتقالك من موضعك، وإذا نقلت من سعة إلى ضيق، وخانك الصاحب والرفيق، وهجرك الأخ والصديق.

فيا جامع المال والمجتهد في البنيان ليس لك من مال الأكفان فهل من استعداد للموت قبل إتيانه؟ وهل من استعداد للقبر قبل نزوله؟ وهل من إرضاء للرب تعالى قبل الوقوف بين يديه ؟!

*****

دواهى الموت

الموت مصيبة كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ ﴾ [المائدة : ١٠٦] .

وهذه المصيبة تشتمل على ثلاث دواهى :

الداهية الأولى : سكرات الموت لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت ، لكان جديرًا بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ، ويفارقه سهوه وغفلته . وحقيقًا بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده لا سيما وهو في كل نفس بصدده . فالموت كما قيل : « كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك » والعجيب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو ، فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس ضربات بعصا لتكدرت عليه لذته ، وفسد عليه عيشه ، فكيف وهو في كل لحظة ينتظر الموت وينتظر سكراته؟ كما قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] .

وسكرات الموت كما قيل أشد من ضرب بالسيف ، وأشد من نشر المناشير ومن قرض المقاريض . ولو كان المجذوب عرقًا واحدًا لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح؟ لا من عرق واحد وإنما من جميع العروق . ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجيًا ، فتبرد أولاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ولكل عضو سكرة بعد سكرة ، وكربة بعد كربة حتي يبلغ بها إلى الحلقوم ؛ فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ، ويغلق دونه باب التوبة ، وتحيط به الحسرة

والندامة[١] .

وقد روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ «**أن رسول الله ﷺ كان بين يديه ركوة فيها ماء فجعل يدخل يده المباركة فيها ويمسح بها وجهه ويقول: لا إله إلا الله إن للموت لسكرات. ثم نصب ﷺ يده وجعل يقول: في الرفيق الأعلى حتى قبض ومالت يده** » رواه البخاري .

وقد روي أن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ لما حضرته الوفاة قال له ابنه عبد الله : يا أبتاه إنك لتقول : ليتني ألقى رجلاً عاقلاً لبيبًا عند نزول الموت حتى يصف لي ما يجد ، وأنت ذلك الرجل فصف لي الموت . فقال : يا بني والله كأن جبيني في تخت وكأني أتنفس من ثقب إبرة ، وكأن غصن شوك يجذب من قدمي إلى هامتي .

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ لكعب الأحبار حدثنا عن الموت قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ إن الموت كغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل ، وأخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديد الجذب ، فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى .

يقول القرطبي : فمثل نفسك يا مغرور وقد حلت بك السكرات ، ونزل بك الأنين والغمرات ، فمن قائل يقول : إن فلانا قد أوصى وماله قد أحصى ومن قائل يقول : إن فلانًا ثقل لسانه فلا يعرف جيرانه ولا يكلم إخوانه ، فكأني أنظر إليك تسمع الخطب ولا تقدر على رد الجواب ، ثم تبكي ابنتك كالأسيرة وتتضرع وتقول : أبي فارقني . وأنت تسمع الكلام ولا تقدر على رد الجواب .

الداهية الثانية : رؤية ملك الموت عند الوفاة . وقد ورد التوفي في القرآن مضافًا إلى الله تعالى تارة مثل قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا** ﴾ [الزمر : ٤٢] ، وتارة يضاف إلى ملك الموت قال تعالى : ﴿ **قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ**

---

(١) إحياء علوم الدين : ٤ / ٤١٩ ، ٤٢٠ ، والبحر الرائق : ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

﴿الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]، وتارة يضاف إلى أعوانه من الملائكة قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] ولا منافاة بين ذلك فإن المتوفي حقيقة هو الله تعالى، أو لا يكون ذلك إلا بأمره وقدره ومشيئته. والذي يقبض الروح ملك الموت بأمر الله تعالى، وتستلمها ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب. وقد صور حديث البراء بن عازب هذه الداهية تصويراً بديعًا. فقد روى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولمَّا يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رءوسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوطها حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها، في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، و تخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الريح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه فيأتيه ملكان

فيقولان له : من ربك؟ فيقول: ربى الله . ما دينك ؟ فيقول: ديني الإسلام . فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ. فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله تعالى فآمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مد البصر، قال : ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة رب أقم الساعة .

قال : وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، قال : فتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السَّفود من الصوف المبلول. فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها في الدنيا . حتي ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له. ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحا ثم قرأ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من

ربك ؟ فيقول : هاها لا أدرى ، فيقـولان له : ما دينك ؟ فيقول : ها ها لا أدري. فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فلا يهتـدي لاسمه. فيقال : محمد؟ فيقول : هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السمـاء أن كذب عبدي ، فأفرشوه من النار، وافتـحوا له بابا إلى النار. فيـأتيه من حرها وسـمومهـا ، ويضيق عليه قـبره حتى تخـتلف فيه أضـلاعه. ويأتيه رجل قـبيح الثيـاب منتن الريح فيقـول : أبشر بالذى يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيـقول : من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر. فيقول : أنا عملك الخبيث. فيقول : رب لا تقم الساعة»

زاد في رواية في قـصـة المؤمن : « حتى إذا خـرج روحه صلى علـيه كل ملك بين السمـاء والأرض، وكل ملك في السمـاء وفتحت له أبواب السـماء ، وليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلهم» .

وزاد في قصـة الكافر « ثم يُقَـيَّضُ له أعـمى أصم أبكم في يده مـرزبة لو ضرب بها جبل كان ترابا ، فتضربه فيـصير ترابا ، ثم يعيده الله ـ عز وجل ـ كما كان فيضربه أخرى فيصيح صيـحة يسمعها كل شيء إلا الثقلان - قال البراء ثم يفتح له باب من النار، ويمهـد له فراش من نار » وهو حديث صحيح ، صححه الألباني على شرط الشيخين .

الداهية الثالثة: خوف سـوء الخاتمة وتبـشير الفـجار بالنار . وخـوف سوء الخـاتمة قطع قلوب العارفين ـ وهو من الدواهي العظيـمة عند الموت ؛ فإنهم في حـال السكرات ، وقـد تخـاذلت قـواهم واسـتسلمت للخـروج أرواحـهم ـ ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بإحدى البشريين ، إما أبشر يا عدو الله بالنار ، وإما أبشر يا ولي الله بالجنة ـ ومن ثم كان خوف أرباب الألباب .

روي أن حـذيفـة بن اليـمـان عند احـتـضـاره قـال لابن مـسـعـود ـ رضي الله عنهمـا ـ : قم فانظر أي ساعة هذه ، فقام ابن مسعود ثم جاء فقال : قد طلعت الحمراء يعني الشمس . قال حذيفة : أعوذ بالله من صباح إلى النار . وبكى أبو

هريرة رضي الله عنه عند موته ثم قال: والله ما أبكي حزنا على الدنيا، ولا حزنا من فراقكم؛ ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي بجنة أو بنار. وقال الحسن: لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى. فيوم موته هو يوم سروره وفرحه، وأمنه وعزه وشرفه. وقال جابر بن زيد لجلسائه عند الموت: يا إخوتاه، الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة.

فينبغي للمؤمن أن يدعو الله في الثبات على الحق حتى يلقاه، وأن يتهم نفسه بالتقصير حتى يحملها على العمل الصالح، وحتى لا يصيبها عجب ولا غرور، ولا يأمن من مكر الله؛ فإن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. ورحم الله الإمام أحمد بن حنبل الذي يقول لابنه عبد الله - عندما سأله فقال: يا أبي متى نستريح؟ - قال: يا ولدي لا نستريح حتى نضع أول قدم في الجنة. ومر بعض الصالحين بشباب يلعبون ويضحكون، يعيشون في غفلة قال لهم: هل ثقلت موازينكم بالأعمال الصالحة لتضحكوا؟ قالوا: لا ندري قال: هل أخذتم كتبكم بأيمانكم لتضحكوا؟ قالوا: لا ندري. قال: هل خلّفتم الصراط خلف ظهوركم وعبرتم عليه؟ قالوا: لا. قال: فلم تضحكون وهذه الدواهي أمامكم»[(١)].

ومن عظات الصحابي الجليل سلمان الفارسي - رضي الله عنه - قوله: أضحكني ثلاث أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك بملء فيه وهو لا يدري أرضي الله عليه أم سخط عليه؟ وأبكاني ثلاث: فراق الأحبة محمد ﷺ وحزبه، وهول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي الله تعالى.

وما أحسن ما قال الشاعر:

تزود من التقوى فإنك لا تدري إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر

---

(١) إحياء علوم الدين: ٤/ ٤٢٢، ٤٢٣، والبحر الرائق: ٢٦٦ - ٢٦٩.

فكم من عروس زينوها لزوجها وقد أخذت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم وقد أدخلت أرواحهم ظلمة القبر
وكم من سليم مات من غير علة وكم من سقيم عاش حينًا من الدهر
وكم من فتى يمسي ويصبح لاهيا وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم ساكن عند الصباح بقصره وعند المسا قد كان من ساكني القبر
فداوم على تقوى الإله فإنها أمان من الأهوال في موقف الحشر

وقال آخر :.

الموت في كل يوم ينشر الكفنا ونحن في غفلة عما يراد بنا
لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها وإن توشحت من أثوابها الحسنا
أين الأحبة والجيران ما فعلوا أين الذين هم كانوا لنا سكنا
سقاهم الموت كأسًا غير صافية فصيرتم لأطباق الثرى رهنا

فنسأل الله أن يحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأن يحسن خاتمتنا وأن يرزقنا الاستعداد للقائه ، وأن يقبضنا على العمل الذي يرضيه عنا إنه سميع مجيب .



نذر الموت

لقد وسعت رحمة الله كل شيء فهو الرحمن الرحيم، أنزل رحمة واحدة إلى الأرض يتراحم بها الخلق، وأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة. ومن رحمته عز وجل إرسال الرسل وإنزال الكتب، ومن عدله أن لا يعذب أحدًا حتى يبعث رسولاً. ومما كتبه الله على الخلق الموت؛ وقد جعل الله وقته غيب لا يعلمه إلا هو، إلا أنه جعل له نذرًا ينذرون به، ورسلاً ينبهون عليه. فمن الناس من تنبه له قبل نزوله واستعد له قبل حلوله، فهو دائم الذكر له، ومن الناس من غفل عنه وأهمل ذكره، فهو في تب وخسار، حتى إذا نزل به الموت قال: يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين. ويتمنى العودة بعد الموت ليعمل عملاً صالحًا؛ ولكن هيهات أن يكون له ذلك؛ لأنه لو رجع لعاد لما نهي عنه قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وأعظم داء أصيب به الإنسان داء الغفلة؛ لأنه داء يقسي القلب ويظلمه، ويفقده حياته، ويدعو الإنسان إلى الركون للدنيا ونسيان الآخرة، فيعيش على الأمل وينسى الأجل، ويقصر في العمل ويسيطر عليه الكسل. والعاقل الفطن هو الذي تراه دائما يقظا. ومن اليقظة أن يتذكر نذر الموت وأن يُذكِّر بها حتى تطمئن نفسه عند الموت، ويحسن الظن بربه. وسأذكر بعض نذره للتذكير والاعتبار لا على سبيل الحصر، فإن النذر كثيرة ولكني سأقتصر على البعض منها. ومن هذه النذر ما يلي:

١- **النذير الأول**: مرور الأيام وانصرام الأعوام فالثانية تُنْقص الدقيقة، والدقيقة تنقص الساعة، والساعة تنقص اليوم، واليوم ينقص الأسبوع،

والأسبوع ينقص الشهر، والشهر ينقص العام، والعام ينقص العمر. وهل أعمارنا إلا مجموعة دقائق وساعات، وأيام وأسابيع، وأشهر وأعوام ؟ وإذا مرت ساعة لم تعد إلى يوم القيامة، وكذلك الأيام والأشهر والأعوام . قال الحسن البصري : يا ابن آدم ما من يوم ينشق فجره إلا وهو ينادي ويقول : يا ابن آدم أنا يوم جديد وعلى عملك شهيد، فاغتنمني بعمل صالح فإني لن أعود إلى يوم القيامة .

وكل يوم يمر من حياتك يقربك إلى الآخرة ويبعدك عن الدنيا. قال رجل لمحمد بن واسع : كيف أصبحت؟ قال : ما ظنك برجل يرتحل كل يوم مرحلة إلى الآخرة ؟! وقال الحسن : إنما أنت أيام مجموعة كلما مضى يوم مضى بعضك. وقال بعض الحكماء : كيف يفرح من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره. وقال الفضيل بن عياض لرجل : كم أتت عليك؟ قال : ستون سنة. قال : فأنت من ستين سنة تسير إلى ربك وتوشك أن تبلغ . وأعلم بأنك لله عبد، وأنك إليه راجع، وأنك بين يديه موقوف، وعن عمرك وحياتك مسئول فأعد للسؤال جوابًا. فقال الرجل : فما الحيلة؟ قال : يسيرة . قال : ما هي؟ قال : تحسن فيما بقي يغفرلك ما مضى ؛ فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت بما مضى وما بقي .

وقال بكر المزني : إذا أردت أن تنفعك صلاتك فقل : لعلي لا أصلي بعدها. وأقام معروف الكرخي الصلاة .

ثم قال لرجل : تقدم فصل بنا فقال الرجل : إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها فقال معروف :

وأنت تحدث نفسك أنك تصلي صلاة أخرى، نعوذ بالله من طول الأمل ؛ فإنه يمنع خير العمل . وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال سول الله ﷺ : «صل صلاة مودع» وهو حديث حسن كما في صحيح الجامع

الصغير برقم ٣٧٧٦ .

٢- النذير الثاني: المرض وهو من أبرز النذر، به تعتل الصحة، وبه تضعف القوة، وبه يثقل البدن حتى يعجز الإنسان عن القيام ولربما عن القعود، ويفقد لذة الطعام والشراب، ويزعجه كثرة الحديث ويصبح مشغولاً بنفسه. يقل حديثه ويقل طعامه، وتضيق أنفاسه ويثقل جسده؛ فلا تراه إلا على فراشه، مستلقيًا على ظهره أو على جنبه.

وخاتمة المرض إما عودة الصحة إليه إلى أجل مسمى، وإما الموت والهلاك. وقد راعى الإسلام حقوق المريض لينفس عنه ويدخل السرور عليه، فأمر بعيادة المريض؛ وسماها عيادة ليعود الزائر مرة بعد أخرى، فيتصور المريض أنه في وسط الناس لم ينقطع عن المجتمع، فينسى مرضه ويأنس ببني جنسه. قال البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ: «**أمرنا رسول الله ﷺ بعيادة المريض واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، وإبرار المقسم، ونصر المظلوم، وإجابة الداعي وإفشاء السلام**» متفق عليه .

وروى ثوبان ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: « **من عاد مريضًا لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع** » رواه مسلم. وخرفة الجنة: أي جناها.

وينبغي لعائد المريض أن يذكره بالله وحده، وأن يبين له فضل الصبر وأجر المرض وأن أمر المؤمن كله خير، ويدعوه إلى إحسان الظن بربه تعالى، وينبهه على أداء الواجبات وترك المحرمات، والمداومة على العمل الصالح؛ فإننا وللأسف الشديد نسمع أن الكثير من المرضى يتركون الصلاة مدة مرضهم، ويتعللون بعلل واهية مع العلم أن المريض يؤدي العبادة على قدر استطاعته. فإنه لربما مات في ذلك المرض وهذا أمر خطير جدا. والله تعالى ما جعل علينا في الدين من حرج ولم يكلف نفسًا إلا وسعها. وقد قال ﷺ لعمران بن الحصين: «**صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب**» رواه

أحمد والبخاري. فهل يعي المرضى هذا النذير، فيختموا أعمارهم برضوان الله والاجتهاد في طاعته؟ فقد ورد أن بعض السلف لما مرض قال له أولاده: قل لا إله إلا الله. قال: يا أولادي إنني الآن في الورد السادس من القرآن فهنيئا لأولئك الصادقين الذين ما كانوا يتركون أورادهم الصالحة حتى مع شدة المرض.

وهل يوقن الأصحاء أن المرض نذير بالرحيل، فيصرفوا صحتهم ويشغلوا وقتهم بالمتاجرة مع الله ويغتنموا صحتهم قبل مرضهم حتى لا يغبنوا يومًا من الأيام ويعضوا أصابع الندم، فقد روى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**» رواه أحمد، والبخاري، والترمذي، وابن ماجه.

٣- **النذير الثالث**: الشيخوخة والكبر. وهذا النذير هو الضعف الذي لا يعقبه قوة. قال تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ**﴾ [الروم: ٥٤]، والشيخوخة تعني ضعف البدن بعد قوته، وبياض الشعر بعد سواده، وانحناء الجسم بعد استقامته قال تعالى: ﴿**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ**﴾ [فاطر: ٣٧]وقد فسّر النذير في الآية بأنه الشيب. وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أعذر الله إلى امرىء أخّر أجله حتى بلغ ستين سنة**» رواه البخاري وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ: ورد أن بعض الأنبياء عليهم السلام قال لملك الموت: أمَا لك رسول تقدمه بين يديك ليكون الناس على حذر منك؟ قال: بلى، لي والله رسل كثيرة من الأعلال والأمراض، والشيب والهموم، وتغير السمع والبصر. فإذا لم يتذكر من نزل به ذلك ولم يتب فإذا قبضته ناديته ألم أقدم إليك

رسولاً بعد رسول ونذيراً بعد نذير؟ فأنا الرسول الذي ليس بعدي رسول، وأنا النذير الذي ليس بعدي نذير. فما من يوم تطلع فيه شمس ولا تغرب إلا وملك الموت ينادي يا أبناء الأربعين، هذا وقت أخذ الزاد، أذهانكم حاضرة، وأعضاؤكم قوية شداد. يا أبناء الخمسين، قد دنا وقت الأخذ والحصاد. يا أبناء الستين. نسيتم العقاب وغفلتم عن رد الجواب فما لكم من نصير [(١)].

وكلام القرطبي هذا لم يرد عليه نص صحيح، وإنما هو للترهيب على عادة الواعظين. ومثله ما ورد من أن يعقوب عليه السلام قال لملك الموت: إني سائلك أن تعلمني إذا دنا أجلي قال: سأرسل لك رسولين أو ثلاثة. فلما انقضى أجله أتاه ملك الموت، فقال يعقوب ـ عليه السلام ـ: أزائراً أم قابضًا؟ قال: بل قابضا. قال: أين رسلك؟ قال: أرسلت لك ثلاثة رسل: بياض شعرك بعد سواده، وضعف بدنك بعد قوته، وانحناء جسمك بعد استقامته. هذه رسلي يا يعقوب إلى بني آدم قبل الموت [(٢)]. ولو صح هذا لكان الغرض منه تنبيه الناس وتذكيرهم بأمر نسوه ونذير هجروه؛ وأما يعقوب عليه السلام، فإنه مستعد للموت دائمًا ومعتبر بهذه النذر؛ بل يذكّر بها غيره. ولعل هذا من الأخبار الإسرائيلية قد يصح، وقد لا يصح وهمنا هو أخذ العبرة والعظة.

والشيخوخة: ضعف ما بعده قوة، فنحن نرى كبير السن يمشي على ثلاث: قدميه وعصاه، وينظر بأربع: عينيه ونظارته، ويسمع بأربع أذنيه وسماعتيه. ونلاحظ أوصاله ترتعد وكأنه يقول: هذا إيذان بالانتقال من الدنيا إلى الآخرة. وقد روى سلمة بن علقمة أن إياس بن قتادة اعتم وهو يريد بشر بن مروان فنظر في المرآة، فإذا بشيبة في ذقنه ثم نظر، فإذا بشيبة أخرى فقال: انظروا مَنْ بالباب منْ قومي فأدخلوه. فقال: يا بني تميم، إني قد كنت وهبت لكم شبيبتي فهبوا لي شيبتي! لا أراني إلا حميَّر الحاجات، وهذا الموت يقرب

(١) التذكرة للقرطبي: ١ / ٦١ .
(٢) إرشاد العباد: ٧ ، ٨ ، غرائب الأخبار: ٣٠٤ .

منّي ثم قال لجاريته: انقضي العمامة. فاعتزل يؤذن لقومه ويعبد ربه، ولم يغش سلطانا حتى مات[١].

يقول القاضي منذر بن سعيد البلوطي - رحمه الله تعالى -:

كم تصابي وقد علاك المشيب وتعامي جهلاً وأنت اللبيب
كيف تلهو وقد أتاك نذير وشباك الحمام منك قريب
يا مقيمًا قد حان منه رحيل بعد ذاك الرحيل يوم عصيب
إن للموت سكرة فارتقبها لا يداويك إذا أتتك طبيب

وقال أيضًا:

ثلاث وستون قد جزتها فماذا تؤمل أو تنتظر
وحل عليك نذير المشيب فما ترعوي أو فما تزدجر
تمر لياليك مَرا حثيثًا وأنت على ما أرى مستمر
فلو كنت تعقل ما ينقضي من العمر لاعتضت خيراً بشر

٤- النذير الرابع: تشييع الموتى من تغسيل وتكفين وحمل ودفن، واليقين أن كل إنسان سيكون كذاك الميت يومًا من الأيام. فإنك ترى أن الميت لا يستطيع غسل نفسه؛ بل يغسله غيره. ويلبس ثيابه ويخلعها غيره، ويحمله غيره وكان يحمل نفسه، ويخرج من القصر إلى القبر، ويفارق الأولاد وهم يبكون عليه ولا ينتظرون رجوعه إليهم يومًا من الأيام، ويوارى في حفرة من الأرض إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران. ومن لم يعتبر بمثل هذا المشهد فمتى يعتبر؟ ومن لم يستعد له فمتى يستعد؟ ورحم الله شقيق البلخي الذي يقول: يدعي الناس ثلاثة أشياء وهم يخالفونها: يدعون أنهم عبيد ويعملون عمل الأحرار، ويدعون أن الله كفيل برزقهم ويعملون عمل من

(١) صفة الصفوة ٣/ ٢٢١، ٢٢٢.

لا يطمئن برزق الله ، وإنما يلهث وراء الدنيا ، ويدعون اليقين بالموت ويعملون عمل من لا يموت .

وكان عثمان بن عفان - رضي الله عنه - إذا وقف على القبر بكى حتى تبتل لحيته بدموعه ، قالوا : يا أمير المؤمنين تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتذكر القبر فتبكي؟! قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه** » ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه** » رواه الترمذي وابن ماجة بسند حسن .

٥- **النذير الخامس**: زيارة القبور الزيارة الشرعية التي لا يترتب عليها محظور شرعي ؛ فيمعن النظر في مآل أصحابها وما صاروا إليه . وقد أرشدنا النبي ﷺ إلى زيارتها ، فقد روى بريدة بن الحصيب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «**قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه فزوروها فإنها تذكركم الآخرة**» وفي رواية : «**فإنها تذكر الموت**» وفي رواية : «**فإنها ترقق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة. ولا تقولوا هُجْراً** » رواه مسلم وأحمد والنسائي وأبو داود والترمذي وغيرهم . فزيارة الأموات في قبورهم لها أثر عظيم في صحوة القلوب وذكر البلى والقبور ، والاستعداد لدار القرار .

والمتردد على المقابر بزيارته الشرعية التي لا محظور فيها لا يزال رقيق القلب ، دامع العين ، حزينًا على تقصيره في جانب ربه وتفريطه في حقوقه وواجباته . قيل للإمام علي - رضي الله عنه - : كيف تجد أهل المقابر؟ قال : أجدهم خير جيران ، إنهم جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة .

وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول : ما أحسن ظواهرك! وإنما الدواهي في بواطنك . ونذر الموت كثيرة .

وينبغي الإكثار من ذكر الموت، فإنه لم يذكر في ضيق عيش إلا وسعه، ولا في سعة إلا ضيقها. روى أبو هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: **«أكثروا من ذكر هاذم اللذات: الموت فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعه عليه، ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه»** رواه البيهقي وابن حبان وهو حديث حسن.

لذا كان من الواجب علينا أن نكثر من ذكر الموت وسكراته وأهوال ما بعده؛ فإن ذلك من أعظم الزواجر وأقوى الأسباب للإقلاع عن الانهماك في الدنيا والإقبال على الله. فالموت من الأمور الجديرة بالاهتمام، وذكره المرة بعد الأخرى؛ إذ هو العلاج النافع لأمراض النفوس وأهوائها. وليس المراد من ذكره تزديد ألفاظه وذكرها باللسان؛ بل المقصود التفكر فيه وفي أهواله وسكراته وشدائده وحالة الإنسان وقت الاحتضار وما سيئول إليه أمر الإنسان من نعيم أو عذاب، وبماذا سيختم عليه ومن يتولى قبض روحه هل ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وما سيلقى في قبره.

فنسأل الله أن يوقظ قلوبنا، وأن يرزقنا تذكر الموت والاستعداد له وأن يجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أيامنا يوم أن نلقاه وأن يجعل همنا الآخرة، إنه سميع مجيب.

******

أسباب سوء الخاتمة

يسعى العاقل الفطن إلى السلامة والنجاة ، ويبذل أسبابها فلا يجد راحة ولا طمأنينة ، إلا إذا أمن على نفسه وأيقن باستقامة حاله وصلاح مآله . ولا سبيل إلى هذه السعادة إلا إذا صلح ظاهر العبد وباطنه . وصلحت حياته وآخرته وكان همه طلب رضوان الله تعالى ، يجعل لربه صلاته ونسكه ومحياه ومماته ، ويعبده على كل حال ؛ في قيامه وقعوده وعلى جنبه ، ويؤدي حقه حتى يأتيه اليقين . ومع ذلك فهو على خوف ووجل فلا يدري أيسلم أم لا يسلم؟ أينجو أم لا ينجو؟ ولذا كان الكثير من الصالحين يتخوفون من سوء الخاتمة ، ويخشون أن يبدو لهم عند الموت ما لم يكونوا يحتسبون ، ويوقنون أن الأعمال بالخواتيم ، وأن العبد يبعث على ما مات عليه كما ورد في الحديث الذي رواه جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : **«يبعث كل عبد على ما مات عليه»** رواه مسلم . وهذا يدل على الحث على حسن العمل وملازمة السنة المحمدية في جميع الأحوال ، والإخلاص لله ـ تعالى ـ في الأقوال والأعمال ؛ ليموت على تلك الحال الحميدة فيبعث كذلك .

والخاتمة السيئة لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ؛ وإنما تكون لمن كان له فساد في العقل وإصرار على الكبائر وإقدام على العظائم ، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت . وبعض الذين يظهرون الإسلام ويعملون به ، يختم لهم ـ والعياذ بالله ـ بخاتمة سيئة . وقد تبدو تلك الخاتمة من بعض من حضرهم الموت ، قال صديق حسن خان عن سوء الخاتمة : ولها أسباب يجب على المؤمن أن يحترز عنها ومن هذه الأسباب :

١ – فساد الاعتقاد : وإن كان مع كمال الزهد وإظهار الصلاح ، فإنه إن كان له فساد في اعتقاده مع كونه قاطعًا به متيقنًا له ، غير ظان أنه أخطأ فيه قد

ينكشف له في حال السكرات بطلان ما اعتقده ولذا يقول تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، وفي الصحيحين عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: « **إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**»، وقوله: فيما يبدو للناس، إشارة إلى أن باطن الأمر بخلاف ذلك، وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس إما من جهة عمل سيىء ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت.

وكذا قد يعمل الرجل عمل أهل النار وفي باطنه خصلة خفية من خصال الخير، فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره فتوجب له حسن الخاتمة.

قال عبد العزيز بن أبي روّاد: حضرت رجلاً عند الموت يلقن: لا إله إلا الله، فقال في آخر ما قال: هو كافر بها ومات على ذلك. قال: فسألت عنه فإذا هو مدمن خمر. فكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنها هي التي أوقعته. ولذا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق، ويشتد قلقهم وجزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر (١).

٢- الإصرار على المعاصي: فإن من له إصرار عليها يحصل في قلبه إلفها وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره عند موته. فإن كان ميله إلى الطاعات أكثر يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر الطاعات، وإن كان ميله إلى المعاصي أكثر يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر المعاصي. فربما يغلب عليه

---

(١) جامع العلوم والحكم: ١/ ١٧٢ - ١٧٤.

حين نزول الموت به شهوة ومعصية، فيتقيد قلبه بها وتصير حجابًا بينه وبين ربه وسببًا لشقاوته في آخر حياته .

ويعـرف ذلك بمثـال، وهو أن الإنسـان لا شك أنه يرى في منامـه من الأحوال التي ألفها طول عمره، حتى أن الذي قضى عمره في العلم يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء، والذي قضى عمره في الخياطة يرى من الأحوال المتعلقة بالخياطة؛ إذ لا يحضر في حال النوم إلا ما حصل له مناسبة مع قلبه لطول الالف .

والموت، وإن كان فوق النوم، لكن سكراته وما يتقدمه من الغشي قريب من النوم . فطول الإلف بالمعاصي يقتضي تذكرها عند الموت وعودها في القلب، وتمثلها فيه وميل النفس إليها . وإن قبضت روحه في تلك الحالة يختم له بالسوء ، قال الذهبي : « قال مجاهد : ما من ميت يموت إلا مُثّل له جلساؤه الذين كان يجالسهم . فاحتضر رجل ممن كان يلعب الشطرنج فقيل له : قل : لا إله إلا الله فقال شاهك ثم مات . فغلب على لسانه ما كان يعتاده حال حياته من اللعب[1] .

وسيرد، إن شاء الله، من القصص ما يؤيد هذا ممن اشتغلوا بالمعاصي فقبضوا عليها ويبعثون عليها، ويفضحون على رءوس الأشهاد، فنسأل الله الحفظ والسلامة .

٣- العدول عن الاستقامة : وأهل الاستقامة هم أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وقد أمر الله -تعالى- رسوله ﷺ بالاستقامة، قال تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود : ١١٢]، وقال تعالى : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ

(١) الكبائر : ١٠٠ .

وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥]، ومدح الله أهل الاستقامة فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

وتكفل تعالى بحفظهم وجعل الموكلين بهم الملائكة يسددونهم ويدعونهم إلى طريق الهدى والرشاد، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].

والذين يزيغون عن طريق الاستقامة ويتغيرون عن الهداية يبتلون بسوء الخاتمة؛ ولذا فإن إبليس كان في ابتدائه مذكوراً مع الملائكة في السماء؛ ولكنه أمر بالسجود وأداء التحية لآدم فأبى واستكبر وكان من الكافرين، فكانت خاتمته اللعنة إلى يوم الدين وورود النار وبئس الورد المورود.

٤- ضعف الإيمان: فمن كان في إيمانه ضعف ضعفت محبة الله في قلبه وترتب على ذلك ترك أوامره والوقوع في نواهيه، وخلع لباس التقوى ولبس لباس المعصية، ويقوى حب الدنيا في قلبه؛ فيجعلها همه حتى يعبدها من دون الله، ويستولي عليه حب الفانية والزهد في الآخرة بحيث لا يبقى في قلبه موضع لحب الله - تعالى - إلا من حيث حديث النفس؛ بحيث لا يظهر له أثره في مخالفة النفس، ولا يؤثر في الكف عن المعاصي ولا في الحث على الطاعات، فينهمك في الشهوات وارتكاب السيئات فتتراكم ظلمات الذنوب على القلب، فلا تزال تطفىء ما فيه من نور الإيمان مع ضعفه. فإذا جاءت سكرات الموت يزداد حب الله ضعفًا في قلبه لما يرى أنه يفارق الدنيا، وهي محبوبته وحبها

غالب عليه، لا يريد تركها ويتألم من فراقها ويفضي به ذلك إلى الخاتمة السيئة. والسبب في ذلك هو حب الدنيا والركون إليها والفرح بها. وتخرج روحه وقلبه منكوسًا إلى الدنيا ووجهه مصروفًا إليها، ويحصل بينه وبين ربه حجاب.

وقد حكي أن سليمان بن عبد الملك لما دخل المدينة وهو يريد الحج قال: هل بها رجل أدرك أحدا من الصحابة؟ قالوا: نعم، أبو حازم سلمة بن دينار الأعرج، فأرسل إليه فلما أتاه قال: يا أبا حازم! ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب. قال صدقت. ثم قال: ليت شعري ما لنا عند الله تعالى؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله، قال: فأين أجده؟ قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]

قال: فأين رحمة الله؟ قال: قريب من المحسنين. قال: فكيف العرض على الله - تعالى - غدًا؟ قال: أما المحسن فكالغائب الذي يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه. فبكى سليمان حتى علا صوته واشتد بكاؤه ثم قال: أوصني: قال: إياك أن يراك الله - تعالى - حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك(١).

وقد ذكر الغزالي في الإحياء أن سوء الخاتمة على رتبتين:

إحداهما أعظم من الأخرى: وهي أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله؛ إما الشك وإما الجحود، فتقبض الروح على تلك الحالة فتكون حجابا بينه وبين الله - تعالى - أبدًا. وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

والرتبة الثانية: هي أن يغلب على القلب عند الموت حب أمر من أمور

---

(١) يقظة أولي الاعتبار: ٢١١ - ٢١٢، والقيامة الصغرى: ٣١ - ٣٥.

الدنيا، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى متسع لغيره والأمر مخطر؛ لأن المرء يموت على ما عاش عليه وعند ذلك تعظم الحسرة (١).

فنسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يرزقنا حسن الخاتمة، وأن يحفظنا من سوء الخاتمة، وأن يحيي قلوبنا بالاعتقاد السليم الذي ينجو به صاحبه من النار، وأن يوفقنا للتوبة النصوح التي نقلع بها عن الذنوب جميعها. ونعزم على عدم العودة لها ونندم على الوقوع في الإثم، ونسأله ـ تعالى ـ أن يثبتنا على صراطه المستقيم الذي يوصلنا إلى رضوانه في الدنيا ويوصلنا إلى جنته في الآخرة، وأن يقوّي إيماننا لنأمن به في الدنيا ونأمن به في الآخرة.

******

(١) إحياء علوم الدين: ٤/ ١٦٢.

علامات حسن الخاتمة

الغيب سرٌّ لا يعلمه إلا الله - تعالى - ولم يطلع عليه نبي مرسل ولا ملك مقرب، بل هو من خصوصيات الرب تعالى، يقول تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]، فلا يعلم الإنسان هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار؟ هل هو من الأتقياء أم من الأشقياء؟ ولا نعرف أحوال الناس إلا بأعمالهم التي يعملونها، فيحكم على الإنسان ويرجى له بها خيراً.

وقد جعل الشارع الحكيم هذه العلامات دليلا على حسن الخاتمة - كتبها الله بفضله ومنه - فأيما امرىء مات بإحداها كانت بشارة له - يا لها من بشارة - ومن هذه العلامات:

١ - النطق بالشهادة عند الموت، أي قول: لا إله إلا الله عند الموت، وهذه الكلمة هي كلمة التوحيد التي أرسل الله بها رسله، وأنزل بها كتبه؛ ولأجلها خلقت الدنيا والآخرة، وخلقت الجنة والنار وفي شأنها تكون الشقاوة والسعادة، وبها تؤخذ الكتب باليمين أو الشمال، وبها يخف أو يثقل الميزان، وبها النجاة من النار بعد الورود، وبعدم التزامها البقاء في النار، وبها أخذ الله الميثاق، وعليها الجزاء والمحاسبة، وعنها السؤال يوم التلاق، فهي العروة الوثقى، وهي الحسنى، وهي كلمة التقوى، وهي القول الثابت، وهي الكلمة الطيبة وهي الحسنة وهي سبب النجاة[١]. روى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن

---

(١) معارج القبول: ٢ / ٤١٠ - ٤١٢.

رسول الله ﷺ قال: «**من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة**» أخرجه الحاكم بسند حسن . وعن طلحة بن عبيد الله - رضي الله عنه - قال: رأى عمر طلحة بن عبيد الله ثقيلاً فقال: مالك يا أبا فلان، لعلك ساءتك امرأة عمك يا أبا فلان؟ قال: لا - وأثنى على أبي بكر - إلا أني سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا ما منعني أن أسأله عنه إلا القدرة عليه حتى مات، سمعته يقول: «**إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند موته إلا أشرق لها لونه ونفَّس الله عنه كربته. قال: فقال عمر إني لأعلم ما هي. قال: وما هي؟ قال: تعلم كلمة أعظم من كلمة أمر بها عمه عند الموت: لا إله إلا الله، قال طلحة: صدقت هي والله هي**» أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم، وهو حديث صحيح .

٢- الموت برشح الجبين، فإذا احتضر الميت وجبينه يتصبب عرقا دلَّ ذلك على حسن خاتمته، فقد روى بريدة بن الحصيب - رضي الله عنه - أنه كان بخراسان فعاد أخًا له وهو مريض، فوجده بالموت وإذا هو يعرق جبينه، فقال: الله أكبر وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**موت المؤمن بعرق الجبين**» رواه أحمد، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وهو حديث صحيح . وقد قيل: إن عرق الجبين عبارة غن شدة الموت، وقيل: علامة الخير عند الموت. قال ابن الملك: يشتد الموت على المؤمن بحيث يعرق من الشدة؛ لتمحيص ذنوبه أو لتزيد درجته، وقال التوربشتي: فيه وجهان؛ أحدهما: ما يكابده من شدة السياق التي يعرق دونهما الجبين والثاني: كناية عن كد المؤمن في طلب الحلال وتضييقه على نفسه بالصدق والصلاة حتى يلقى الله تعالى، والأول أظهر. وقال العراقي: اختلف في معنى الحديث فقيل: عرق الجبين لما يعالج من شدة الموت: وقيل: من الحياء، وذلك لأن المؤمن إذا جاءته البشرى مع ما كان قد اقترف من الذنوب حصل له بذلك خجل واستحيا من الله - تعالى - فعرق لذلك جبينه [١].

---

(١) تحفة الأحوذي: ٤ / ٤٩ .

٣- الموت ليلة الجمعة أو نهارها، فقد روى عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: « **ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله تعالى فتنة القبر** » رواه أحمد، والترمذي. وهو حديث حسن قال الحكيم الترمذي: ومن مات يوم الجمعة فقد انكشف له الغطاء عما له عند الله تعالى؛ لأن يوم الجمعة لا تسجر جهنم، وتغلق فيه أبوابها ولا يعمل سلطان النار فيه ما يعمل في سائر الأيام؛ فإذا قبض الله عبدا من عبيده فوافق قبضه يوم الجمعة كان ذلك دليلا لسعادته وحسن مآبه، وأنه لا يقبض في هذا اليوم إلا من كتب له السعادة عنده؛ فلذلك يقيه فتنة القبر؛ لأن سببها إنما هو تمييز المنافق من المؤمن. يقول المباركفوري في تحفة الأحوذي: قلت: ومن تتمة ذلك أن من مات يوم الجمعة له أجر شهيد، فكان على قاعدة الشهداء في عدم السؤال (١).

وهذا يدل على فضل يوم الجمعة، وأنه كرامة الله لهذه الأمة وكرامة من مات فيه.

٤- الاستشهاد في ساحة القتال إذا قاتل لتكون كلمة الله هي العليا موقنا بما أعده الله للشهداء، قال تعالى: ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠، ١٧١]. وروى المقدام بن معدي كرب -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: « **للشهيد عند الله سبع خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن الفزع الأكبر، ويحلى حلية الإيمان، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين إنسانًا من أهله** » رواه أحمد، والترمذي وابن ماجة، وهو صحيح.

---

(١) تحفة الأحوذي: ٤/ ١٦٠.

وفي رواية: «ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها»، وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهداء؟ قال: **« كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة »** رواه النسائي، وهو صحيح. وترجى هذه الشهادة لمن سألها مخلصًا من قلبه، ولو لم يتيسر له الاستشهاد في المعركة، فقد روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«من سأل الشهادة بصدق، بلغه الله منازل الشهداء؛ وإن مات على فراشه »** رواه مسلم.

وقد عرف الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ذلك ولذا كانوا يتسابقون على الجهاد، ويجدون رائحة الجنة في ساحة المعركة؛ بل وكانوا يقترعون من البيت الواحد من الذي سيخرج لشوق كل واحد منهم إلى الجهاد.

فقد ذكر الذهبي أن النبي ﷺ لما ندب المسلمين يوم بدر فأسرعوا، قال خيثمة بن الحارث لابنه سعد: آثرني بالخروج وأقم مع نسائك وأهلك. فقال سعد: يا والدي لو كان غير الجنة آثرتك به، فاقترعا أيهما يخرج، فوقعت القرعة على سعد فخرج فاستشهد ببدر ثم خرج أبوه إلى أحد فاستشهد يوم أحد(١).

ويلحق به من مات غازيًا في سبيل الله ولو لم يقتل في ساحة المعركة. فقد روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما تعدون الشهيد فيكم؟ قالوا: يا رسول الله! من قتل في سبيل الله فهو شهيد، قال: إن شهداء أمتي إذًا لقليل، قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن** «أي بداء البطن» **فهو شهيد، والغريق شهيد »** رواه مسلم وأحمد. وروى أبو مالك الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٦٦ .

فَصَل «أي: خرج» في سبيل الله فمات أو قتل فهو شهيد، أو وقصه فرسه أو بعيره، أو لدغته هامة، أو مات على فراشه بأي حتف شاء فإنه شهيد، وإن له الجنة » رواه أبو داود، والحاكم، والبيهقي، وهو حديث حسن .

٥- الموت بالطاعون، والطاعون: ورم ينشأ عن هيجان الدم، أو انصباب الدم إلى عضو فيفسده، وهو رحمة للمؤمنين وكفارة لذنوبهم، وتطهير لسيئاتهم. وقد كان عذابًا يبعثه الله على من يشاء، فقد روى البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - **«أنها سألت رسول الله عن الطاعون، فأخبرها: أنه كان عذابًا يبعثه الله على من يشاء، فجعله الله رحمة للمؤمنين »** رواه البخاري في كتاب الطب باب أجر الصابر على الطاعون (١) . وفي الصحيحين عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد، ماذا سمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون؟ فقال أسامة: قال رسول الله ﷺ: **«الطاعون رجز أرسل على طائفة من بنى إسرائيل، وعلى من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه»** .

وقد أصيب المسلمون في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بطاعون عمواس في السنة السابعة عشرة من الهجرة. وممن مات به أبو عبيدة عامر بن الجراح - رضي الله عنه -؟ إذ لما رآه اشتعل في الناس قام خطيبا، وقال: إن هذا الوجع رحمة بكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم؛ وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم لأبي عبيدة حظة، فطعن فمات. واستخلف على الناس معاذ بن جبل - رضي الله عنه - فقام خطيبًا بعده، فقال: يا أيها الناس! إن هذا الوجع رحمة بكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم وإن معاذًا يسأل الله تعالى أن يقسم لآل معاذ حظهم، فطعن ابنه عبد الرحمن فمات، ثم قام فدعا لنفسه فطعن في كفِّه فكان يقول: ما أحب أن لي بما فيك شيئًا من الدنيا . ومما

---

(١) فتح الباري: ١٢ / ٣٠١ .

يدل على بشارة من أصيب به ما روته حفصة بنت سيرين قالت: قال لي أنس بن مالك: بم مات يحيى بن أبي عمرة؟ قلت: بالطاعون. فقال: قال رسول الله ﷺ: **«الطاعون شهادة لكل مسلم»** رواه البخاري وأحمد. وقد سبق حديث عائشة عند البخاري وفيه: **«فليس من عبد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد»** وروى عتبة بن عبد السلمي أن رسول الله ﷺ قال: **«يأتي الشهداء والمتوفون بالطاعون، فيقول أصحاب الطعون: نحن شهداء. فيقال: انظروا فإن كانت جراحهم كجراح الشهداء تسيل دما ريح المسك فهم شهداء، فيجدونهم كذلك»** وهو حديث حسن.

وهذا يدل على عظيم رحمة الله تعالى، ورفعة درجة أهل الابتلاء إذا صبروا واحتسبوا الأجر عند الله ورضوا بقضاء الله وقدره فإن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، وكل شيء عند الله بقدر.

٦- الموت بداء البطن. والمبطون هو الذى استطلق بطنه عليه حتى هلك به. وقيل: هو الاستسقاء وانتفاخ البطن. وقيل الذى يشتكي بطنه، وقد روى أبو سعيد الخدرى- رضي الله عنه- أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي يشتكي بطنه، وفي رواية: استطلق بطنه. فقال: اسقه عسلاً. فذهب ثم رجع، فقال: قد سقيته فلم يغن عنه شيئًا. وفي لفظ: فلم يزده إلا استطلاقًا مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول له: **« اسقه عسلاً فقال له في الثالثة أو الرابعة: صدق الله وكذب بطن أخيك»** متفق عليه. وقد تقدم حديث أبي هريرة عند مسلم وفيه.... «ومن مات في البطن فهو شهيد». وعن عبد الله بن يسار قال: كنت جالسًا وسليمان بن صرد وخالد بن عرفطة، فذكروا أن رجلاً توفي ببطنه، فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهداء جنازته، فقال أحدهما للآخر: ألم يقل رسول الله ﷺ: **«من يقتل ببطنه فلن يعذب في قبره»**؟ فقال الآخر: «بلى»، وفي رواية: «صدقت» رواه النسائي والترمذي وأحمد وابن حبان وغيرهم

بسند صحيح .

ويلحق به ذات الجنب : وهو ورم حار يعرض في الغشاء المستبطن للأظلاع ، وكذلك الموت بداء السل ، لحديث راشد بن حبيش ، وفيه : «والحرق شهادة والسل» وهو حسن .

٧- الموت بالغرق والهدم ، والغرق : هو الموت بالماء ، والهدم : هو الموت بساقط سقط عليه من جدار أو حَجَر أومنزل وغيرها . ويلحق به ، الحرق والموت بحوادث السيارات والطائرات وغيرها . وقد روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : «**الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغرق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله**»، متفق عليه . وبهذا تطمئن نفس المؤمن فلا يتأسف على ما فات ولا يفرح بما هو آت ؛ بل يسلّم الأمر لله الواحد القهار .

وينبغي أن يلاحظ عدم التفريط ، لأن التفريط من الإلقاء بالنفس في التهلكة ، ومن قتل النفس . ونحن نشاهد تسبب الكثير من السائقين في حوادث السيارات ؛ إما بسرعة مفرطة ، وإما بسهر طويل ، وإما بعدم إتقان القيادة ، وإما بمضايقة المارة ، وإما بغير ذلك . والواجب على لمسلم أن يعطى الطريق حقه ، ففى حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «**إياكم والجلوس على الطرقات. قالوا: يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها! قال: فإذا أبيتم فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حق الطريق؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** » متفق عليه ، وقد أوصلها البعض إلى ثلاثة عشر أدبًا نظمها ابن حجر في أربعة أبيات هي :

جمعت آداب من رام الجلوس على ... الطريق من قول خير الخلق إنسانًا

أفشي السلام وأحسن فى الكلام ... وشمّت عاطسًا وسلامًا رد إحسانا

في الحمل عاون ومظلومًا أعن وأغث لهفــان اهــد سبيلا واهد حـيرانا

بالعـرف وانه عـن نكـر وكـف أذى وغض طـرفًا وأكثر ذكر مـــولانا

٨- موت المرأة في نفاسها بسبب ولدها لحديث عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ عاد عبد الله بن رواحة قال: فما تحوز «أي: تنحى» له عن فراشه، فقال: **أتدري من شهداء أمتي؟ قالوا: قتل المسلم شهادة. قال: إن شهداء أمتي إذًا لقليل، قتل المسلم شهادة، والطاعون شهادة، والمرأة يقتلها ولدها جمعاء، شهادة، يجرها ولدها بسرره إلى الجنة** » رواه أحمد والدارمي والطيالسي بسند صحيح . ومعنى جمعاء أى: المرأة التي تموت وفي بطنها ولد. والسِّرة ما يبقى بعد القطع مما تقطعه القابلة والسرر ما تقطعه . وروى جابر بن عتيك -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، والحرق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيدة**» ومعنى جمع أي: تموت وفي بطنها ولد. وهذا الحديث أخرجه مالك، وأبو داود، والنسائي، وأحمد، وابن ماجة، وابن حبان، والحاكم. وهو حديث صحيح . وهذا يدل على المعاناة الجسيمة التي تعانيها الأم عند وضعها بعد معاناة الحمل، ثم معاناة الإرضاع والخدمة له.

ولو تفكر أهل العقوق لعلموا خطورة عملهم، كيف يقابلون الإحسان بالإساءة؟ وليعلم أهل البر أنهم مهما عملوا فلن يوفوا الأم حقها، فلقد رأى ابن عمر -رضي الله عنهما- رجلاً يطوف بأمه حول الكعبة على ظهره، فقال يا ابن عمر: أتراني كافأتها؟ قال: لا، ولا بطلقة واحدة من طلقاتها، ولكن أحسنت، ويجزيك الله على القليل كثيرًا .

والإسلام العظيم حفظ للأم حقها، فأعطاها ثلاثة حقوق، وأوجب على الولد برها. وفي هذه العلامة نجد تكريمها بالشهادة ونيل درجة الشهداء إذا

ماتت بسبب نفاسها أو تعسرت ولادتها، ذلك فضل الله الحكيم الذي أعطى كل ذي حق حقه، ووضع الأشياء في مواضعها فسبحانه اللطيف الخبير.

٩- الموت في سبيل الدفاع عن الدين أو النفس أو المال، ودفع الصائل الذي يريد العبث بالأنفس وبالأموال. فعن سعيد بن زيد -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد**» رواه أبو داود، والنسائي، والترمذي، وأحمد، وهو حديث صحيح. وروى أبو هريرة -رضي الله عنه- أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ **فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: فلا تعطه مالك. قال أرأيت إن قاتلني؟ قال: قاتله. قال أرأيت إن قتلني؟ قال: فأنت شهيد. قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: فهو في النار**» رواه مسلم، وأحمد، والنسائي. وعن مخارق -رضي الله عنه- قال: **جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يأتيني فيريد مالي؟ قال: ذكره بالله، قال: فإن لم يذكر؟ قال: فاستعن عليه من حولك من المسلمين. قال: فإن لم يكن حولي أحد من المسلمين؟ قال: فاستعن عليه السلطان. قال: فإن نأى السلطان عني وعجل علي؟ قال: قاتل دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة، أو تمنع مالك**» رواه أحمد والنسائي بسند صحيح.

١٠- الموت على عمل صالح، وقد نوع الله -تعالى- الأعمال الصالحة، وضاعف عليها الأجر، وبارك بها العمر، وكفر بها الوزر؛ فمن الناس من يموت وهو يذكر الله تعالى، ومنهم من يموت وهو يصلي، ومنهم من يموت وهو لابس ثياب الإحرام يلبي، ومنهم من يموت وهو صائم. وذاك فضل الله يؤتيه من يشاء. وقد كان السلف يحرصون على ملازمة الأعمال الصالحة، حتى قال مالك بن دينار: لو استطعت أن لا أنام ما نمت، ولكن النوم جبلة لابد منه. قالوا له: ولماذا تتمنى؟ هذا التمني قال: أخشى أن يأتيني ملك الموت وأنا نائم،

وقد روى جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«يبعث كل عبد على ما مات عليه»** رواه مسلم. وروى حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«من قال: لا إله إلا الله ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة، ومن صام يوما ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة، ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة»** رواه أحمد بسند صحيح.

ونحن نؤمن أن الموت غيب لا ندري متى يكون، والاستعداد له مطلوب على الدوام؛ حتى إذا أذن الله به قبض العبد على عمل يرضي الله عنه، فيسعد سعادة الأبد. ومن صدق مع الله في دنياه وعمل برضاه ثبته الله عند لقاه؛ بل ويحب لقاء الله؛ ولربما ضحك وهو يفارق الدنيا، إذا رأى النعيم ونجى من الجحيم، فنسأل الله أن يحبب إلينا الإيمان، وأن يزينه في قلوبنا، وأن يرزقنا المداومة على العمل الصالح، وأن يقبضنا على الطاعة، وأن يجعلنا من المتقين.

١١ - التوبة النصوح قبل الموت، والإقبال على الأعمال الصالحة؛ وهذه العلامة قد تدخل في سابقتها، إلا أنها توبة متجددة، وصدق في الإنابة، وثبات على الاستقامة. فقد روى أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله بعبده خيراً استعمله»** فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: **«يوفقه لعمل صالح قبل الموت ثم يقبضه عليه»** رواه أحمد، والترمذي، وابن حبان، والحاكم بسند صحيح. وفي حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا أراد الله بعبد خيراً طهره قبل موته. قالوا: وما طهور العبد؟ قال: عمل صالح يلهمه إياه حتى يقبضه عليه»** رواه الطبراني بسند صحيح.

وعن أبي عتبة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا أراد الله بعبد خيراً غَسَلَه وفي رواية عَسَّلَه» قيل: وما غسله أو عسَّله؟ قال: يفتح له عملا صالحًا قبل موته ثم يقبضه عليه»** رواه أحمد والطبراني بسند صحيح.

١٢- ثناء الناس عليه، وذلك بالشهادة له بالخير والصلاح والتقوى؛ فقد روى أنس بن مالك -رضي الله عنه- «أن جنازة مرت بالنبي ﷺ فأثني عليها خيراً وتتابعت الألسن بالخير، فقالوا: كان ما علمنا يحب الله ورسوله. فقال نبي الله ﷺ: وجبت، وجبت، وجبت. ومُرَّ بجنازة فأثني عليها شراً، وتتابعت الألسن لها بالشر، فقالوا: بئس المرء كان في دين الله. فقال نبي الله ﷺ: وجبت، وجبت، وجبت. فقال عمر: فدىً لك أبي وأمي مُرَّ بجنازة فأثني عليها خيرا فقلت: وجبت، وجبت، وجبت. ومُرَّ بجنازة فأثني عليها شراً فقلت: وجبت، وجبت، وجبت. فقال رسول الله ﷺ: مَنْ أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار. الملائكة شهداء الله في السماء، وأنتم شهداء الله في الأرض، إن لله ملائكة تنطق على ألسنة بني آدم بما في المرء من الخير والشر» متفق عليه .

وعن أبي الأسود الديلي قال: أتيت المدينة وقد وقع بها مرض، وهم يموتون موتًا ذريعًا، فجلست إلى عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فمرت جنازة، فأثني خيراً فقال عمر: وجبت. فقلت: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال النبي ﷺ: «أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة. قلنا: وثلاثة؟ قال: وثلاثة. قلنا: واثنان؟ قال: واثنان. ثم لم نسأله في الواحد» أخرجه البخاري .

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئا إلا شفعوا فيه» رواه أحمد، وأبو داود بسند صحيح .

ومجموع هذه الأحاديث يدل على أن هذه الشهادة لا تختص بالصحابة -رضي الله عنهم- بل هي أيضًا لمن بعدهم من المؤمنين الذين هم على طريقتهم في الإيمان والعلم والصدق (١) .

(١) أحكام الجنائز: ٣٤ - ٤٥ ، ومشاهد الموت عبد الله التليدي: ٥٥ .

وبما سبق يتبين أن الصادق في إيمانه هو الذي يعبد الله حتى يأتيه اليقين، فلا يصرف وقته إلا لله تعالى، ولا يفني عمره إلا في اتباع رضوانه، ولا يبلي شبابه إلا في طاعة سيده ومولاه. فهو كل ساعة ينتظر الأجل، وكل يوم يوقن أنه مرتحل، فيحظى بدرجة الصادقين، ويكون في عداد الصالحين، فلا يخاف على مستقبله، ولا يحزن على ماضيه؛ بل هو في جنة الطاعة تتلَذَّذ روحه بكل انقياد، وتستعد ليوم المعاد. نسأل الله أن يوفقنا للعمل الصالح، وأن يرزقنا الاستعداد للموت وأن يثبتنا على القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

******

عاقبة المعصية

أسعد الناس من حظي بطاعة الله - تعالى - وانقاد لأمره، وانتهى عن نهيه، مراقبته لله - تعالى - دائمة في السر والعلانية، زينته التقوى، وعاقبته الحسنى، لا تراه إلا متواضعًا، لأنه يعلم أن من تواضع لله رفعه، ويعلم أن أول صفة من صفات عباد الرحمن هي صفة التواضع، قال الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]ويعلم حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم وأحمد الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو الإ عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه**» وهو حديث صحيح(١) .

ويوقن أن التكبر سفه ومعصية، وصَغار ومذمَّة، لأن من تكبر على الله وضعه، فقد روى عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « **يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار، طينة الخبال** » رواه أحمد والترمذي، وهو حديثه حسن(٢) . ولقد شرف الله آدم - عليه السلام - إذ خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، ونفخ فيه من روحه، وعلمه الأسماء. وقد اختبر الله به الملائكة - عليهم السلام -؛ إذ أمرهم بالسجود تحية له، وكان معهم في الأمر إبليس، فامتثلت الملائكة أمر ربها وسجدوا كلهم أجمعون، وأرضوا رب العالمين، فحصل لهم بهذه الطاعة ثمارًا جليلة منها :

١- العصمة من المعصية، فلا نجد ملكا واحداً يعصي ربه قال تعالى : ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

(١) صحيح الجامع الصغير: ٥٨٠٩، والصحيحة: ٢٣٢٨ .
(٢) صحيح الجامع الصغير: ٨٠٤٠، ومشكاة المصابيح: ٥١١٢ .

٢- القرب من الله تعالى ؛ إذ هم أقرب المخلوقات إلى الله ـ عز وجل ـ فهم أول من يسمع كلامه، وأول من يمتثل ذلك فلهم السبق في الخير والفضيلة .

٣- الثبات على الحق وعدم التأثر بالأهواء والأباطيل، فقد حافظوا على مكانهم في السماء ودنوهم من الرب، وما ازدادوا بالطاعة إلا قربًا . والثبات مطلب غال يطلبه أولو الألباب ؛ لأن من ثبت على صراط الله المستقيم ثبته الله تعالى على الصراط المنصوب على متن جهنم يوم أن تزل أقدام كثير من الناس .

والطاعة لله ـ تعالى ـ شرف للعبد، يتشرف به، ويكون بها عبدًا لله تعالى يتحرر من عبودية النفس والهوى والشيطان، ويفوز بسعادتي الدنيا والآخرة، وبهذا حققت الملائكة المطلوب منهم .

أما إبليس فأبى واستكبر ورفض السجود لآدم، وتعلل بعلل واهية وقاس قياسًا باطلا وقال : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص : ٧٦] .

وكان يظن أن النار أفضل من التراب ؛ وما علم اللئيم أن الطين أفضل من النار للأمور التالية :

١- أن من جوهر الطين الرزانة والسكون، والوقار والأناة، والحلم والحياء والصبر، وذلك هو الداعي لآدم ـ عليه السلام ـ بعد السعادة التي سبقت له إلى التواضع والتضرع، فأورثه الله المغفرة والاجتباء والهداية .

ومن جوهر النار الخفة والطيش، والحدة والارتفاع والاضطراب ؛ وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار ؛ فأورثه الهلاك والعذاب، واللعنة والشقاء .

٢- أن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مسك إذفر، ولم ينطق الخبر بأن في الجنة نارًا، ولا أن في النار ترابًا .

٣- أن النار سبب العذاب وهي عذاب الله لأعدائه، وليس التراب سببًا

للعذاب .

٤- أن الطين مستغنٍ عن النار؛ والنار محتاجة إلى المكان، ومكانها التراب .

٥- أن التراب مسجد وطهور، والنار تخويف وعذاب (١) .

وقد قيل : إن إبليس كان من الملائكة؛ فقد ذكر السدي في تفسيره عن أبي مالك، عن أبي صالح، عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما، أن الله تعالى لما فرغ من خلق ما أراد استوى على عرشه، فجعل إبليس على مَلَك الدنيا؛ وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم : الجن؛ وإنما سموا بذلك لأنهم خزان الجنة . وكان إبليس مع مُلْكه خازنًا فوقع في صدره : إنما أعطاني الله هذه المزية لشرفي على الملائكة .

وذكر الضحاك، عن ابن عباس أن الجن لمّا أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء بعث الله إليهم إبليس ومعه جند من الملائكة، فقتلوهم وأجلوهم عن الأرض إلى جزائر البحور . وقد ذكر ابن إسحاق عن طاوس عن ابن عباس أن اسمه قبل المعصية عزازيل (٢) .

والصحيح، والله أعلم : أن إبليس لم يكن من الملائكة؛ ولكنه سكن معهم وتخلق بأخلاقهم، وعبد عبادتهم غير أن طبعه خانه . والدليل على أنه لم يكن من الملائكة ما يلي :

١- أن الله تعالى أخبر أنه من الجن، لا من الملائكة قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف : ٥٠] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٧ / ١٧١ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك : ١ / ٥٦ ، والبداية والنهاية : ١ / ٥٠ .

٢- أن الله تعالى أخبر عن الملائكة بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وإبليس عصى ربه فدل هذا على أنه لم يكن من الملائكة.

٣- أن الرسول ﷺ أخبر أن الملائكة خلقت من نور، وأن الجن خلقوا من نار، وأن آدم خلق من طين، فقد روت عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» رواه مسلم.

٤- أن الله تعالى ذكر في القرآن أن للشيطان ذرية، ولم يذكر أن للملائكة ذرية قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

وعلى هذا فيكون الاستثناء في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٣، ٧٤] هو استثناء منقطع ليدل على أن إبليس ليس من الملائكة؛ لأنه أبى السجود لآدم وعصى الرب، فلعنه الله وطرده من رحمته، وأخرجه من الجنة، وأهبطه من السماء، ومسخه من كل خير. وهذا جزاء الكبر الذي لا يليق بمخلوق؛ لأنه من خصوصيات الخالق، ولا يجوز لأحد أن ينازعه فيه، قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧]، وتقديم المعمول على العامل يفيد الحصر والاختصاص. وفي الحديث القدسي: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري» رواه

أحمد ٢ / ٢٤٨ ، وأبو داود ٤ / ٤٠٩٠ ، وابن ماجة ٢ / ٤١٧٤ [(١)] .

وليعلم المتكبر بأنه حقير في الدنيا وحقير في الآخرة، ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرجل جمته؛ إذ خسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة**» رواه البخاري. وهذا يعني أن المتكبر تحت أقدامنا الآن يطأه الناس في الدنيا بأقدامهم، ويوم القيامة يكون كالذر كما سبق بيانه في الحديث المتقدم.

وفي قصة آدم مع الملائكة والجن نجد اختباراً عمليا بين يدي هذا الإنسان الذي سيكون خليفة في الأرض؛ يستفيد من هذا الاختبار، فقد رأى أثر الطاعة من الملائكة؛ فلعله أن يجعلهم قدوة ليحفظ من المعصية، ويقترب من الرب ويحظى بنور في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق. وما هذا إلا قليل من كثير.

قال ابن القيم - رحمه الله - وهو يحذر من المعصية ويبين أثرها وعاقبتهما، وما يترتب عليها من أضرار: «وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وجعل باطنه أقبح من صورته وأشنع. وأبدله بالقرب بعداً وبالرحمة لعنة وبالجمال قبحًا، وبالجنة ناراً تلظى، وبالإيمان كفرا، وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان.

فهان على ربه غاية الهوان، وسقط من رحمته غاية السقوط، وحل عليه غضب الرب تعالى، فأهواه ومقته أكبر المقت؛ فأرداه فصار قواداً لكل فاسق ومجرم؛ رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة؛ فعياذا بك اللهم من

---

(١) صحيح الأحاديث القدسية ص: ٤١١ .

مخالفة أمرك، وارتكاب نهيك »[١] .

فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم، وليحذر المسلم معصية الله تعالى، ولا ينظر لصغر المعصية ولكن ينظر إلى عظمة من عصى، ولربما معصية واحدة أوبقت دنيا الإنسان وآخرته؛ فقد روى سهل ابن سعد - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب؛ فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه**» رواه أحمد وغيره بسند صحيح[٢] .

وكانت عاقبة المعصية من إبليس اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة: يقدم أتباعه يوم القيامة ويوردهم النار، وبئس الورد المورود قال تعالى: **﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [إبراهيم: ٢٢].

وأعلن الشيطان عداوته للإنسان ليبدل فطرته التي فطر عليها، وليغير طريقه المستقيم الذي يمشي عليه، وليوقعه في الهلاك والعذاب قال تعالى: **﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾** [الأعراف: ١٦ - ١٨].

عسى أن يعتبر أهل القلوب الحية، وأن يتذكر أهل الأفئدة الغافلة .

******

(١) الجواب الكافي : ٨٠ .
(٢) صحيح الجامع الصغير: ٢٦٨٧ .

عقوق الوالدين

أوصى الله ـ تعالى ـ بحق الوالدين في كثير من الآيات؛ بل وقرن حقهما بحقه عز وجل إذ يقول تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]، ويقول تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، ويقول تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، وحث عليه الصلاة والسلام على أداء حق الوالدين في أحاديث كثيرة؛ منها حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ «سئل أي العمل أفضل؟ قال: الصلاة على وقتها. قيل: ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قيل: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله» متفق عليه. وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: «ما من مؤمن له أبوان فيصبح وهو محسن إليهما إلا فتح الله له بابين في الجنة، ولا يصبح وهو مسيء إليهما إلا فتح الله له بابين من النار وإن واحداً فواحد».

وحقهما عظيم لا نستطيع استيفاءه من خلال هذه الأسطر، ولسنا في معرض بيان ذلك إلا أنني سأذكر عاقبة عقوقهما من خلال قصة ابن نبي من الأنبياء، سمع الحق من معينه، وشاهد الوحي في مهبطه، ورأى المعجزات الباهرة، والآيات الواضحة، والحجج البينة، دُعي إلى الحق فما أجاب، وسد أذنيه صدوداً عن الصواب، فعوتب أشد العتاب وتُوعد بأليم العذاب. ذاك الشقي هو ابن نوح، الذي عصى ربه، وعق أباه، وظن النجاة وما علم أنه في قبضة سيده ومولاه. وهو رابع إخوته، وغريب أسرته؛ فقد كان لنوح عليه السلام ثلاثة من الولد: هم سام، ويافث، وحام؛ فأما سام فولده هم العرب وفارس والروم، وأما يافث فولده الترك والصقالبه ويأجوج ومأجوج، وأما

حام فولده القبط والسودان والبربر.

وقد ذكر أن هؤلاء الثلاثة لم يولدوا لنوح -عليه السلام- إلا بعد الطوفان. والابن الرابع هو كنعان كما هو مسمى بذلك عند أهل الكتاب، وأما عند العرب فاسمه يام، وقد ولد لأبيه قبل الطوفان؛ والصحيح من الروايات - والله أعلم - أن الأربعة قد ولدوا قبل الطوفان، وأنهم ركبوا مع أبيهم في السفينة إلا كنعان وهذا نص التوراة »[1].

وقد بذل نوح جهده في دعوة قومه؛ بل ونوع لهم الأساليب فى الدعوة؛ إذ دعاهم سرا وجهرا، وليلاً ونهاراً، وصبر عليهم مدة طويلة، إذ لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فما استجاب له إلا القليل. وكان ممن عصاه ورفض دعوته ابنه كنعان، فلقد دعاه والده إلى الركوب معهم في السفينة والنجاة من الغرق، فقال بعقل السفيه ومنطق المعتوه: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ويمنعني من الهلاك، فأجابه أبوه: لا عاصم يعصمك، ولا مانع يمنعك إلا إذا حفظت الله بالطاعة فيحفظك من الهلاك. ولكن الولد العاق سد أذنيه، وأقفل قلبه أمام هذه النصائح، وضرب بها عرض الحائط، وركب عجبه، وامتطى كبره حتى غمره الماء، وكان من أهل الشقاء، وأغضب رب الأرض والسماء، ونزل به القضاء، ولم ينفعه الدعاء؛ بل وقع به البلاء فهو صاحب أذن صماء وعين عمياء، ويد شلاء وكلمة خرساء، ورحل من الدنيا بعقوقه لربه وعقوقه لأبيه، قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢، ٤٣].

فهل من آذان صاغية وقلوب واعية تعي مثل هذه الحوادث، فترتدع

---

(١) البداية والنهاية: ١/ ١٠٨ - ١٠٩.

وتعود إلى رشدها وصوابها؛ لتعلم أن رضى الله من رضى الوالدين، وسخط الله من سخط الوالدين، فقد روى عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**رضى الرب من رضى الوالدين، وسخطه من سخطهما**» وهو حديث صحيح [(١)].

وكم من الأنوف رغمت ودست في التراب عندما تدنست بعقوق الوالدين؛ فقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه: من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما، أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة**» رواه أحمد ومسلم.

ومما يروى أن شابا كان مكبا على اللهو واللعب، لا يصبر عنه؛ حياته ضياع، وعمله الصالح في انقطاع، كان له والد صاحب عبادة ونسك، كثيراً ما كان يعظ ولده ويقول له: يا بني! احذر هفوات الشباب؛ فإنها سبيل إلى العذاب، وإن لله - تعالى - سطوات ونقمات، ما هي من الظالمين ببعيد، وكان إذا ألح عليه زاد في العقوق وترك جميع الحقوق. وفي يوم من الأيام أكثر عليه النصح وحذره من القبح، فما كان من الابن إلا أن مد يده على أبيه، وضربه ضربًا مبرحًا، وأخذ الأب ينظر إلى الضارب؛ هل هو ابنه أم أنه سواه؟ ودقق النظر فتيقن أنه ابنه، سقط في يده وحار في أمره؛ كيف يعتدي ابن على أبيه، والله تعالى أوصاه ببره، ولم يوصه بضربه؟ وكيف توافقه نفسه على هذا العمل المشين، الذي لا تطيقه السموات والارض، ولا تصدقه النفوس الأبيَّة المؤمنة؟ واشتعلت نار الغضب في صدر الأب؛ وأخذ يقول: ابني من صلبي، ربيته وخدمته وعلمته وحرصت على صلاحه، وأحسنت له وبذلت له كل ما أجد، وقدمته على نفسي في كثير من الأمور؛ ويقابل إحساني بهذه الإساءة؛ لأرفعنَّ أمره إلى الذي لا تخفى عليه خافية، والذي حرم الظلم على نفسه وجعله بين

---

(١) صحيح الجامع الصغير حديث رقم ٣٥٠٧، والصحيحة رقم ٥١٦ .

العباد محرما .

فقرر بأيمان مغلظه أن يسافر إلى البلد الحرام لأداء العمرة ، وأن يدعو الله من جوار بيته بأن ينتقم له من هذا الابن العاق ؛ الذي أخرجه من بيته ومن بلده وأضر به . وخرج مسافراً وحرارة الضرب لا تزال تشتعل في أوصاله ، وصل إلى البيت الحرام ، وطاف بالكعبة المشرفة ، ووقف بين باب الكعبة والحجر الأسود وأنشأ يقول :

يا من إليه أتى الحجاج قد قطعوا عرض المهامة من قرب ومن بعد
إني أتيتك يا من لا يخيب من يدعوه مبتهلا بالواحد الصمد
هذا منازل من لا يرتد من عققى فخذ بحقي يا رحمن من ولدي
وشل منه بحول منك جانبه يا من نقدس لم يولد ولم يلد

فما استتم كلامه ودعاءه حتى شل نصف ولده الأيمن الذي لطم به أباه ، فأصبح كالخشبة المطروحة التي لا تتحرك إلا بمن يحركها ، ولازم فراشه ليسلم الناس من شره . وفقد لذة الحياة ، وفارق الأصحاب والأحباب ، وأصبح عالة على غيره .

وبهذه الدعوة المستجابة صار لا يحيا إلا بنصف جسد ، وذهبت قوته التي كان يؤذي الناس بها ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[١] .

فنعوذ بالله من العقوق ، ومن ترك الحقوق ، ومن قساوة القلوب . وما أحسن عتاب أحد الآباء لولده عندما رأى منه العقوق ، فتمثل أبياتًا قال فيها : -

غذوتك مولوداً وفتك يافعًا تعل بما أجني عليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت لسقمك إلا ساهراً أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي طرقت به دوني فعيني تهمل

---

(١) موارد الظمأن لدروس الزمان ٣/ ٤٥٤ .

تخاف الردى نفسي عليك وإنها لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظة وفضاضة كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي فعلت كما الجار المصاقب يفعل
فأوليتني حق الجوار ولم تكن عليَّ بمال دون مالك تبخل(١)

فليحذر أهل العقوق أن تصيبهم دعوة حارة، أو يصيبهم عذاب أليم. وكل الذي حصل لجريج سببه أن أمه دعت عليه ألا يموت حتى يرى وجوه المومسات «الزواني»، فاستجاب الله لها، مع أن ابنها جريجًا اشتغل عنها بالصلاة والعبادة؛ فكيف بمن عق والديه بمعصية الله ورسوله، وعمل على إيذائهما؟ فليرتقب سوء صنيعه، وليتحمل عاقبة فعله، وليكن عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين.

وإنني أتمنى أن يقف أهل العقوق على أحوال من سبقهم؛ ممن بضاعته كبضاعتهم وعمله كعملهم، ومنهجه كمنهجهم؛ ليطلعوا على النكال الذي حل بهم، والعذاب الذي نزل بهم، والضيق الذي ألمَّ بهم، فيجدوا في ذلك ردعًا لهم، ووقاية لهم، وإيقاظًا لغفلتهم.

******

(١) السلوك الاجتماعي في الإسلام: ٢٦٣، ٢٦٤، وغذاء الألباب: ١/ ٣٨٠.

خاتمة الكبر والعجب بالنفس

النفس البشرية نفس ضعيفة تتقلب في الساعة الواحدة إلى أحوال شتى، فهي في حاجة ماسة إلى المجاهدة المستمرة؛ لتنال رضوان الله تعالى، ولتهتدي بهدي الله، ولتحظى بثواب الله تعالى، قال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١] ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]، ومما يُطْغي النفس كثرة المال، وحسن الحال الذي يؤدي بالإنسان إلى عبادة الدرهم والدينار، وعبادة الخميصة والخميلة، وعبادة الثوب والنعل، وعبادة الأرض والتراب. وهؤلاء هم الذين جعلوا المال في قلوبهم؛ فأحبوه من دون الله تعالى؛ بل أحبوا من أجله، وأبغضوا من أجله، ووالوا من أجله، وعادوا من أجله.

ولذا يروي أبو هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**» الحديث رواه البخاري وابن ماجه.

وصنف آخر من الناس يضع المال في يده ولا يدخله قلبه؛ بل يدفعه بالراحتين والصدر، فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار في طاعة الله تعالى وطلب رضوانه؛ لينال البر والتقوى، ومن العمل ما يرضى؛ فحظه الربح الوفير والأجر الكبير. قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]، ويقول تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ

مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

والمال: ابتلاء واختبار، قد يدخل به الإنسان الجنة، وقد يدخل به النار؛ بل والسؤال عنه يوم القيامة هو أحد الأسئلة الأربعة التي يسأل عنها العبد، فقد روى أبو برزة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه؟ وعن علمه ما فعل فيه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟**» رواه الترمذي بسند صحيح.

وممن ابتلاه الله - تعالى - بالمال قارون؛ كان من قوم موسى فبغى عليهم، وقد قيل بأنه ابن عم موسى - عليه السلام - وقيل: بل كان عمه. منحه الله تعالى صوتًا جميلاً يقرأ به التوراة، وكان يسمى النور لحسن صوته، إلا أنه نافق وبغى وتكبر، وجحد نعمة الله تعالى، ورضي الكفر بديلاً عن الإسلام، والظلام عن النور، والشقاوة على السعادة، وقرناء السوء على قرناء الخير، وطريق الغواية على طريق الهداية، وخطوات الشيطان على خطوات الأنبياء.

واستدرجه الله بنعمه وأوجب عليه سخطه؛ لأنه عظَّم المال وما عظَّم رب المال، وركن إلى الدنيا ونسي الآخرة، وباع الباقية بالفانية، وقال في كبر الشيطان ونفثه ونفخه: إنما أوتيته على علم. فأنكر فضل الله تعالى عليه، وأخذ ينظر في عطفيه، ويجر برديه، ويتعالى على الناس ويحتقرهم، ويقول: ماهذا المال إلا لأحقيتي به. وأخذ يكيد لموسى وللمؤمنين، ويتهمهم بأبشع الجرائم والمنكرات، وارتد عن دين الإسلام الذي جاء به موسى - عليه السلام - وأعرض عن حلقات الذكر، فاستحوذ عليه الشيطان حتى أنساه ذكر الله.

كان همه التجمل والتزين ولبس أحسن الثياب والانتعال بأغلى النعال، عمر دنياه وأخرب آخرته، وباع دينه بلذة عابرة وحسرة دائمة، عاش حياة المترفين، وتخلق بأخلاق المعرضين، وسلك طريق العاصين، فله عند ربه العذاب المهين. ولقد قص الله - تعالى - علينا خبره في كتابه العظيم، وأوضح لنا عاقبة فرحه وبغيه وفساده؛ إذ خسف به الأرض، هو وزينته التي كان يتزين

بهـا، وبداره التي كـان يسكنهـا، وبخدمـه الذين كـانوا يعـبـدونه من دون الله، ويعظمونه أشد من تعظيم الله .

وقـد ذكـر أهل العلم أن قـارون لما خـرج على قـومـه في زينتـه؛ وهو على البغال الشهب، وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة، فمر في محفله ذلك على مجلس نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ، وكان موسى يذكر قومه بأيام الله، فلما رأى الناس قارون انصرفت أبصارهم ووجوههم نحوه؛ ينظرون إلى ما هو فيـه، فـدعـاه مـوسى ـ عليـه السـلام ـ وقـال: مـا حـملك على ما صنعت؟ فـقـال: يا مـوسى: أمـا لئن كنت فضلت علي بالنبـوة فلقـد فـضلت عليك بالمال والدنيـا، ولئن شـئت لتـخـرجن فلتـدعـون علي وأدعـو عليك، فـخـرج مـوسى وخرج قارون في قومه، فقال موسى عليه السلام: تدعو أو أدعو أنا، فقال: بل أدعو أنا، فدعا قارون فلم يُجَبْ له، ثم قال موسى: أدع؟ قال: نعم، فقال موسى: اللهم! مر الأرض أن تطيعني اليوم، فأوحى الله إليه: إني قد فعلت، فقال موسى: يا أرض خذيهم. فأخذتهم إلى أقدامهم، ثم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم، ثم قال: أقبلي بكنوزهم وأموالهم، فأقبلت بها حتى نظروا إليها، ثم أشار مـوسى بيـده، ثم قال: اذهبـوا بني لاوي فاسـتوت بهم الأرض، قـال ابن عباس: خسف الله بهم إلى الأرض السابعة وقال قتادة: ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامه، فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة(١) .

وقد صورت الآيات قصته تصويراً عجيبًا، وبينت عاقبته، وفي القصص عبرة لأولي الألباب، ما كان حديثًا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه، يقول تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٠٢ .

أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٦ - ٨٢]

فليفكر أهل العقول: كيف هوى هذا الرجل بماله، وضعف سلطانه، وانهدت أركانه؛ جعل الدنيا فوق رأسه، وأوامر الله تعالى تحت قدمه، فتجرع التراب، ونسي أو تناسى أن العبد يقول: مالي مالي، وليس له إلا ما أكل فأفنى، ولبس فأبلى، وتصدق فأبقى، وكم من عبَّاد المال يقبضون على ذكر المال، تخرس ألسنتهم عن التوحيد، ولذا يروى أنه قيل لرجل عند الاحتضار: قل: لا إله إلا الله، فقال: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والمال الفلاني افعلوا به كذا، ومات على ذلك من غير شهادة. وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله -عند الموت- فجعل يقول: عشرة، أحد عشر، اثنا عشر، ومات عليها(١).

ومن العجائب ما قرأته في كتاب «نوادر من التاريخ» للأستاذ صالح الزمام بعنوان: من فيح جهنم، إذ يقول: تحدثنا في مجلس أخينا في الله الأستاذ سليمان بن عبد الله العجاجي، عن فتنة ابن آدم في المال، وشدة حبه له مع علمه بمحدودية عمره على هذا الكوكب، فقال الأخ العجاجي بأن الشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز السليم -رحمه الله- حدثه: أنه رأى رجلاً عجوزاً

---

(١) اغتنام الأوقات في الباقيات الصالحات ٣٧.

يعمل بخياطة البشوت الرجالية في الأحساء، ولاحظ عليه أنه كلما غرس الإبره ورفعها وضع أنامله في فمه. ونفث عليها كأنه يبردها، يقول: ثم دنوت منه وسألته على استحياء عن السر في هذا العمل، فقال: يا بني! إني أجد في أصابعي حرارة شديدة منذ عشرات السنين، فدهشت قائلا: هل ذلك الألم من حساسية في يدك؟ قال: لا؛ بل نار أحرقتني. قلت بعجب شديد: نار منذ سنوات؟! قال: يا بني منذ كذا وكذا من السنين حضرت شيخًا من أقاربي عند موته، وكان الوقت وقت شدة وجوع، وقال لي في إحدى إفاقاته التي كان يفيقها - وهو في السياق يحتضر -: أحضر لي تمرا، فقلت: وهل بك قدرة على الأكل، قال: نعم، وألح في الطلب، ففرحت بذلك، وأحضرت له قليلاً من التمر، فقال لي: أريد منك أن تنصرف عني وتتركني، فتواريت عنه خلف الباب أنتظر ماذا يفعل، فأخذ يتقلب، ويتحامل على نفسه، وإذا هو يحل هميانًا بوسطه، ويخرج منه عدة جنيهات ذهبية، ويخرج النوى من التمر ويضع مكانه الجنيه فيمضغه ويبلعه، وذلك بجهد شديد، ومات قبل استكمال الجنيهات، فسارعت وأخذت الجنيهات الباقية القليلة، وفكرت في إخراج ما ابتلعه وذلك لشدة الحاجة إليها، وأخذت سكينًا وقددت بها بطنه ورأيت الجنيهات، ومددت أصابعي لإخراجها، وإذا بحرارة تلفح يدي وأصابعي أشد حرارة من نار الدنيا بسبعين ضعفًا، وأصابني الهلع والخوف، وكففت يدي وإن الحرارة لم تفارق أصابعي يا بني حتى هذا اليوم»(١)

فما أعظم أن تكون حياة الإنسان كفافًا يجوع يومًا فيذكر الله، ويشبع يومًا فيشكر الله، ويكون همه هو عمل الآخرة؛ فيعيش سعيداً، ويموت حميداً، ويبعث رشيدًا، ويبدله الله بأموال الدنيا قصور الآخرة في الجنة، فيقول: الحمد لله الذي أورثني الجنة أتبوأ منها حيث أشاء، والحمد لله الذي أذهب عني الحزن، إن ربي غفور شكور.



(١) نوادر من التاريخ ٣/ ١٠ .

لذة الإيمان

إذا أراد الله ـ تعالى ـ بعبده خيرا : يسر له سبل النجاة ، وحبب إليه مجالس الدعاة ، وحفظه من كل لاعب ولاه . وليست اللذة في طعام الأبدان ، و لكنها في غذاء الأرواح . وليس النعيم هو التنعم بالدنيا ، ولكنه التنعم بالآخرة ، فإن أنعم أهل الدنيا من أهل النار ، يغمس غمسة واحدة في النار فينسى بهذه الغمسة كل نعيم ، وإن أشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة ، يصبغ صبغة في الجنة فينسى كل بؤس وشدة .

فقد روى أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : **«يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار ـ يوم القيامة ـ فيصبغ في جهنم صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»** رواه مسلم .

وقد عاشت آسية بنت مزاحم في بيت الإلحاد والكفر والمجون ، والعهر والتمرد والسكر ؛ لا تعرف من الحياة إلا حياة البهائم والأنعام التي همها بطنها وفرجها ، وعاشت تتقلب في النعيم ؛ بين الخدم والحشم ونسيت ربها ، فأنساها نفسها ، وما وجدت أحدًا يذكرها بالله تعالى ، فكانت تعاني من ظلام القلب ، وانحراف المنهج ، وانتكاس الفطرة ما أخرجها عن إنسانيتها .

وفي يوم من الأيام المجيدة في حياتها هيأ الله لها داعية يدعوها إلى الخير ، ويحذرها من الشر ، ويعرفها بالله تعالى ، ويربطها بالهدى ، ويوصلها طريق النجاة ، ويحذرها طريق الهلاك ؛ فاستيقظت بعد غفلتها ، واهتدت بعد ضلالها ، وسعدت بعد شقائها ، وكانت هدايتها على يد موسى بن عمران ـ عليه

السلام ـ عندما وضع بين يديها في التابوت، وهو لا يزال رضيعًا لا يتكلم ولا يعي، ولا يدرك ولا يميز.

ولكن الله تعالى فتح قلبها لمحبته، فقالت لزوجها ـ فرعون ـ: قرت عين لي ولك. فرد عليها: بل قرة عين لك أنت، أما أنا فلا أريده قرة عين لي. وقد استجاب الله دعوتها؛ إذ جعل موسى قرة عين لها عندما أسلمت على يديه، وتركت الكفر وظلمته، ووجدت الإيمان ولذته، وندمت على أيامها الخالية بلا إسلام، وتعجبت كيف صبرت على تلك المرارة، وكيف تذوقت ذلك العصيان، وقضت بقية حياتها في سعادة مع أهل الإيمان والعمل الصالح، فكانت خاتمتها حميدة؛ إذ سألت ربها الجوار قبل الدار، قال الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١] وقبل الله دعاءها وأحياها بالإسلام بعد الكفر والظلام، وجعلها داعية في بيت الشرك والإلحاد لتبين محاسن الإسلام، ولقيت من الأذى ما يلقاه أمثالها.

وفي الآية حث على الصبر في الشده، أي: لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون حين صبرت على أذى فرعون ـ وقد كان أعتى أهل الأرض وأكفرهم بالله تعالى ـ فوالله! ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، ليعلموا أن الله حكم عدل، لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه.

وقد روي عن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ: أن امرأة فرعون كانت تعذب في الشمس فإذا آذاها حر الشمس أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة فتضحك، فيقول فرعون: انظروا لهذه المجنونة نعذبها فتضحك. ولكن كيف لا تضحك وهي ترى النعيم المقيم؟!

ومن صور تعذيبها: أن فرعون كان يقول: انظروا أكبر صخرة فألقوها عليها، فرفع الله روحها إليه، وألقيت الصخرة على جسد بلا روح. وقد قال أبو العالية الرياحي: إن امرأة فرعون حضرت عذاب ماشطة بنت فرعون التي

كانت تمشطها، وفي يوم من الأيام سقط المشط من يد الماشطة فقالت: تعس من كفر بالله تعالى، فقالت لها بنت فرعون: ولك رب غير أبي؟ قالت: ربي ورب أبيك، ورب كل شيء، هو الله تعالى، فلطمتها بنت فرعون على وجهها، ثم أخبرت أباها، فأحضرها فرعون ثم قال لها: هل لك رب سواي؟ فقالت: نعم، ربي وربك ورب الوجود هو الله الواحد القهار، فأوتد لها أربعة أوتاد. وشد يدها ورجليها، وأرسل عليها الحيات، ثم قال لها يومًا: ما أنت بمنتهية؟ قالت: كيف أترك التوحيد، وعبادة الرب العظيم. فقال لها: إني ذابح ابنك في فيك إن لم تعودي عن دينك، قالت: افعل ما تشاء. فذبح ابنها على فمها، وهي تراه وتنظر إليه، وتقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتي، واخلفني خيرا منها فناداها ابنها: أبشري يا أمي؛ فإن لك عند الله تعالى أعظم الثواب، وذبح الابن الثاني كالأول فرأت امرأة فرعون هذا المشهد المرعب، فازدادت بذلك إيمانًا[١].

كملها الله تعالى مع قلة من النساء، ففي الحديث الذي رواه أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام**» متفق عليه.

بل ورد في أحاديث فيها نظر: أنها من زوجات النبي ﷺ يوم القيامة، فلقد ذكر ابن كثير حديث سعد بن جنادة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله زوجني في الجنة مريم ابنت عمران، وامرأة فرعون، وأخت موسى**» رواه الطبراني. والله أعلم بصحة ذلك[٢].

فرحم الله آسية، ورضي عنها، ورفع قدرها، وجمعنا بها في الفردوس

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٩٥، وتفسير القرطبي: ١٨/ ٢٣.
(٢) البداية والنهاية: ٢/ ٥٧.

الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، وكثّر الله في البيوت المؤمنة مثلها؛ يوم أن تُقدّم رضوان الله تعالى - على رضوان غيره، يوم أن تقدم عبادته على عبادة غيره، ويوم أن تصبر على الأذى في سبيل الله تعالى، ويوم أن تعلم أن الطريق إلى الجنة محفوف بالمكاره، يوم أن تتلذذ بالإيمان مع العذاب، يوم أن تقول لفرعون: اقض ما أنت قاض، فإني وجدت الذي أتمناه من السعادة والسكينة والطمأنينة.

فسلام عليها في الصالحين، وسلام عليها في الخالدين، وسلام عليها في العالمين.



الجهر بالحق

يدافع الله تعالى عن عباده المؤمنين، ويؤيدهم بتأييده، وينصرهم بنصره، ويقيض لهم من يذب عنهم بلسانه، وبماله، وبيده، وبقلمه. ودعوة موسى - عليه السلام - لفرعون - قبحه الله - دعوة صريحة جريئة اتسمت بظهور الحق، وخذلان الباطل. وإذا كانت جولة الباطل ساعة فجولة الحق إلى قيام الساعة. وقد توعد فرعون موسى وهدده بالقتل، ولكن المؤمن يستعيذ بالله تعالى: من كيد كل كائد، ومن شر كل ظالم، فكيف إذا كانت الاستعاذة من نبي كموسى، عليه السلام وقد وعد الله عباده أن من اعتصم به كفاه، ومن توكل عليه وقاه، يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٦، ٢٧]، وقد أعان الله نبيه موسى - عليه السلام - واستجاب دعاءه؛ إذ أيده برجل من حاشية فرعون، ونصره بمؤمن من خاصة عدوه. قيل بأنه ابن عم فرعون وصاحب شرطته، تولى الدفاع عن موسى، وجهر بكلمة الحق عند سلطان جائر، ونبه على خطورة أذية المؤمنين الذين يبلغون رسالة الله، وحذر من الاغترار بالدنيا، فإن ملكها زائل، ولن يبقى لأحد، وذكر بأحوال الأمم الماضية، ودعا إلى الاستعداد لليوم الآخر. وقد عرض دعوته بإسلوب لين، وحكمة بالغة، إلا أنه وجد قلوبًا قاسية، وآذانًا لاهية، فما زاده ذلك إلا إيمانًا وثباتًا. وسماه الله تعالى المؤمن؛ بل وسميت به سورة في القرآن، وهي سورة غافر؛ إذ من أسمائها المؤمن، وختم الله له بخاتمة حسنة. ونرجو أن يكون من الأبرار الذين في عليين.

فقد بقي ذكره بين العالمين، وسيبقى ما بقي القرآن يتلى. وهذه عاقبة من

سمع الحق، واتبعه، وعرف الباطل فاجتنبه، وصحب الأخيار فاستفاد من مجالسهم، ووعى أقوالهم، وعمل أعمالهم، وتخلق بأخلاقهم، وبلغ رسالة ربه، ولم تأخذه في الحق لومة لائم، وذهب إلى ربه راضيًا مرضيا عنه بنفس مطمئنة؛ يرجو رحمة ربه ويخشى عذابه.

وقد قيل بأنه قتل وصلب مع السحرة، وكانت له امرأة مؤمنة تكتم إيمانها مع زوجها، وكانت تمشط ابنة فرعون[1] وقد مضت قصتها؛ وكيفية قتلها فرحمها الله، ورحم زوجها وأسكنهما الفردوس الأعلى؛ إذ بذلوا أنفسهم وأموالهم، وجميع ما يملكون لله وحده؛ محبة له، وطمعًا في جواره، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

يقول الله تعالى، يحكي لنا قصة هذا المؤمن: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٢٨ - ٣٣] وقال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى

---

(١) الكامل في التاريخ: ١/ ١٤١.

النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٣٨ - ٤٦].

وما أشبه قصته بقصة مؤمن آل يس؛ الذي جاء يسعى إلى قومه طمعًا في إسلامهم بعد أن قامت عليهم الحجة، وجاءتهم الرسل بالحجة. فقد قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس، رضي الله عنهما، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه: إن أهل القرية الذين أرسل الله ـ تعالى ـ إليهم رسولين، ثم عززهما بثالث: همُّوا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى؛ لينصرهم من قومه. قالوا: ـ وهو حبيب ـ كان يعمل الحرير حباكًا، وقيل: نجارًا، وقيل: قصارًا، وإسكافًا.[1] وقد حرص أشد الحرص على إسلام قومه، فبيَّن لهم صدق هؤلاء الرسل؛ إذ لا يريدون على دعوتهم مالاً ولا دنيا، وقرر لهم أحقية الله ـ تعالى ـ للعبادة، إذ هو الذي فطر العبد، ورزقه، وتولى أمره، فلماذا يعبد غيره، وقد أسبغ عليه نعمه، ودفع عنه نقمه وشمله بمننه، وأجرى عليه سننه، وحذره نفسه وأنذره بطشه يمهل ولا يهمل. وقد ورد في بعض الآثار الإلهية: «إني والجن والإنس في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إليهم نازل وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بالنعم، ويتبغضون إليَّ بالمعاصي[2]».

ودعاهم هذا المؤمن إلى التوحيد الخالص، ودلل على ذلك أن النفع والضر من الله وحده، وأن كل معبود سواه لا تغني شفاعته شيئًا، ولا يمنع من

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٦٩.
(٢) رواه الحكيم الترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء وهو ضعيف.

عذاب الله - تعالى - ثم أعلن إسلامه لقومه؛ ليكون قدوة بفعله بعد أن كان قدوة بقوله، فلما علموا بإسلامه آذوه أذى شديداً؛ إذ وثبوا عليه وثبة رجل واحد، فقتلوه، ولم يكن معه أنصار من البشر يمنعوه، وقيل: وضعوا المنشار في مفرق رأسه، ونشروه حتى فلقوه إلى نصفين، وذلك لا يمنعه من الثبات على دين الله تعالى وقيل: بل داسوه تحت أقدامهم، ووطئوه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه من دبره. وقيل: رموه بالحجارة حتى قتلوه، وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. ولما فاضت روحه دخلت الجنة، فقال: يا ليت قومي يعلمون بما أراه من النعيم، وما أشاهده من الملك العظيم. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: نصح لقومه حال حياته بقوله: يا قوم اتبعوا المرسلين، وبعد مماته بقوله: يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين. قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحًا، ولا تلقاه غاشا. يقول الله تعالى في قصة هذا المؤمن: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٠ - ٢٩]

وإن المسلم اليوم تتصاغر نفسه مع هؤلاء النماذج العظام الذين نذكرهم كالخيال، ونتسلى على سيرهم العطرة، وما عظموا إلا عندما عظموا الله - تعالى - في نفوسهم، وعظموا دينه واتبعوا رسله، وصحبوا أولياءه. فصبروا عند الضراء، وشكروا عند السراء، وفي الحديث الذي رواه أبو عبد الله: خباب بن الأرت - رضي الله عنه - قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ - وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة - فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم

يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون» رواه البخاري.

فإلى الله تعالى نشكو حالنا، وحال كثير من المسلمين اليوم، الذين سمعوا القرآن فما اتعظوا، وسمعوا المواعظ فما وعوا، ساهون لاهون، لاعبون معرضون، أما آن لهم أن يفيقوا ويذكروا حالهم ومصيرهم، ويعضوا على سنة نبيهم ﷺ بالنواجذ، ويتبعوا سبل السلام ليخرجوا من الظلمات إلى النور، ويهتدوا إلى صراط الله المستقيم؟

******

اتباع الهوى

آيات الله الشرعية نور يضيء الطريق للسالكين، وغيث ينبت الإيمان في قلوب المؤمنين، وحجة لمقارعة الملحدين. وقد أيد الله - تعالى - بها رسله، وقرنها بالبرهان الساطع، والدليل القاطع على صدق الرسل.

ومن أكثر الرسل آيات: موسى بن عمران - عليه السلام -؛ فلقد أيده الله بتسع آيات بينات؛ ومن هذه الآيات آية العصا، سئل عنها فقال: هي عصاي أتوكأ عليها، وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى. وقد جعلها الله - تعالى - معجزة عظيمة لموسى، أبطل بها الباطل، وأظهر بها الحق، ونصر بها الإيمان، فقد أبطل بها السحر الذي كان منتشراً بين قوم فرعون، وأظهر بها الحق للسحرة، ليتبعوا الهدى، وأنبع الله بها الماء من الحجر الصلب، وفلق الله بها البحر إلى اثني عشر طريقًا يبسًا، وجعلها الله - تعالى - سببًا عظيمًا في إيمان السحرة، فقد اهتدوا عندما رأوها قتلت حَيَّاتهم وثعابينهم التي عملوها سحراً للناس.

والسحرة: هم الجيش الخاص لفرعون وحاشيته، والدرع والحصن المنيع لمملكته، وقد بهروا العقول، وأفزعوا الناس بسحرهم، وكانوا يتعلمون الكفر، ويعلمونه الناس.

وفي يوم من الأيام المضيئة في حياتهم، وفي ساعة مشرقة من ساعاتهم، وفي لحظة سعيدة من لحظاتهم، تبين لهم الحق فاتبعوه، واستبان لهم الإيمان فأحبوه، وضحوا في سبيله بكل غال ونفيس، وقد هيأ الله أسباب الهداية عندما طلب فرعون من موسى الاجتماع في يوم من أيام أعيادهم؛ ليكون الجمع وفيرا فاتفقوا على يوم الزينة. وكان هذا من أكبر مقاصد موسى - عليه السلام - ليظهر آيات الله وحجته وبراهينه جهرة على مرأى ومسمع من الناس، فأخذ فرعون

في جمع سحرته من كل مكان، حتى ازدحموا في صعيد واحد، وقد قيل: إن عددهم عشرون ألفًا، وقيل: ثلاثون ألفًا، وقيل: سبعون ألفًا، وقيل أكثر - والله أعلم بعدتهم - ونادى فرعون في أهل مملكته أن يحضروا هذا الموقف العظيم، فخرجوا وهم يقولون: لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبون.

وتقدم موسى بن عمران - عليه السلام - تغشاه السكينة والوقار، ويؤيده العزيز القهار، فاستهل اللقاء بموعظة عظيمة لأهل الموقف، وذكرهم بعبوديتهم، ودعاهم إلى التوحيد الخالص، وخوفهم عذاب الله، وزجرهم عن تعاطي السحر؛ قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١].

غير أن الناس، وعلى رأسهم فرعون والسحرة، ما سمعوا الموعظة، ولا استفادوا منها؛ بل اتهموا موسى وأخاه بالسحر، وأخذ بعضهم يحث بعضًا على التقدم والتضحية؛ ليحظى بما وعد به فرعون من المكافآت والهدايا، وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا.

ولما اصطف السحرة، ووقف موسى وهارون - عليهما السلام - تجاههم؛ قالوا لموسى: إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين، فقال لهم: بل ألقوا أنتم؛ وذلك ليبطل سحرهم بآيته التي أيده الله بها، ويبين خداعهم ومكرهم، ويفسد سحرهم، ويظهر فشلهم.

فألقى السحرة حبالهم وعصيهم فرآها الناس تضطرب بالزئبق وغيره، إذ يخيل للرائي أنها تسعى باختيارها، وإنما تتحرك بسبب ذلك، فعند ذلك سحروا أعين الناس، واسترهبوهم، وجاءوا بسحر عظيم، وقالوا: بعزة فرعون! إنا لنحن الغالبون.

وخشي موسى - عليه السلام - أن يفتتن الناس بهذا السحر قبل أن يلقي ما في يده فأمره الله تعالى أن يلقي عصاه فألقاها فصارت حية عظيمة، ذات قوائم

وعنق عظيم، وشكل هائل مزعج فهرب الناس منها، ثم أقبلت على ما ألقوه من الحبال والعصي فابتلعته كله في سرعة هائلة؛ فأصيب السحرة بخيبة أمل، واتضح لهم الصواب، ورغبوا في المتاب؛ طمعًا في الثواب، وخوفًا من العذاب.

وتحقق بما عندهم من العلم: أن هذا ليس من السحر ولا من الشعوذة، ولا أمر محال ولا من نسيج الخيال، ولا من الوزر والبهتان؛ بل هو صدق وحق ولا يقدر عليه إلا الحق، تبارك تعالى.

وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأضاءها بنور الفطرة، وأزاح عنها القسوة، فتابوا إلى ربهم توبة نصوحًا، وخروا له سجدًا، وقالوا بلسان واحد: آمنا برب العالمين: رب موسى وهارون. ونطقوا بالإيمان بعد الكفر، وأحبوا الطاعة بعد المعصية، وأطاعوا موسى بعد معصيته، وعصوا فرعون بعد طاعته، وما خافوا وما جبنوا في صدعهم بالحق وجهرهم بالإسلام، قال تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ٧٠ - ٧٣].

قال سعيد بن جبير وعكرمة والأوزاعي: فلما سجدوا لله ـ تعالى ـ توبة وإنابة صادقة رأوا منازلهم في الجنة، وقصورهم فيها قد هُيِّئت وزخرفت لقدومهم، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون، وتهديده ووعيده عندما قال: إن موسى هو كبيركم الذي علمكم السحر، وهذا من أعظم الزور والبهتان؛ لأن موسى ـ عليه السلام ـ لم يلتقى بهم قبل ذلك اليوم، إلا أن فرعون أراد أن

يبرر موقفه مع قومه .

وهكذا يفعل أهل الباطل إذا دارت عليهم الدوائر : يلتمسون عذراً أقبح من فعلهم، وقد قيل بأنه قطع أيديهم وأرجهلم من خلاف، وصلبهم في جذوع النخل، وسامهم سوء العذاب، ولكنه لم يزدهم ذلك إلا ثباتًا وإيمانًا ؛ إذ قالوا له : اقض ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا .

وكانت خاتمتهم التوبة الصادقة، والإيمان الطاهر، والشهادة في سبيل الله تعالى، والثواب العظيم، ولم يكن بين إسلامهم وكفرهم إلا ساعات قليلة، والأعمال بالخواتيم . قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : كانوا في أول النهار سحرة كفرة، وفي آخره شهداء بررة[١] . فرحمهم الله وتجاوز عنهم، وجعل أرواحهم في حواصل طير خضر تطير بهم حيث شاءوا .

وما أشبه هذه الحادثة بحادثة الأخدود : فعن صهيب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «**كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إلي غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، وكان في طريقه - إذا سلك - راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، وكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر. فبينما هو على ذلك؛ إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل، فأخذ حجراً فقال: اللَّهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني! أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى؛ فإن ابتليت**

---

(١) البداية والنهاية : ١/ ٢٣٨ .

فلا تدل عليَّ. وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع به جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله ـ تعالى ـ فإن آمنت بالله ـ تعالى ـ دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، تعالى. فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي. قال: أولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني! قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل.

فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله ـ تعالى ـ فأخذه، فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب. فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه. ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه. ثم جيء بالغلام، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه. فذهبوا به، فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل، فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى.

فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور، وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه. فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام ثم ارمني فإنك إن فعلت ذلك قتلتني.

فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام ثم رماه، فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام فأتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس؛ فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخدت، وأضرم فيها النار، وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها، أو قيل له: اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، تقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق» رواه مسلم[1] وأحمد. فما أجمل الهداية بعد الضلالة، وما أجمل الاستقامة بعد الغواية، وما ألذ الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله، وما أعظم هذا الدين الحنيف الذي جعله الله سكينة وقوة وتضحية.

******

(١) البداية والنهاية: ٢/ ١١٩-١٢٠، والكامل في التاريخ: ١/ ٣٣١-٣٣٢.

التعصب للباطل

المؤمن هين لين، كريم يسمع فيعي، ويعي فيمتثل. ترد المواعظ والنصائح إلى قلبه فتلينه كما يلين الغيثُ الأرضَ، وتنوره كما ينور السراج المكان المظلم، وتنبت فيه الخير كما ينبت الماء الشجر. وقد شبه الرسول ﷺ المؤمن بخامة الزرع؛ تتجاوب مع الخير، فقد روى كعب بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: **«مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيئها الريح مرة، وتعدلها مرة، ومثل المنافق كالأرزة لا تزال حتى يكون انجعافها مرة واحدة»** متفق عليه. وقد يبتلى الداعية بمن لا يسمع دعوته، ولا يتعظ بموعظته، وأشد ذلك إذا كان من قرابته؛ لأنه سيقف في طريقه ويكون عقبة كئودا وسدا معثرًا وألدًا خصمًا.

وسيدنا إبراهيم - عليه السلام - عانى من قومه ما الله به عليم، ولكنه صبر وتحمل في سبيل إبلاغ هذا الدين، ونشر الهداية بين الناس. وممن وقف في وجهه وحارب دعوته، وألّب عليه واستهزأ به والده آزر، الذي أصم أذنيه فما سمع، وأعرض عن دين الله وما انتفع؛ إذ شارك قومه في أذية ابنه البارّ الذي يريد إنقاذهم من النار، وسلامتهم من العار، وتوحيدهم للملك الغفار.

ومن أذية الأب لابنه مشاركته قومه في جمع الحطب، وإضرام النار على ابنه ليهلك، تعصبًا للباطل، ومحبة في إطفاء نور الله تعالى، ولكنه ذهل عندما شاهد ابنه يخرج من النار سليمًا معافى، فقال: نعم الرب ربك يا إبراهيم. ولقد دعا إبراهيم - عليه السلام - والده إلى عبادة الله وحده، وإلى ترك عبادة الأوثان التي لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تغني عنه شيئًا. وطلب منه أن يتبعه على الصراط المستقيم، الذي من سلكه نجا، ومن عدل عنه هلك، فهو الطريق الآمن من الخوف، والسليم من الحيف. وحذره عداوة الشيطان، الذي أعلن عصيانه لله - تعالى - في السماء، وسيتبرأ من أتباعه يوم

القيامة، ويقول: وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فما أنا بنافعكم، وما أنتم بنافعي، ولقد أضل أجيالاً كثيرة، وأوقعهم في المهالك، وهو يضحك عليهم ويستهزىء بهم.

أفلا يفكر الإنسان بعقله، وينظر ببصيرته، ويعمل على نقاء فطرته، ويضع الأشياء في مواضعها، ويعلم أن المعصية شقاء، والإصرار عليها عناء.

وحذر إبراهيم -عليه السلام- أباه العذاب الأليم، الذي أعده الله لأهل التمرد والإعراض، وأهل الكفر والإلحاد، والذي يتمنى أهله أن يموتوا ليستريحوا من العذاب، ويسلموا من النكال، قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧ - ٨٠].

ومع كل هذه المواعظ المؤثرة التي تهزُّ القلوب، إلا أن آزر قابل ابنه بالإعراض، وأظهر له العداوة، وتوعده بالرجم والعذاب، وهجره في الكلام والمجالسة؛ غير أن إبراهيم -عليه السلام- صاحب القلب الكبير والإيمان الغزير -قابل هذا من أبيه بصدر رحب، وبعبارة مؤثرة، وبأدب بليغ؛ إذ كان يناديه بقوله: يا أبت في أكثر من مرة، ليستميل قلبه، إلا أن الران قد غطى القلب واستحكم عليه الذنب، فتركه إبراهيم طامعًا في المغفرة له من ربه، إلا أنه نهي عن ذلك، فاعتزل قومه وما يعبدون من دون الله، فعوضه الله الذرية الصالحة، الذين قاموا بالرسالة من بعده، فما من نبي بعد إبراهيم -عليه السلام- إلا وهو من نسله، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن

يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١ - ٤٩] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

ومات آزر على الشرك، وما انتفع من دعوة ابنه بشيء؛ تعصبًا لدين الآباء والأجداد، وموافقة للأنداد، يظهر يوم القيامة بوجه عليه قترة وغبرة، فيراه إبراهيم -عليه السلام- ويسأل الرب تعالى ألا يخزيه فيه، فيجاب بأن الله قد حرم الجنة على الكفار. وتنقلب صورة آزر إلى صورة ضبع ثم يلقى في النار.

فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى! إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو يذبح مُلتطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار» رواه البخاري(١).

فهذا حديث يحذر من الشرك وسوء عاقبته وعندها يقف العقل الإنساني راهبا خاشعًا في محراب هذا العدل الإلاهى العظيم، حيث يحاكم الناس جميعًا بعدله المبين. وهكذا يدرك المؤمن ذهاب كل رابطة يوم القيامة مع

---

(١) صحيح الأحاديث القدسية: ٢٥.

الكفر، ولا يبقى إلا رابطة الإيمان بين الناس آصرة، نعوذ بالله أن نشرك به شيئًا نعلمه أو لا نعلمه.

وهذا جزاء التعصب للمذاهب الباطلة، وعبادة الأعراف والعادات، واتباع الطواغيت.

وفي القصة دليل على أن هداية التوفيق لله وحده، وأن الابن مع بره وكمال طاعته لوالده، قد لا يؤثر في أبيه، أو لا يستطيع هدايته، ولكنه يبذل دلالة وإرشاداً ليبرأ من المسئولية يوم القيامة، وليخفف الحمل عن ظهره في يوم يتمنى الحسنة الواحدة.

******

كتمان العلم

شرف الله العلم ورفع قدر العلماء، فاشتق لهم اسمًا من اسمه، واستشهدهم على وحدانيته، وجعل سلطانهم أقوى سلطان؛ إذ هو أقوى من سلطان الجن، وجعلهم ورثة الأنبياء وقادة الأولياء، ومدح العلماء العاملين وأثنى عليهم وبيَّن أنهم لا يستوون مع غيرهم.

ولا ثمرة للعلم إلا إذا عمل به، ومن عمل بعلمه ورثه الله ـ تعالى ـ علم ما لم يعلم، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. ومن ترك العمل بما علم أوشك أن يسلبه الله ما علم. قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

ولقد قص الله ـ تعالى ـ علينا قصة الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها؛ إذ جعل حجة الله عليه ولم يجعلها له؛ بل واستخدم تلك الحجة في أذية عباد الله الصالحين الذين اكتسبوا ولايته من التقرب إليه، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧].

وقد قيل بأن اسمه: بلعام بن باعوراء، وقيل: غيره، قال ابن عباس: أعطي الاسم الأعظم الذي إذا دعي به الله ـ تعالى ـ أجاب، وإذا سئل به أعطى، وإذا استُنْصر نصر. وكان هذا الرجل صاحب طاعة ونسك واستقامة، فجاءه قومه لما علموا عزم موسى ـ عليه السلام ـ دخول ديارهم، فقالوا: يا بلعام، إن

موسى يريد دخول أرضنا ليخرجنا منها، وينوي قتلنا، ويرغب أن يسكن بني إسرائيل في منازلنا، وتعلم أننا قومك وعشيرتك وأقرباؤك، ولا يوجد لنا منزل غير هذه المنازل، ولك منزلة عند ربك وأنت رجل مستجاب الدعوة، ونريد أن تدعو على موسى ومن معه، قال في أول الأمر: ويلكم نبي الله موسى، ومعه ملائكة ربه والمؤمنون، كيف أذهب فأدعو عليهم، وأنا أعلم من الله ما أعلم؟ فما زالوا به حتى قيل: دفعوا له مبلغًا من المال ليرشوه به فقبل ذلك منهم، وواعدهم يومًا أن يخرج حتى يشرف على قوم موسى فيدعو عليهم.

ولما آن خروجه ركب حماره ثم توجه إلى الجبل الذي يشرف على عسكر بني إسرائيل، فمضت به دابته قليلا ثم ربضت فضربها، فمضت ثم ربضت فضربها، وهكذا كلما ربضت ضربها، قيل: فكلمته الدابة، وقالت: ويحك يا بلعام أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي يردونني عن وجهتي هذه، كيف تذهب إلى نبي الله موسى ومن معه من المؤمنين لتدعو عليهم؟ فلم يأبه لهذا ولم ينزجر له، فأكثر من ضربه لها حتى أشرفت به على جبل يطل على بني إسرائيل ومعهم موسى - عليه السلام - فأخذ بلعام يدعو على موسى وقومه، ولكن الدعاء يتحول لموسى - عليه السلام - ومن معه، فقال قومه له: ويحك يا بلعام ألا تعلم أنك تدعو لموسى ولا تدعو عليه وأنك تدعو علينا نحن؟ قال لهم: هذا الذي أملكه ولا أستطيع غيره.

وظهرت عاقبة فعله باندلاع لسانه وخروجه على صدره، فأصبح كالكلب الذي يلهث إن تحمل عليه يلهث، وإن تتركه يلهث إن أسقيته ماء فهو يلهث، وإن تركته عطشانًا فهو يلهث، فلما رأى خروج لسانه، قال لقومه: ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال على موسى ومن معه. جملوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها لهم، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها أي رجل راودها فإنهم إذا

زنى رجل واحد منهم كفيتموهم، ففعلوا ما أراد فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين برجل من عظماء بني إسرائيل، فلما رآها أعجبته، فأخذ بيدها ومضى إلى موسى ـ عليه السلام ـ، وقال: أظنك تقول: حرام؟ قال: نعم، قال: والله ما أطيعك. فوقع على المرأة وزنى بها، فدخل النقص على بني إسرائيل من فتنة النساء، ومصداق ذلك ما ورد في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: **«إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»** رواه مسلم.

ويكون هذا الإنسان بعمله المشين ـ وهو الزنى ـ قد عبد هواه وشهوته، وأعرض عن أمر ربه، وخالف رسول الله الذي أرسل إليه، فلما زنى بها أرسل الله ـ عز وجل ـ الطاعون في بني إسرائيل، فقام فنحاص بن العزير بقتل هذا الزاني؛ إذ أخذ حربته ـ وكانت من حديد ـ ثم دخل القبة، والرجل مع المرأة متضاجعان، فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما على حربته رافعهما في السماء، وهو يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك، فرفع الله الطاعون عنهم، وقد حصد سبعين ألفًا وقيل: أقل، والله أعلم[1].

وإننا نعوذ بالله ممن يعبد فرجه، ويقدمه على عبودية ربه، وليعلم بأنها لذة عابرة يجد غبَّهما في يوم من الأيام، ويتمنى أنه حيل بينه وبينها، وما أكثر عباد الفروج الذين يطلقون أبصارهم فيما لا يحل، ويتابعون العورات يمنة ويسرة، حتى يأسرهم الهوى، وتصطادهم الشهوة، ويقعون في أحضان الرذيلة، وقد ذكر أن شابًا خرج إلى بلاد الانحلال، وكان على موعد مع معشوقته الفاجرة، وتأخرت عليه فضاقت أنفاسه حتى كاد يغمى عليه، فلما حضرت ورآها خر بين يديها ساجدًا، وقبض الله روحه، وهو ساجد لها ليحشر بكفره هذا وبدناءته.

---

(١) البداية والنهاية: ١/ ٣٠٠، وتفسير ابن كثير: ٢/ ٢٦٧.

فنسأل الله السلامة والعافية. وقد ذهب بلعام ضحية هواه وإخلاده إلى الأرض، ورضاه بالرشوة المحرمة، وخسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

وهذا درس عملي عظيم لمن كتم علمه، ولمن أراد بعلمه الدنيا وحطامها وأراد به أذية الصالحين؛ ليتخير به المجالس، وليباهي به العلماء، ويماري به السفهاء، ويصرف به وجوه الناس إليه. روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عوضًا من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**» رواه أحمد وأبو دواد وابن ماجه، وهو صحيح.

وروى أبو هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**من تعلم العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله جهنم**» رواه ابن ماجه بسند صحيح.

******

بلاغ الهدهد

الأمن من مكر الله ـ تعالى ـ أعظم داء، والإعراض عن الله ـ تعالى ـ سبب الشقاء، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

وأهل الغيرة على دين الله ـ تعالى ـ كثير، وهم في البر، وفي البحر، وفي الجو، وهم زينة الدنيا؛ إذ يزين الله ـ تعالى ـ بهم القلوب، ويستر بهم العيوب؛ عندما يهدون النور ويدخلون السرور.

ونحن لا نستغرب أن يكونوا من البشر؛ لأنهم أهل الخلافة في الأرض، ولكن قد يكونوا من غير البشر، وأخص منهم الطير، وفي قصة الهدهد مع سليمان ـ عليه السلام ـ أكبر دليل على ذلك، فلقد منح الله ـ تعالى ـ سليمان ملكا عظيمًا طلبه من ربه، وسأله ألا يكون لأحد من بعده، وعلمه منطق الطير؛ إذ يترجم أصواتها ويبين كلامها للناس، ويخبرهم بمرادها، وهذه من خصائص سليمان التي اختصه بها، ولم تكن لأحد غيره ـ فيما نعلم ـ قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦].

وقد ذكر القرطبي في تفسيره عند هذه الآية أخبارًا عجيبة من كلام الطير، أذكر بعضها للعبرة والاتعاظ. قال كعب: صاح هدهد سليمان ـ عليه السلام ـ، قال سليمان: أتدرون ماذا يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: من لا يْرحم لا يُرْحم، وصاح عنده صرد، فقال: أتدررون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: استغفروا الله يا مذنبين. وهدلت حمامة، فقال: أتدرون ما تقول؟

قالوا: لا. قال: إنها تقول: سبحان ربي الأعلي عدد. ما في سمواته وأرضه[١].

وكان سليمان ـ عليه السلام ـ إذا أراد السفر أظلته الطير بأجنحتها، وأقلته الريح على بساط الملك؛ ليقطع في الغدوة الواحدة، والروحة الواحدة، مسيرة شهر. وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء. ومرة من المرات خرج على عادته، وتفقد رعيته بما فيها الطير، فلم يجد الهدهد، ولم يره بين الطيور، فأخذ يسأل عنه: لماذا لا أراه بين الطير؟ أغاب عني الآن فلم أراه حال السؤال عنه؟ أم أنه غاب من قبل دون أن أشعر بغيبته؟ وكيف يغيب بدون علمي؟

وغضب سليمان ـ عليه السلام ـ على الهدهد، ونوى معاقبته؛ إما بنتف ريشه، أو بحبسه في قفص، أو بذبحه على حسب ذنبه، وقد يصفح عنه إذا جاء بدليل واضح بين عذره.

وبعد فترة وجيزة عاد الهدهد إلى سليمان، يحمل معه خبرًا عجيبا أحاط به ولم يحط به سليمان عليه السلام، وكأنه بهذا يقول: يا نبي الله! عندي علم ليس عندك، فمهما بلغ ملك المخلوق فهو ملك محدود، ومهما بلغ علمه فهو قليل، وفوق كل ذي علم عليم.

وهذا يدل على شرف العلم وقوة سلطان الله، وكان الخبر المهم الذي حمله الهدهد، هو وجود ملكة في اليمن؛ هي وقومها يعبدون الشمس من دون الله تعالى، وهذا كفر صراح، وانحراف عن الفطرة، ومخالفة لرسالة الرسل ـ عليهم السلام ـ، وقد أوتيت هذه المرأة ما تريد من أسباب القوة، وألوان النعم، ولها عرش عظيم؛ محلى بالجواهر واللآليء، ولكن رغم هذه النعم التي أنعم الله عليهم بها فهم لا يعترفون بها؛ بل يكفرون بالمنعم بها، وقد اتخذوا الشيطان وليا من دون الله، وعاشوا في الظلام والضلال. قال تعالى:

(١) تفسير القرطبي: ١٣/ ١٦٥-١٦٦.

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٠ - ٢٧].

وأعظم الناس غيرة على دين الله - تعالى - هم الأنبياء عليهم السلام؛ لقوة إيمانهم، وصدق إخلاصهم، وشدة معرفتهم بالله، فهم أخوف الخلق. ومن كان بالله أعرف كان منه أخوف، فما أن وصل الخبر إلى سليمان - عليه السلام - إلا وحمَّل الهدهد رسالة جليلة، تحمل في طياتها الخير والهداية، أمره أن يسلمها للملكة لتقرأها على قومها، وأمرهم فيها بالمعروف ونهاهم عن المنكر، وتوعدهم بالعقاب حال المخالفة.

وتسلم الهدهد الرسالة وأدَّاها على الوجه المطلوب، فلما وصلت للملكة فتحتها، فوجدت فيها أنها من سليمان وأنها مفتتحة ببسم الله الرحمن الرحيم، ونهاهم عن العلو والتكبر والعجب، وأمرهم بالاستسلام لله تعالى والانقياد له، والدخول في دينه معه، وما أن أتمت قراءتها إلا وجمعت حاشيتها ومستشاريها، وطلبت منهم المشورة، فأشاروا عليها بأنهم أهل قوة شديدة وعدد عظيم، وهم على أتم الاستعداد للقتال والمواجهة، وهؤلاء لم ينظروا في عواقب الأمور؛ وإنما أخذتهم العزة بالإثم، واستطارهم الشيطان.

ولكن الملكة كانت أذكى منهم وأعقل منهم؛ إذ نظرت إلى عواقب الأمور وقال: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة،

وأخبرت قومها أنها سترسل إلى سليمان بهدية، فإن قبلها فإنه يريد الدنيا ويريد الملك، ولا همَّ له سوى ذلك، وإن لم يقبلها فإنه نبي مرسل؛ لأنه لا يريد الدنيا ولا زخرفها، ولا مالها ولا متاعها؛ وإنما يريد عبادة الله وحده.

قال ابن عباس: قالت لقومها: إن قبل الهدية فقاتلوه، وإن لم يقبلها فاتبعوه. وأرسلت إليه بالهدية، وقيل بأنها من ذهب وجواهر ولآلىء، وقيل غير ذلك، فلما رآها سليمان ردها، وقال: نعم الله عليَّ عظيمة، ولست في حاجة إلى هديتكم، وتوعدهم بإرسال جنود لا قبل لهم بها، تخرجهم من ديارهم أذلة وهم صاغرون.

فتفكرت بلقيس وعلمت عجزها عن محاربة سليمان فتجهزت للمسير إليه مع أشراف قومها، وعلم سليمان بذلك فأراد أن يريها بعض ما خصَّه الله به من المعجزات العظيمة، والآيات الجليلة؛ ليكون ذلك دليلا على نبوته، فطلب عرشها الذي كانت تجلس عليه؛ وهو الكرسي الذي كانت تحكم عليه، فاستعد عفريت من الجن بإحضار عرشها في فترة قصيرة؛ وهي ما بين جلوسه للحكم وقيامه منه، فقال صاحب العلم: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فكلفه بالمهمة، فجاء به في لمح البصر، فلما رآه سليمان مستقراً عنده شكر الله، وحمده على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، واستزاده من فضله. أما بلقيس ملكة سبأ فواصلت سيرها حتى قدمت على سليمان ـ عليه السلام ـ، فرأت ملكا عظيمًا أبهرها وأعجزها ما كانت تتصور مثله، فدعاها سليمان للإسلام وتوحيد الله تعالى، وترك الشرك الذي كانت عليه هي وقومها، وبيَّن أن السعادة الحقيقية في طاعة الله، فهي الملك الذي لا يفنى، والحياة التي لا تشقى، فسمعت لقوله وأسلمت لله رب العالمين، ودخلت في التوحيد، وتركت عبادة الشمس والكواكب.

ويقال بأنه ـ عليه السلام ـ تزوجها فكانت من أهل الإسلام، وختم الله لها

بخاتمة حميدة، وأخرجها من ظلمات الشرك إلى نور الإسلام، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

قال تعالى: ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل: ٢٨ - ٤٤][1].

---

(١) للاستزادة من القصة انظر: مع الأنبياء في القرآن: ٢٩٠-٢٩٥، وتفسير ابن كثير: ٣/ ٣٦٠-٣٦٧، وتفسير القرطبي: ١٣/ ١٧٦-٢١٣، والبداية والنهاية: ٢/ ١٩-٢٢، والكامل في التاريخ: ١/ ١٧٦-١٨١ وغيرها.

ومن هذه الحادثة يتبين قيام الهدهد بمهمة عظيمة، هي مهمة الدعوة التي تخلى عنها الكثير من المسلمين اليوم، وقد جعله الله ـ تعالى ـ سببًا في إسلام بلقيس؛ إذ كان سفيرًا بينها وبين سليمان ـ عليه السلام ـ، وهو الذي كشف أمرها وعبادتها للشمس، ثم ساهم بجهده في هدايتها حتى أسلمت ودخلت في دين الله تعالى.

وهناك بعض الطير يسدي النصيحة بفعله لصاحب معصية، فيستفيد ذلك العاصي؛ إذ يتوب من المعصية ويجتهد في الطاعة ما استطاع؛ فقد أورد ابن قدامة في كتابه «التوابين» بعنوان: توبة عكبر الكردي: أن بشر بن الحارث الحافي قال: اعترضت عكبر الكردي فقلت له: ما سبب توبتك إلى الله تعالى؟ قال: كنت في بعض الطرق أقطع على الناس طريقهم، وكان في ذاك الطريق ثلاث نخلات؛ نخلة منهن لا تحمل، وإذا بعصفور يأخذ من حَمْل النخلة التي تحمل رطبة فيدعها في التي لا تحمل، ولا تسقط علي، فلم أزل أعد عليه عشر مرات ثم خطر بقلبي: قم وانظر، فنهضت، فإذا في رأس النخلة حية عمياء، وكان العصفور يأتيها بطعامها ثم يضعه في فمها، ويمضي ويكرر ذلك مرات عديدة قال: فبكيت، وقلت: يا ربي، هذه حية قد أمر نبيك بقتلها أعميتها، وأقمت لها عصفورًا يقوم لها بالكفاية، وأنا عبدك، أقرُّ بأنك واحد أحد، فرد صمد، ترزق من تشاء بغير حساب، عملي هو قطع الطريق، وإخافة السبيل، فوقع في قلبي التوبة النصوح، وبابها مفتوح، فكسرت سيفي، ووضعت التراب على رأسي، وصحت وقلت: التوبة التوبة، وصدقت في توبتي، ودعوت قومي، ورفقائي الذين معي في هذا العمل إلى التوبة، فتابوا وصلحت أمورنا وندمنا على ما فاتنا. فهذه دعوة عصفور لقاطع طريق أن يترك قطع الطريق وقد استفاد منها[١].

---

(١) التوابين: ٢٣٨، ٢٣٩.

فإلى أهل الإيمان وأهل الغيرة، وطلاب العلم وأهل العقول المستقيمة وأهل التكليف، نسوق هذه الأحداث الجليلة عسى أن تجد آذانًا صاغية، وقلوبًا واعية، ورغبة في أداء الأمانة، وإبلاغ الرسالة، فإن رسول الله ﷺ لم يعذر صاحب الآية الواحدة. فعن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار**» رواه البخاري وأحمد والترمذي. فهل يتذكر طلاب العلم ويبلغوا علمهم، ويؤدوا أماناتهم، ويتقوا ربهم عسى أن يكون ذلك. والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

******

عاقبة المكر السيىء

الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان لا يتم إلا به. والمؤمن يؤمن بما قضاه الله تعالى وقدَّره، ويرضى بذلك، ويوقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]. وروى عبد الله بن عباس-رضي الله عنهما-قال: كنت خلف النبي ﷺ، فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»، وفي رواية غير الترمذي: «**احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطاك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً**» رواه أحمد والترمذي وأبو يعلى بسند صحيح.

وصاحب الإيمان يعيش بقلب سليم وبصدر منشرح؛ يحب لغيره من الخير ما يحبه لنفسه، إذا رأى نعمة عند أحد قال: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ويسأل الله-تعالى-من فضله، ويحرص على تأديب النفس بأدب الإسلام؛ حتى يعيش في سلامة في نفسه، ويسلم غيره من شره، وبهذا يحقق معنى الإسلام.

فقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله قال: **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»** متفق عليه.

ومع هذا كله، فإن الحياة لا تخلو من مرضى القلوب، الذين يعيشون في ظلمة شديدة وغيرهم في نور عميم، يعيشون في كآبة وغيرهم في سرور، يعيشون في همٍّ وغمٍّ دائم وغيرهم في فرح وطمأنينة، وأشد مرض للقلوب هو مرض الحسد، الذي يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وينبت الأحقاد والضغائن في الصدور، ويؤجج نار الفتنة، وهو خلق ذميم من أخلاق اليهود والمنافقين، ومن أخلاق أعداء الله؛ ضرره على صاحبه أشد من النبل.

ومما يذكر أن رجلاً كان حظيا مقربا عند ملك من الملوك؛ يحبه ويألفه ويستشيره وكان كثيراً ما يقول له: أحسن إلى المحسن بإحسانه، فإن المسيء ستكفيكه إساءته. وما أحسن البطانة الصالحة، الذين ينصحون للراعي وينصحون للرعية. والناصح المخلص لا بد أن يتعرض لأذية الحاسدين الذين ملئوا الأرض؛ للإفساد فيها، ولقطع المودة والألفة التي بين الأحباب والأصحاب، وهذا الناصح لذاك الملك لم يسلم من أعدائه، فقد حسدوه على مكانته، وأوشوا به إلى الملك للإفساد بينهما، ونقل أحد هؤلاء الحاسدين للملك: أن المحسود المقرب إليه يقول: إن رائحة فم الملك كريهة وإنه أبخر، قال الملك للحاسد: وكيف أعرف هذا وأتأكد منه؟ قال الحاسد: إذا جاءك ووقف بجوارك؛ فإنه سيضع يده على فمه، قال: سأنظر الأمر وأتأكد الخبر حتى لا آخذه على غرة. ودبر الحاسد حيلة للمحسود؛ إذ دعاه إلى وليمة عنده، وأكثر في الوليمة من الثوم، ثم تركه يعود للملك، ووقف المحسود بجوار الملك ليخدمه، وأراد الملك اختباره، فقال له: ادن مني فدنا منه، فكلمه الملك، فوضع المحسود يده على فمه؛ خشية أن يشم منه الملك رائحة الثوم

التي دبرها الحاسد، وهذا أدب رفيع لا يعرفه إلا أصحاب الرتب العالية، فقال الملك في نفسه: صدق الرجل، يعني: الحاسد، هذا يقول: فمي أبخر، لأعذبنه عذابًا شديدًا، ولأجعلنه عبرة لغيره، فأخذ قلمًا وورقة وكان لا يكتب بيده إلا عطاءً أو صلة، وكلٌ يستبشر بكتابة الملك بيده يظنونها عطاءً. فكتب إلى أحد أمرائه: إذا جاءك حامل الورقة فاذبحه، ثم اسلخه واحش جلده تبنًا، وأرسل به إلي، ودفع الكتاب إلى المحسود المظلوم، وقال: اذهب به إلى الأمير الفلاني، قال: سمعًا وطاعة، وحسب المسكين أنه أمر بمال وصلة، ففرح بذلك أشد الفرح، ولكن الله ـ تعالى ـ حفظه؛ إذ سخر له الحاسد ليعترضه في الطريق، ويقول له: أين تريد؟ قال: أريد الأمير الفلاني، قال: ولماذا؟ قال: كتب لي الملك كتابًا بيده، وأمرني أن أعطيه له وإني أرجو أن تكون صلة، قال له الحاسد: أسألك بالله أن تعطيني هذا الكتاب، قال: لن أعطيك كتاب الملك، ولن أفرط فيه، قال: أسألك بالله أن تعطيني إياه، وألح عليه إلحاحًا شديدًا، وامتثل لأمر رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «**من سأل بالله فأعطوه ومن استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه ....**» الحديث رواه أبو داود، والنسائي، وأحمد عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، فسلم الكتاب للحاسد، فمضى به حتى أوصله للأمير، فلما فتحه الأمير وقرأه، قال: هل تعلم ما الذي كتب الملك فيه؟ قال: لا، ولكن الملك لا يكتب شيئًا بيده إلا ويأمر فيه بعطاء، قال: اعلم بأن الملك أمرني أن أذبحك وأحشو جلدك تبنًا وأرسل بك إليه، قال الحاسد: والله! ما هذا الخطاب لي، وإنما لغيري أردت خدمته والإحسان إليه، قال له الأمير: والله! لن أراجع في خطاب الملك، ولا بد من تنفيذه وقيد هذا الحاسد وأخذ إلى ساحة القتل، ووضع النطع له، ثم ذُبح وسُلخ جلده، ثم حشي تبنًا، ثم بعث به إلى الملك.

أما المحسود فقد عاد إلى الملك وهو يقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه،

فإن المسيء ستكفيكه إساءته، فسأل الملك عن الكتاب فأخبره أن فلانا أخذه، وما هي إلا أيام معدودة، وإذا برسول الأمير يصل بجلد الحاسد محشوا تبنًا، فتعجب الملك واستدعى المحسود وقال له: ألم تقل: إن رائحة فمي كريهة؟ وإنني أبخر؟ قال: لا والله؟ ما قلت ذلك، ولا يحق لي أن أقوله، قال: فلماذا وضعت يدك على فمك عند كلامي لك، قال: إن فلانًا، أي: الحاسد المقتول، دعاني إلى وليمة، وأكثر ثومها، فكنت لا أريد أن تشم رائحة الثوم؛ لرفعة مكانتك، قال له الملك: صدقت؛ أحسن إلى المحسن بإحسانه، فإن المسيء ستكفيكه إساءته[1].

وذهب هذا الحاسد ضحية حسده، وقتيل مكره، وخسر الدنيا، وأمره لربه في آخرته، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٢٣]، فهلا اعتبر الحاسدون الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، والذين لا يرضون بقسمة الله تعالى، والذين يملكون قلوبًا تغلي من الغيظ على إخوانهم، والذين اتبعوا خطوات الشيطان، الذي حسد آدم على مكانته، فنال بذلك اللعنة الدائمة والخسارة الباقية، والذل والهوان في الدنيا والآخرة.

وليعلم الحاسد أنه يبتلى بخمس عقوبات قبل: أن يصل إلى المحسود مكروه: أولها: غمٌّ لا ينقطع حتى يضر بجسده، وثانيها: مصيبة لا يؤجر عليها، وثالثها: مذمة لا يحمد بها، ورابعها: سخط من الرب عليه، وخامسها: إغلاق أبواب التوفيق عليه. ورحم الله محمد بن سيرين إذ يقول: ما حسدت أحدًا على شيء من الدنيا؛ فإن كان من أهل الجنة فكيف أحسده، وهو صائر إلى الجنة؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده وهو صائر إلى النار؟

---

(١) إحياء علوم الدين: ٣/ ١٧٨، والزواجر: ٥٧.

وقد قيل : الحاسد لا ينال في المجالس إلا مذمةً وذلا ، ولا ينال من الملائكة إلا لعنةً وبغضا ، ولا ينال في الخلوة إلا جزعًا وغما ، ولا ينال عند النزع إلا شدة وهولا ، ولا ينال في الموقف إلا فضيحة ونكالا ، ولا ينال في النار إلا حرا وإحراقًا .

ولو طهرت المجتمعات من هذا الخلق السيىء لزادت المودة والرحمة ، وقويت الألفة ، وأصبح المجتمع المسلم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، وكانوا كالبنيان المرصوص . فنسأل الله العظيم رب العرش الكريم ، أن يطهر القلوب من مرض الحَسَد ، إنه سميع مجيب .



التوبة النصوح

كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، وقد جعل الله ـ تعالى ـ باب التوبة مفتوحًا على مصراعيه. ولن يغلقه حتى تطلع الشمس من مغربها، أو تبلغ الروح الحلقوم، فهو أرحم بعباده من أنفسهم.

ومن فضله وكرمه أنه يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، وهو أفرح بتوبة عبده ممن فقد راحلته وعليها طعامه وشرابه، ثم وجدها. فقد روى أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فبينا هو كذلك؛ إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**» وهذا يدل على سعة عفو الله ـ تعالى ـ ورحمته بعباده، وإمهاله لهم.

ويجب على المسلم اغتنام الدنيا قبل الآخرة، والشباب قبل الهرم، والصحة قبل المرض، والغنى قبل الفقر، والفراغ قبل الشغل، فإن الأيام تمضي، والأعمار تطوى، وقد يفوت الأوان، ويندم الإنسان.

فيجب الحذر من التسويف قبل أن يخترمه هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، وقد سئل ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن أرجى آية في كتاب الله تعالى، فقال: قول الله تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر: ٥٣].

ومن سلك طريق التوبة الصادقة ما قصه علينا رسول الله ﷺ من خبر الذي قتل مائة نفس ثم تاب إلى الله وقَبِل الله توبته، وهذه قصة من القصص

الثابتة عمن كان قبلنا، والقتل من أعظم الكبائر، فمن قتل نفسًا واحدة معصومة فكأنما قتل الناس جميعًا.

وأول ما يقضى بين الناس في الدماء، وأزكى وأشرف الدماء دم المسلم، فإنه حرام لا يحل إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

وقصة هذا القاتل تحدثت عن ندمه وعزمه على التوبة النصوح بعد يقينه بأن ذنبه شنيع، لا تطيقه السموات والأرض، وأن النفوس الأبية تستبشعه، وأن طباع المخلصين تنفر منه، وأول توبته أنه بعد قتل تسعة وتسعين نفسًا ذهب لعابد من العباد يعبد الله على جهل فسأله: هل تجد لي من توبة، فأخبره أن ذنبه عظيم، وجرمه جسيم، لا مجال للتوبة فيه، فيئس الرجل من رحمة الله، ولا يقنط من رحمة الله إلا القوم الضالون، وهذا العابد ضال؛ أخطأ الطريق؛ إذ لم يتعلم، ولم يحرص على العلم فأفتى بغير علم. وأعظم الناس وزرًا من قال على الله بغير علم، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٣].

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا اتخذ الناس رءوساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**» متفق عليه.

فلما سمع القاتل فتوى العابد الضال بعدم إمكان التوبة قال: أوَفِّي المائة بهذا العابد فقتله؛ ليكون حصيلة ذنبه مائة نفس بغير حق، غير أنه لم يقنط من رحمة الله تعالى، فأخذ يسأل عن عالم من العلماء يفتيه، فدل على عالم عامل بعلمه، فذهب إليه وسأله عن ذنبه وقَتْله، فأخبره العالم: أن باب التوبة مفتوح

ولن يستطيع أحد من الخلق أن يغلقه، ثم أسدى له نصيحة نفيسة، وأعطاه دواء لدائه، إذ قال له: هاجر من بلدك هذا الذي عصيت الله فيه إلى بلد آخر، وطالبه بتغيير المجتمع؛ لأن مجتمعه الأول أعانه على الإثم والعدوان، وما أنكر عليه منكره؛ بل لربما عضده وساعده على جريمته. وقد قبل النصيحة وأخذ بالوصية الغالية، وصدق في توبته، فتاب الله - تعالى - عليه وغفر ذنبه.

فعن أبي سعيد: سعد بن مالك بن سنان الخدري - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: **«كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب فأتاه، فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟! انطلق إلى أرض كذا وكذا: فإن بها أناسًا يعبدون الله - تعالى - فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرا قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم - أي: حكما - فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»** متفق عليه.

وفي رواية في الصحيح: **«فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها»** وفي رواية أخرى صحيحة: **«فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقربي. وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه - أي: الصالحة - أقرب بشبر فغفر له»**. وهذا الحديث يحثنا على التوبة مهما بلغ الذنب، ويرشدنا إلى سؤال أهل الذكر، وهم العلماء العاملون المخلصون، ويحذرنا من سؤال أهل الجهل؛ فإن عاقبة ذلك وخيمة ومفسدته عظيمة، ويحثنا على

مصاحبة الأخيار وشد الرحال إليهم والاستفادة منهم، فالمرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل، وقد أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ بصحبة الصادقين في إيمانهم، يقول تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

والقرين الصالح كبائع المسك؛ إما أن يحذيك، وإما أن تشتري منه فستعود من عنده برائحة طيبة، والقرين السيىء كنافخ الكير؛ إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة منتنة، فعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا منتنة**» متفق عليه.

وقد شرع الله ـ تعالى ـ الهجرة لتغيير المجتمع، وتغيير الأرض، والتماس الصالحين. فسبحان الله العظيم الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا، يجزي على القليل كثيراً، ويعفو عن الكثير من السيئات؛ بل ويبدلها حسنات عند التوبة المخلصة؛ التي تستوجب الإقلاع عن الذنب واستئصاله حتى لا يبقى له أثر، والندم على فعل الذنب، كلما تذكره احمر واصفر وتصبب عرقا؛ حياءً من الله الواحد القهار، وخوفًا منه، وعزم أن لا يعود إلى الإثم مرة أخرى، وهو بهذا يسد أبواب المعاصي، ويفتح أبواب الطاعات، ويكسب التجارة الرابحة، فهذا التائب عاش حياته كلها مع الشيطان، وفلما صحب العلماء واستفاد من علمهم، واستنار بنورهم، وعمل بمشورتهم، سلم من أهل الزيغ والضلال ختم الله تعالى له بخاتمة حسنة، وكفر عنه السيئة، ورفع له الدرجة، وأذن لملائكة الرحمة أن تتسلم روحه؛ لتكون من أرواح المؤمنين الصادقين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

فهلا تاب المذنبون؟ وهلا صدقوا في توبتهم؟ وهلا صحبوا أهل الخير الذين يحبون لهم ما يحبونه لأنفسهم؟ وهلا لازموا أهل الصلاح، وأحبوا أهل الفلاح، ليحشروا في زمرتهم يوم القيامة؟ فإن الإنسان يحشر يوم القيامة مع من يحب. وقبل نهاية هذه القصة أبين علامات التوبة النصوح، فليعلم المسلم أن للتوبة النصوح علامات: منها أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها، ومنها: أن لا يزال الخوف مصاحبًا له، لا يأمن مكر الله ـ تعالى ـ طرفة عين، ومنها: إنخلاع قلبه وتقطعه ندمًا وخوفًا[1].

والنصح في التوبة تخليصها من كل غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه. قال عمر بن الخطاب وأبي بن كعب ـ رضي الله عنهما ـ: التوبة النصوح أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع، وقال الحسن البصري: هي أن يكون العبد نادمًا على ما مضى، مجمعًا على أن لا يعود فيه، وقال الكلبي: أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك البدن. وقال سعيد بن المسيب: «توبة نصوحًا: تنصحون بها أنفسكم». وقال محمد بن كعب القرظي: يجمعها أربعة أشياء الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، وهجر سيىء الأخوان. قال ابن القيم: والنصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها. بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

الثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها؛ بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلؤم ولا انتظار.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها

---

(١) كتاب التوبة لابن القيم: ١٣.

لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده[1].

وقد جعلت علامات التوبة النصوح وبيان النصح فيها، خاتمة هذه القصة، لعل الله ـ تعالى ـ أن يختم لنا أعمارنا بتوبة نصوح، وأن يرزقنا النصح في التوبة، وأن يوفقنا للعمل الذي يرضيه عنا.

******

(١) كتاب التوبة: ١٣٧, ١٣٨.

الدروس النافعة

في الحياة دروس نافعة توقظ القلوب النائمة، وتحرك الأجساد الساكنة، وتظهر الدنيا على حقيقتها، حتى لا يغتر بها أهل الغرور، ولا يعظمها أهل الأهواء والشهوات، فما هي إلا كظل شجرة لا يدوم على حال واحدة، وإنما يتحول من مكان إلى مكان، ومن لم يترك الدنيا تركته، ورحم الله القائل: «اترك الدنيا قبل أن تتركك، واستعد للقبر قبل أن تنزله، وعظم الرب قبل أن تقابله».

ودروس الحياة مفيدة تجمع المتفرق، وتفرق المجتمع، وتقرب البعيد، وتبعد القريب، فهي تجمع على العبد ما تفرق من قلبه وإرادته، وضياع أوقاته، وتفرق ما اجتمع عليه من الهم والغم والأحزان، والحسرات والذنوب والخطايا والأوزار، وتقرب البعيد عندما تذكره بالآخرة، وماذا أعد لها، ليكون على استعداد لها، ويداوم تذكرها في جميع أحواله، فتكون همه وشغله، ليجمع الله أمره، ويجعل غناه في قلبه.

ففي حديث أنس -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: **«من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»** رواه الترمذي بسند صحيح.

ومعنى تبعد القريب أي: الزهد في الدنيا، وعدم الركون لها أو تعظيمها؛ لأنها دار سفر، وليست بدار مقر، وهي دار ظعن، وليست بدار إقامة، وقد أذن الله -تعالى- لنا أن نحدث عن بني إسرائيل، كما في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: **«حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»** رواه أبو داود بسند صحيح، والتحديث عن بني إسرائيل على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

القسم الثاني: ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه فهذا لا يحدث به.

القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه؛ فلا هو من قبيل الصدق، ولا هو من قبيل الكذب، فيجوز التحديث به[1].

وما يروى عن بكر بن عبد الله المزني أنه قال: كان رجل من ملوك بني إسرائيل قد أعطي طول عمر وكثرة مال وولد، وكان أولاده إذا كبروا، زهدوا في الدنيا وانقطعوا للعبادة حتى يأتيهم الموت، ففعل ذلك جماعتهم؛ رجل بعد رجل حتى تتابع بنوه على ذلك. ووُلِدَ له ولد ذكر، فدعا قومه وقال: إني قد أصبت ولدًا بعدما كبرت، وترون شفقتي عليكم، وإني أخاف أن يتبع هذا سنة إخوته، وأخاف عليكم إن لم يكن عليكم، أحد من ولدي بعدي أن تهلكوا، فخذوه الآن في صغر سنه، فحببوا إليه المال، ورغبوه في الدنيا، فعسى أن يبقى من بعدي عليكم فبنوا له حائطًا، فرسخًا في فرسخ، وغرسوا فيه الكثير من الأشجار المتنوعة، وسقوها بجداول الماء الغزيرة، فكان فيه دهراً من دهره، ثم ركب يومًا ليخرج، فإذا عليه حائط مقفل فقال: إني أظن أن خلف هذا الحائط ناسًا وعالمًا آخر فأخرجوني أزدد علمًا وألقى الناس فأبلغ أبوه، ففزع وخشي أن يتبع سنة إخوته، فقال: اشغلوه بكل لهو ولذة ولعب حتى ينسى ما سأل، ففعلوا ذلك، ثم ركب في السنة الثانية فقال: لا بد من الخروج، فأخبر أبوه فقال مثل مقالته الأولى من إشغاله باللهو، ولكنه كرر ذلك في سنة ثالثة فقال أبوه: أخرجوه فجعل في مركبة، وكلل بالزبرجد والذهب، وصار حوله حافتان من الناس، فبينا هو يسير إذا هو برجل مبتلى - إما بفقر وإما بمرض وإما بعاهة أو بغير ذلك - فقال: ما هذا؟ قالوا: رجل مبتلى، قال: أيصيب ناسًا دون

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٥.

ناس أو كل خائف له؟ قالوا: بل يصيب كل خائف له، قال: وأنا فيما أنا فيه من السلطان؟ قالوا: نعم. قال: أفٍّ لعيشكم هذا، هذا عيش حزن وبؤس وشقاء، فرجع مغمومًا مهمومًا، فقيل لأبيه، فقال: أنسوه ذلك بكل لذة ومتاع. ففعلوا. وبعد عام قال: أخرجوني فأخرج على مثل حاله الأول فبينا هو يسير إذ هو برجل قد هرم، ولعابه يسيل من فيه، فقال: ما هذا؟ قالوا: رجل قد هرم. قال: يصيب ناسًا دون ناس، أو كل خائف له إن هو عُمِّر؟ قالوا: كل خائف له. قال: أفٍّ لعيشكم هذا: هذا عيش لا يصفو لأحد.

فأخبر بذلك أبوه فقال: احشروا عليه كل لهو وباطل فحشروا عليه، فمكث حولا ثم ركب على مثل حاله الأولى، فبينا هو يسير إذا هو بسرير تحمله الرجال على عواتقها، فقال: ما هذا؟ قالوا: رجل مات. قال لهم: وما الموت؟ تعالوا بالميت، فأتوه به، فقال: أجلسوه، فقالوا: إنه لا يجلس. قال: كلموه. قالوا: إنه لا يتكلم. قال: فأين تذهبون به؟ قالوا: ندفنه تحت الثرى، قال: فيكون ماذا بعد هذا؟ قالوا: الحشر، قال: وما الحشر؟ قالوا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، فيُجزى كل واحد على قدر حسناته وسيئاته.

قال: وهل هناك دار غير هذه الدار؟ قالوا: نعم، دار الجزاء والحساب، دار الحصاد والثمار، فرمى بنفسه من على المركبة، وجعل يعفر وجهه في التراب، ثم قال: هذا الذي كنت أخشى، كاد هذا يأتي علي، وأنا لا أعلم به، إن لي ربا يعطي ويحشر ويجازي، أنسيتمونيه، إن هذا هو آخر العهد بيني وبينكم، فلا سبيل لكم علي بعد هذا اليوم، ثم خرج من قصور الملك ومن بين الخدم والحشم، وترك نعيم الدنيا يريد نعيم الآخرة، وأقبل على ربه، ونسأل الله قبول توبته وغفران زلته[1].

ولقد قيض الله ـ تعالى ـ له دروسًا ثلاثة عرضت له، وهو يعيش في ترف

---

(١) كتاب التوابين: ٧٩, ٨٠.

عظيم؛ إلا أن الدرس الأول لم يؤثر فيه، ولم يغير من حياة الشقاء التي كان يعيشها شيئًا، ولم يؤثر فيه الدرس الثاني إلا زمنا محدودًا، ولكن الفطرة التي حركت بهذه الدروس توقظه في كل مرة، وتستفيد استفادة قليلة، ثم جاء الدرس الثالث الذي أوقفه أمام مصيره ومصير كل حي، وشاهد حالة الانتقال من الدنيا إلى الآخرة، ولم يرى مع الميت مالا ولا جاها ولا قصوراً ولا دنيا، وإنما هو مجرد من كل شيء إلا الأكفان. وما صديقه في قبره إلا عمله الصالح، فعلم أن هذه النهاية، فانتقل بذلك من الضياع إلى العمل، ومن اللهو إلى الذكر، ومن حب الدنيا إلى حب الآخرة، ومن صحبة الغافلين إلى صحبة الذاكرين.

ولو أن الناس استفادوا من ثلاثة دروس لتغيرت أحوالهم، ولزاد صلاحهم

الدرس الأول: زيارة المستشفيات التي تغص بالمرضى والمقعدين؛ منهم من فقد حركته وشُلَّ جسمه، فهو محبوس على سريره لا يخطو خطوة، ومنهم من فقد سمعه فلا يدري ما يقول الناس، ومنهم من فقد بصره فلا يعلم ما يدور في مجتمعه نهاره وليله سواء، ومنهم من فقد ذاكرته فهو كالمجنون لا يميز بين الأشياء، ومنهم من هو كالميت لا يعي من أمره شيئًا، لا يتحرك إلا بمحرك ولا يدري متى الليل ومتى النهار. وكم يفوته من ذكر ومن صلاة، ومن صيام، ومن قرآن، ومن توجيه ومن نصيحة، وقد يستمر ثوابه إذا كان صاحب عمل صالح.

فعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا مرض العبد أو سافر كتب الله - تعالى - له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا»** رواه البخاري. فلو زار الإنسان المستشفى لعلم فضل الله عليه، ولأقلع عن كثير من المعاصي.

والدرس الثاني: زيارة المقابر الزيارة الشرعية للدعاء للموتى، ولتذكر الآخرة، فإن القبر منزل لا بد من نزوله، ولا يدري العبد أينزله بعمل صالح، أم ينزله بعمل سيىء، والعبد يتبعه من منزله في الدنيا إلى قبره ثلاثة: ماله، وولده، وعمله، فيرجع المال والولد، ويبقى معه العمل.

وعند مسلم من حديث ابن الحصيب قال ﷺ: **«إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها؛ لتذكركم زيارتها خيراً»** وفي رواية عند الحاكم من حديث أنس بن مالك بسند صحيح أنه ﷺ قال: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها، فإنها تُرِق القلب، وتُدْمِع العين، وتذكر الآخرة»**

الدرس الثالث: معرفة أحوال الفقراء الذين لا يجدون لقمة العيش، تمر بهم الأيام وهم لا يجدون لقمة العيش، يواصلون ليلهم بنهارهم؛ طلبًا للرزق ولا يتمتعون بالجلوس مع أولادهم إلا مدة وجيزة.

وقد جعل الله الفقر آية لتذكير الغني بفضل الله - تعالى - عليه؛ ليرق قلبه، ويصلح حاله، ويكثر من إنفاقه.

ومما ورد عن يوسف - عليه السلام - أنه كان يجوع، وخزائن مصر بين يديه، فلما سئل عن سبب ذلك قال: حتى لا أنسى الفقراء.

فنسأل الله - تعالى - أن يرزقنا الإنابة والاستقامة، وأن يرقق قلوبنا وأن يصلح حالنا، وإن يهيىء لنا ما يذكرنا به، وأن يلبس قلوبنا ثوب العطف والرحمة، وأن يلبسها لباس الهدى والإيمان.

*****

الملك الذي لا يفنى

لا ينبغي لعاقل أن يغتر بمتاع زائل؛ لأنه سينتقل عنه إلى غيره، وسيرتحل عنه إلى سواه، والأيام دول؛ من سرَّه زمن ساءته أزمان، وقد رغبنا القرآن في الآخرة، وزهدنا في الدنيا. يقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

ومهما عاش الإنسان في الدنيا فإنها عنه مدبرة، وينبغي أن يكبها على وجهها، وأن يركب على ظهرها، وهي كما يقول العلاء بن زياد: «كعجوز هتماء شمطاء عرجاء عوراء، فيها صفات الدمامة كلها، إلا أنها لبست أحسن الملابس وتحلت بأحسن الحلي، فمن رأى ظاهرها أعجب بها، ومن علم بباطنها هرب منها».

وممن أخذت بقلبه ما رواه أبو معدان، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال: حدثت عمر بن عبد العزيز أن ملكا ممن كان قبلنا ابتنى قصراً فتأنق فيه؛ إذ وسَّعه وشيده حتى قيل: طلاه بماء الذهب، وبهر الناس وأخذ بقلوبهم؛ إذ كلٌّ يتمنى مثله، ثم صنع طعامًا ودعا الناس إليه، وأقعد على أبوابه بعض خدمه، وكلف كل واحد منهم أن يسأل من خرج: هل رأيتم عيبًا؟ فيقولون: لا.

ولعل هؤلاء الذين لم يروا عيبًا نظروا للعاجلة، وأطمأنوا لها، وأرادوا موافقة الملك وأرضاءه، طمعًا في عطائه، فأضرُّوا به وما نصحوه، حتى قيض الله ـ تعالى ـ له أناسًا كانوا آخر من دخل وآخر من استشير، فقالوا له: نجد فيه عيبين اثنين. قال: ما كنت أرضى بواحد فكيف باثنين؟! ائتوني بهم، فقالوا له: العيب الأول: خراب هذا القصر، والعيب الثاني: موت صاحبه، فقال

لهما: وهل هناك قصور لا تخرب، وأهلها لا يموتون؟ قالوا له: نعم، قصور الجنة لا تبلى، ولا تخرب، وأهلها لا يموتون.

ثم وعظوه موعظة جليلة، ودعوه دعوة صادقة فاستجاب لهم، ثم قال: إن جئت معكم علانية لم يَدَعْني أهل مملكتي، ولكن ميعادكم موضع كذا وكذا. فكان معهم زمانًا حتى صلح حاله ووقر إيمانه، ثم فارقهم ليكون داعية لغيره ومشكاة نور لسواه[1].

وقد قيل بأن هذا الملك التائب هو إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ، عاش في الملك فترة من الزمن ثم تركه للعلم والعبادة. كان يومًا على ضفاف دجلة أو الفرات، وهو لا يملك إلا فتات الخبز، فكان يغمسه في ماء النهر ويأكله فيجد له لذة عجيبة مع لذة الإيمان الذي تمكن من قلبه، فيقول: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه من اللذة والنعيم لجالدونا عليه بالسيوف».

وليس هذا بغريب على إبراهيم بن أدهم، فإنه يتكلم عن واقع كان يعيشه، ويبيِّن حالا كان يلازمه، ولكنه أيقن أن الملك الحقيقي هو الملك الذي لا يزول، ولا يحول، ولا ينقضي بانقضاء الأيام، وإنما يدوم بدوام أصحابه، خلود فلا موت، وشباب فلا هرم، وصحة فلا سقم. روى أبو سعيد الخدري وأبو هريرة ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**ينادي مناد أن لكم ـ أي: أهل الجنة ـ أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا وأن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا وإن لكم إن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، فذلك قوله عز وجل ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾**» رواه مسلم.

وما أقرب هذه القصة من قصة عمير بن حبيب السلمي الذي أسره الروم مع ثمانية من أصحابه ـ في زمن عمر بن عبد العزيز ـ قال: «فأخرجوني مقيدًا ثم

---

(١) التوابين: ٨٥.

أخرجوا أصحابي، فكلما خرج واحد قتلوه أمامي ليرهبونني، ولم يبق إلا أنا شَفَعَ فيَّ وزير من وزراء الملك فشفّعه فيَّ، فأخذني الوزير إلى منزله، وعرض عليَّ الدنيا وعرض عليَّ النساء، وهما داءان خطيران خشيهما ﷺ على أمته، وأمرهما باتقائهما، فعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله -تعالى- مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا والنساء»** رواه مسلم.

يقول عمير: عرض عليَّ أن يشاطرني ماله الذي معه، وكان يملك مالا عظيمًا، فأبيت ذلك حفاظًا على ديني؛ لأنه طلب مني أن أتنصر وأترك الإسلام، فقلت: والله! ما كنت لأقدم دنياي على ديني، ولا بطني على روحي، ولا هواي على ربي، ولا الظلام على النور، ولا الجور على العدل، ولا الشقاء على السعادة، ولا الحياة على الموت: قال: فعرض عليَّ أمرًا آخر؛ إذ أدخل عليَّ ابنته، وهي من أجمل النساء، وطلب منها أن تفتنني بجمالها البارع، فلما رأيتها دخلت نكّست رأسي إلى الأرض؛ لأنه لا دواء لداء هذه الفتنة إلا غض البصر، قال: فأرادت مني كلمة أو نظرة أو ابتسامة، فلم تجد ذلك عندي، فخرجت خاسرة بعد حفظ الله -تعالى- لي، فدخل أبوها، وقال: أردنا فتنتك وردّتك وصَرْفك عن دينك فما استطعنا، أتريد أن تلحق بأهلك؟ قلت: نعم. قال: أترى هذا النجم في السماء؟ قلت: نعم. قال: اتبعه فإنه جهة قومك، قال: فأطلقوني، فكنت أكمن النهار وأمضي في الليل، حتى وصلت إلى قومي بعد حفظ الله -تعالى- لي، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول في حديث ابن عباس: **«يا غلام! احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك....»** الحديث[1]. رواه أحمد والترمذي بسند صحيح.

فيا عجبًا للهمم الدنيئة التي ترضى بالفاني، وتزهد في الباقي! وتنافس

---

(١) البداية والنهاية: ٩/ ٢١٩ بتصرف.

في الداء وتعـرض عن الدواء! وتترك الغـذاء وتقـبل على البـلاء! ويا عـجبًا لمن أيقن بالموت كيف يلعب؟ ومن أيقن بالجنة كيف يحزن؟ ومن أيقن بالنار كيف يلهو؟ وأيقن بالحساب كيف يغفل؟ وما أحسن ما قال الشاعر:

فلو أنا إذا مُتنا تركنــــــا لكان الموت راحة كل حـــــي

ولكنا إذا متنـا بعثنـــــــا فَنُسْئل بعده عن كل شـــــيء

******

فوائد المواعظ

جعل الله - تعالى - المواعظ للقلوب كالغيث للأرض، تلينها بعد قسوتها كما يلين الغيث الأرض، ويَنْبُت فيها الخير كما يَنْبت الكلأ والعشب الكثير في الأرض. وقسوة القلوب أشد من قسوة الأرض، وأشد من قسوة الحجارة. وكم من موعظة أنقذ الله بها نفسًا بشرية من الهلاك، وهداها بها إلى الإيمان!

ورحم الله من قال: المواعظ للقلوب كالسياط للأبدان، تحركها فتتحرك، وتوقظها فتستيقظ. وكم من موعظة أصلح الله بها القلوب وغفر بها الذنوب، ففي غزوة خيبر سنة ٧هـ، جاء عبد أسود إلى رسول الله ﷺ وهو يحاصر بعض حصون خيبر المنيعة، وكان مع الراعي غنم يرعاها لبعض يهود خيبر، وقد أعجب بتواضع المسلمين وبحسن تعاملهم وطيب كلامهم، وكان يرى إيثار بعضهم لبعض، وأخذت تباشير الإسلام تبدو على ملامح الرجل، فطلب من الرسول ﷺ أن يعرض عليه الإسلام وأن يبينه له، فعرضه ﷺ في أكمل صورة، وبأفصح عبارة، فوقر الإيمان في قلب الراعي، واشتاق للإسلام وأحبه، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله! ماذا أفعل بهذه الأغنام؟ أنا أمين عليها وأرغب أداءها لصاحبها، وقد أكرمني الله بالإسلام فلا أستطيع أن أبقى راعيا لذاك اليهودي، فقال عليه الصلاة والسلام له: «أحصب وجوهها ترجع إلى أهلها» أي: خذ حفنة من الحصباء، وارم بها الغنم، فإن الله سيؤديها عنك. فامتثل الراعي الأمر؛ إذ أخذ قبضة من حصباء أو تراب فرمى به وجوهها فخرجت تشتد حتى دخلت على أهلها.

وتقدم العبد الأسود إلى ساحات القتال ليكون من حزب الله - تعالى - وجنده، ولينتظم تحت لواء التوحيد، فأخذ يجاهد مع الصحابة - رضي الله عنهم - لتكون كلمة الله هي العليا، خصوصًا وأنه قد علم فضل الجهاد

والمجاهدين، وما أعده الله - تعالى - لهم. وأقبل على الأعداء بنفسه وسيفه، وصاولهم وجاولهم، وبعد ساعة أصابه حجر أو سهم في مقتله فقتله، ومضى إلى ربه تائبًا مجاهدًا يرجو رحمته ويخشى عذابه، ولعله أن يكون في سجل الشهداء، وقد ذكر أنه لم يسجد لله - تعالى - سجدة؛ إذ استقبل الجهاد بعد إسلامه ثم قتل في ذاك الجهاد فجيء به إلى النبي ﷺ، فسجاه بشمله، ثم التفت إليه - عليه الصلاة والسلام - فأعرض عنه وعندما سئل عن سبب إعراضه عنه قال: «إن معه زوجتيه من الحور العين»(١). فسبحان الجواد الكريم الذي يقبل توبة التائب إذا تاب ويقبل شهادته إذا جاهد وأناب، ويرفع درجته إذا للسُّنَّة أصاب، ويصطفيه بجعله من أولي الألباب. وليس بغريب أن ينال الشهيد في سبيل الله الدرجات العالية والمناصب السامية.

فقد روى المقدام بن معدي كرب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «للشهيد عند الله سبع خصال: يُغْفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُحَلَّي حُلَّة الإيمان، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُجَار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار: الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويُشفَّع في سبعين إنسانًا من أهل بيته» رواه أحمد والترمذي، وابن ماجه بسند صحيح.

بل وللمجاهد عند الله - تعالى - مكانة رفيعه لا يبلغها إلا من كان مثله. فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا وجبت له الجنة، وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله» رواه أحمد، ومسلم، والنسائي.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ٤٧٩-٤٨٠، ودلائل النبوة للبيهقي: ٤/ ٢١٩-٢٢٠، والبداية والنهاية: ٤/ ١٩١.

وهذا الحديث يزيد صلة المؤمن بربه، ويقوّي إيمانه، ثقة بسعة عفو الله ورحمته، ويدعو المؤمن إلى الإخلاص في قوله وفعله وتعامله، فإن الله - تعالى - لا ينظر إلى الصور والأجساد، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال، وكل عمل لم يتصل بالقلب فهو مردود على صاحبه، لأن الأعمال بالنيات فلماذا لا يصالح العصاة ربهم، ويسارعوا في توبتهم، ويخلصوا في أوبتهم، ويصدقوا في فعلهم؛ لينالوا ثواب ربهم، ويحظوا بعفو سيدهم، ويَشْرفوا بقرب مولاهم؟!

وقد ذكر ابن حجر في الإصابة أن اسم هذا العبد: أسلم، واعترض عليه ابن الأثير وقال: ليس في شيء من السياقات أن اسمه: أسلم.

قال ابن حجر: وهو اعتراض متجه، وقد سماه أبو نعيم: يساراً، وقال الرشاطي في الأنساب: اسمه: أسلم الحبش؛ أسلم يوم خيبر، وقاتل فقتل، وما صلى صلاة واحدة[١].

وأيا كان فهذا عمل قليل، وثوابه كثير، ورحمة الله وسعت كل شيء، وهذا جزاء الإخلاص والصدق الذين عاش بهما هذا الرجل اللحظات الأخيرة من حياته، فنال بذلك سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، وخرج بهما من الظلمات إلى النور ومن الضيق إلى السرور.

إنها ساعة الحياة الحقيقية والتي أعتبر بها إنسانًا سويا، عرف طريق الهداية فسلكه، وطريق الغواية فاجتنبه، وتغير بها تغيُّراً كاملاً من حياة البهيمية إلى حياة الملائكة، ومن حياة العبودية للبطن والشهوة إلى حياة العبودية لله الواحد القهار.

فنسأل الله - تعالى - أن يفتح قلوبنا للخير، وأن يجنبنا الشر، وأن يرزقنا التوبة الصادقة وأن يثبتنا على الحق حتى نلقاه.

(١) الإصابة في تمييز الصحابة: ١/ ٣٨, ٣٩.

أدركته السعادة

هداية التوفيق لله وحده، يهدي بها من يشاء، ويوفق لها من يشاء، وقد يعيش الإنسان في إعراض عن الله ـ تعالى ـ مدة طويلة من حياته، ثم تدركه رحمة الله ـ تعالى ـ، ويحظى بهدايته، ويُوَفق للدخول في دين الله، وقد لا يعيش بعد هذه الهداية إلا لحظات يسيرة ودقائق قليلة من عمره، تصل إلى ساعة أو بعض ساعة أو ساعات، ثم يموت على التوحيد الخالص فتدركه السعادة، ليخرج من الدنيا بلا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

وقد يبذل نفسه في سبيل الله فيقاتل ساعة مع المسلمين ثم يقتل في ساحة المعركة، وهو يدافع عن دين الله ـ تعالى ـ، ويحرص على نشره، ويريد إعلاء كلمة الله ـ تعالى ـ فيكون من الشهداء السعداء، والأتقياء الأوفياء. وهذا ما حصل لأصيرم بني عبد الأشهل، واسمه: عمرو بن ثابت به وقش الأنصاري الأوسي الأشهلي؛ أخو سلمة بن ثابت، وابن عم عباد بن بشر، وابن أخت حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين.

قال ابن إسحاق: «وحدثني الحصين بن عبد الرحمن، عن أبي سفيان مولى ابن أبي أحمد عن أبي هريرة: أنه كان يقول: «حدثوني عن رجل دخل الجنة ولم يصل قط، فإذا لم يعرفه الناس سألوه من هو يا أبا هريرة؟ فيقول: أصيرم بني عبد الأشهل: عمرو بن ثابت، قال الحصين: فقلت لمحمود بن أسد: كيف كان شأن الأصيرم؟ قال: كان يأبى الإسلام على قومه، فلما كان يوم أحد بدا له الإسلام، فأسلم، ثم أخذ سيفه فغدا حتى دخل في عرض الناس، فقاتل حتى أثبتته الجراح، قال: فبينما رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم بالأصيرم فقالوا: والله! إن هذا الأصيرم، ما جاء به؟ هل الإسلام أم الكفر؟ فلقد تركناه وإنه لمنكر للجهاد: وكانوا قد

مروا به أثناء خروجهم للمعركة فعرضوا عليه الخروج معهم فأبى، فلما رأوه معهم سألوه: ما جاء بك يا عمرو؟ أحدبًا على قومك؟ أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، وحبا له آمنت بالله وبرسوله ﷺ، وقد أخذت سيفي وغدوت مع رسول الله ﷺ فقاتلت حتى أصابني ما أصابني، فلم يلبث أن مات في أيديهم، فذكروه للرسول ﷺ فقال: «إنه من أهل الجنة» وهذا إسناد حسن(١).

وقد روى أبو داود من وجه آخر، والحاكم وغيرهما، من طريق حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن عمرو بن ثابت الأصيرم كان له ربًا في الجاهلية، فكره أن يسلم حتى يأخذ رباه، فجاء يوم أحد فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأحد. قال: بأحد؟ فلبس لأمته وركب فرسه، ثم توجه قبلهم، فلما رآه المسلمون، قالوا: إليك عنا يا عمرو. قال: إني قد آمنت بالله ورسوله. فقاتل قتالا شديداً حتى جرح، فحمل إلى أهله جريحًا فجاءه سعد بن معاذ، فقال لأخيه سلمة: أحمية لقومه أو غضبًا لله ورسوله؟ قال: بل غضب لله ورسوله، فمات فدخل الجنة وما صلى صلاة واحدة. قال ابن حجر في الإصابة: وهذا إسناد حسن، ويجمع بينه وبين الذي قبله بأن الذين قالوا أولاً: إليك عنا، قوم من المسلمين من غير قومه -بني عبد الأشهل- وبأنهم لما وجدوه في المعركة حملوه إلى بعض أهله(٢).

وغادر الدنيا بعمل قليل وأجر كبير، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد أسبغ علينا النعم، فلا نستطيع أن نعدها ولا نحصيها، ومن أعظم نعمه أنه يجزي على الحسنة الواحدة عشراً؛ بل يضاعفها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وبالصدقة الواحدة سبعمائة ضعف؛ بل يربيها وينميها لصاحبها

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ٣٩-٤٠، والبداية والنهاية: ٤/ ٣٨، وأسد الغابة: ٣/ ٦٩٩، و الإصابة: ٢/ ٥٢٦، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: ٣٩٢.
(٢) الإصابة: ٢/ ٥٢٦.

حتى تكون كالجبل، فعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيَّن ذلك، فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله - تعالى - حسنة كاملة، فإن همَّ بها فعملها كتبها الله - تعالى - عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وإن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هَمَّ بها فعملها كتبها الله - تعالى - سيئة واحدة، ولا يهلك على الله إلا هالك**» متفق عليه.

فرحم الله الأصيرم، وتقبل شهادته، وأعلى منزلته، فلقد أدركته سعادة الدنيا عندما دخل في دين الله طائعًا منقادًا، وأحب الله وترك ما ألفه في الجاهلية من الشرك والإلحاد، ومضى في ركب الصالحين الذين يريدون صلاح قلوبهم، وصلاح جوارحهم، وصلاح دنياهم لتصلح لهم آخرتهم، والله - تعالى - واسع العفو والمغفرة، يقبل توبة العبد ما لم يغرغر، فكيف إذا كانت التوبة في ساحات الوغى، عندما تقدم النفوس رخيصة في سبيل الله لتطير في حواصل طير خضر؟

فعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر لها قناديل معلقة تحت العرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئًا، قالوا: أي شيء نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ فيفعل بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب! نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نرجع إلى الدنيا فنقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا**» رواه مسلم والترمذي.

*****

دعوة صادقة

من الناس من يعيش لنفسه فقط ولا يهتم بأمر غيره، ولا يغار على دين الله - تعالى -، ولا يحرص على هداية الناس، ولا يبذل لهم نصحًا ولا توجيهًا ولا إرشادًا، وهذا إنسان أخطأ طريق الصواب، وهذه الأمة فضلت على غيرها من الأمم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ بل والعالم وارث النبي ﷺ في دعوته؛ إذ العلماء ورثة الأنبياء، ولم يورث الأنبياء درهمًا ولا دينارًا، وإنما ورثوا العلم وأهله، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر.

روى أبو الدرداء - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء. وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم؛ فمن أخذه أخذ بحظ وافر**» رواه أحمد وابن حبان بسند صحيح(١).

وقدوتنا في تعليم الناس وإبلاغهم دين الله، هو رسولنا ﷺ؛ فقد بذل جهده للدعوة وأشغل وقته للإصلاح حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا، بدأ دعوته بنفسه وحده، وما غادر الدنيا إلا وأصحابه يزيدون على مائة وأربعة عشر ألفًا.

وقد كان يدعو الناس على جميع أحوالهم وألوانهم فلا يقتصر بدعوته على أهله ولا عشيرته، ولا العرب، ولا الأحرار، ولا الذكور، وإنما هي دعوة عالمية للأبيض والأسود، والحر والعبد، والذكر والأنثى، والعربي والعجمي،

(١) صحيح الجامع الصغير: ٦٢٩٧، وصحيح الترغيب: ٦٨.

وممن حظي بدعوته غلام يهودي كان يخدمه، فعرض عليه الإسلام فأسلم وانتقل من الدنيا بإسلامه بعد ترك يهوديته، وترك العاجلة ليستقبل الآجلة بعمل صالح وتجارة رابحة، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان غلام يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: أسلم. فنظر الغلام إلى أبيه، وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم. فأسلم الغلام فخرج ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**» رواه البخاري والنسائي وأبو داود وغيرهم وفي رواية النسائي عن إسحاق بن راهويه عن سليمان بن حرب فقال: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله**» وفي رواية أبي داود وابي خليفة: «**أنقذه بي من النار**»(١).

وقد ظهرت أخلاقه ﷺ كما هو دأبه دائما، وشفقته سابغة كما هي عادته، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨]. واهتمامه عليه الصلاة والسلام بأمر الناس يدل على حب الخير للغير، ويدل على الإخلاص، وعلى صدق الداعية في محبته للناس؛ إذ يدعوهم إلى الجنة حيث القصور العالية، والأشجار الباسقة، والأنهار الجارية، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولا يهتم هذا الاهتمام إلا أصحاب المعادن النفيسة التي تنطوي على الإيمان، وتعمل بالإحسان وتحذر من العصيان.

وبهذه الدعوة الصادقة على فراش الموت تتعلم الأمة عدم القنوط واليأس ووجوب البيان، واليقين بأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فكم من ضال اهتدى بهداية الله له! وكم من ضال ضل باتباع الهوى والشيطان! ونتمنى من الأعماق أنَّ أهل الإسلام يعرفون هذا الهدي الثمين، ويتعهدوا المرضى بالعيادة، ومع العيادة يدعونهم إلى التوبة النصوح،

---

(١) فتح الباري: ٣/ ٣٦٤.

وتدارك التقصير، فالكثير من المرضى على أسرَّتهم محبوسين، لا يجدون داعيًا يدعوهم، ولا واعظًا، يعظهم ولا مذكرًا يذكَرهم؛ بل لربما تركوا الصلاة مدة المرض وتعللوا بعلل واهية من قولهم لا نستطيع التطهر أولا نستطيع القيام والقعود.

وكأنهم لم يقرءوا قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

فمن رحمة الله ـ تعالى ـ بنا أن جعل التكليف على قدر الاستطاعة، ولم يكلف نفسًا إلا وسعها، ويروي أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم؛ فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه واستطعتم» متفق عليه، ويقول ﷺ لعمران بن الحصين: «صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنب» رواه البخاري وأحمد من حديث عمران بن الحصين، رضي الله عنه.

وبهذه الأدلة نوقن أنه: لا عذر لمريض لم يصل، بل تجب عليه ما دام يملك عقلا يميز به. وقد يموت هذا المريض في مرضه ذلك فيلقى ربه ـ تعالى ـ بلا صلاة، ولربما كفر بهذا الترك فيموت على غير الإسلام فيخسر الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين. ونحن نشاهد المرضى يسألون الطبيب عن أمراض أجسادهم، ويعملون بوصيته ويتقيدون بتعاليمه؛ حرصًا على سلامة الأجساد، فلماذا لا يسألون أطباء القلوب، وهم العلماء عما أشكل عليهم في دينهم؛ ليعبدوا الله ـ تعالى ـ على بصيرة وليضعوا كل شيء في موضعه؟

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح: وفي الحديث دليل على جواز استخدام المشرك ـ ولعل هذا أذا لم يوجد مسلم، أما إذا وجد مسلم فهو

أولى من غيره، وآمن من غيره، وأصدق من غيره؛ بل والأفضل السلامة من الخدم في مثل هذا الزمان الذي كثرت فيه الفتن، واختلط الحابل والنابل. وفي الحديث كذلك عيادة المشرك عند المرض خصوصًا إذا أراد دعوته وحثه على الإسلام وفيه حسن العهد، والتخلق بالأخلاق الحميدة، وفيه استخدام الصغير، وعرض الإسلام على الصبي، ولولا صحة الإسلام منه ما عرضه عليه، وفي قوله: «أنقذه من النار» دلالة على صحة إسلام الغلام ونجاته من عذاب الله تعالى(١).

وقد درج الصالحون على إبلاغ هذا الدين وبيانه للناس والدعوة إليه، وتحريك القلوب للأخذ به، فقاموا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكمل قيام، ومن هذا القبيل ما ذكره الفتح بن شخرف قال: تعلق رجل بامرأة، أو تعرض لها وبيده سكين لا يدنو منه أحد إلا عقره، وكان الرجل شديد البدن، فبينا الناس كذلك والمرأة تصيح في يده؛ إذ مر بشر بن الحارث، فدنا منه وحك كتفه بكتف الرجل، فوقع الرجل على الأرض ومشى بشر، فدنوا من الرجل وهو يرشح عرقًا كثيراً، ومضت المرأة لحالها، فسألوه ما حالك؟ فقال: ما أدري، ولكن حاكّني شيخ، وقال لي: إن الله -عز وجل- ناظر إليك وإلى ما تعمل فضعفت لقوله قدماي، وهبْتُه هيبة شديدة، ولا أدري مَنْ ذلك الرجل، فقالوا له: بشر بن الحارث، فقالَ: واسوأتاه! كيف يشهد عليٍّ يوم القيامة وعلى عملي(٢).

وليس هذا بغريب على بشر بن الحارث الحافي الذي حرص على الخير، وسابق إليه، وأيقن أنه لا بد من إنكار المنكر، والأخذ على يد السفيه، وأطره على الحق أطر، وتذكيره بالله علام الغيوب، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي

---

(١) فتح الباري: ٣/ ٤٦٤.
(٢) إحياء علوم الدين: ٢/ ٣٠٧.

الصدور، وبهذا يسلم المجتمع من فشو المنكرات، وتتلاشى السيئات، ولو صدق الناس مع ربهم لطوَّع لهم كل شيء؛ من أنفسهم، ومن المخلوقات.

وقد ذكر في سيرة إبراهيم بن أحمد الخواص أنه كان في سفر، فدخل في غيظة ملتفة بالأشجار، هو وبعض أصحابه، فلمَّا أدركهم الليل إذا بالسباع قد أحاطت بهم، فجزعوا إلا إبراهيم استلقى على قفاه، فأقبلت السباع تلحسه من قرنه إلى قدمه، فلما جاء الصباح خرجوا إلى منزل آخر وباتوا في مسجد، فأقبلت على إبراهيم بقة وقعت على وجهه فلسعته وآلمته، فقال أصحابه: يا أبا إسحاق! أي شيء هذا التألم؟ أين أنت من البارحة؟ فقال: ذاك حال كنت فيه بالله ـ تعالى ـ، وهذا حال أنا فيه بنفسي.

قال علي بن محمد الحلواني: كان إبراهيم الخواص جالسًا في مسجد الري، وعنده جماعة؛ إذ سمع ملاهي من الجيران فتأثر من في المسجد لذاك المنكر، وقالوا: يا أبا إسحاق ما ترى؟ فخرج إبراهيم من المسجد نحو الدار التي فيها المنكر، فلما بلغ طرف الزقاق إذا كلب رابض، فلما قرب منه إبراهيم نبح عليه وقام في وجهه، فرجع إبراهيم إلى المسجد وتفكر ساعة، ثم قام مبادرًا وخرج فمر على الكلب، فحرك الكلبة ذنبه، فلما قرب من باب الدار خرج إليه شاب حسن الوجه، وقال: أيها الشيخ! لماذا انزعجت؟ لو وجهت إليَّ أحد طلابك لعملتُ بكل ما تريد، وإنني أعتذر إليك من الإساءة، وعليّ عهد الله وميثاقه لا شربت أبدًا، ثم كسر جميع ما كان عنده من الشراب وآلته، وصحب أهل الخير، ولزم العبادة، وتاب إلى ربه.

ورجع إبراهيم إلى مسجده فلما جلس سئل عن خروجه في أول مرة ورجوعه، ثم خروجه في الثانية وما كان من أمر الكلب؟ فقال: نعم، إنه نبح عليَّ الكلب لفساد قد دخل علي في عقد بيني وبين الله تعالى، لم أنتبه له ذاك

الوقت، فلما رجعت إلى المسجد تبت من ذنبي واستغفرت الله - عز وجل - ثم خرجت الثانية فكان ما رأيت.

وهكذا كل من خرج لإزالة منكر فتحرك عليه شيء من المخلوقات فلفساد عقد بينه وبين الله عز وجل، فإذا وقع الأمر على الصحة لم يتحرك عليه شيء[1].

فليجتهد المسلم الصادق في دعوته، وليخلص في نصيحته، وليداوم على غيرته؛ ليكون غيثًا للقلوب، ودواءً للصدور، ومشكاة نور للتائهين.

*****

(١) صفة الصفوة: ٤/ ١٠٠, ١٠١.

الجزع عند المصيبة

أمر المؤمن كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. فحياته كلها طاعة؛ دقيقته خير من ثانيته، وساعته خير من دقيقته، ويومه خير من ساعته، وغده خير من يومه، ويوشك أن يقدم على ربه بخير عمل، ليستريح ويقول: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، إن ربنا لغفور شكور، ويقول: الحمد لله الذي أورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حين نشاء فنعم أجر العاملين.

وقد بيَّن ذلك الرسول ﷺ في قوله: «**عجبت للمسلم إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر، وإذا أصابه خير حمد الله وشكر، إن المسلم يؤجر في كل شيء حتى اللقمة يرفعها إلى فيه**» رواه البيهقي والطيالسي عن سعد بن أبي وقاص بسند صحيح.

وفي رواية أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**عجبت للمؤمن إن الله ـ تعالى ـ لم يقض له قضاءً إلا كان خيراً له**» رواه أحمد وأبو نعيم في الحلية بسند صحيح(١).

وعظم الجزاء مع عظم البلاء، وإذا أحب الله قومًا ابتلاهم، فمن رضي بالقضاء رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، ورزقه الطمأنينة والسكينة.

ومن سخط وكره أمر الله ـ تعالى ـ سخط الله ـ تعالى ـ عليه وأنفذ قضاءه وقدره.

وفي أحاديث بني إسرائيل عبرة وعظة، فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن جندب بن عبد الله البجلي ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح الجامع الصغير: ٣٩٨٥، ٣٩٨٦.

قال: «**كان فيمن كـان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكينًا فحـز بها يده فما رقأ الدم حتى مات؛ قال الله ـ تعالى ـ: بادرني عـبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة**»، وهذا يدل على عظم الصبر وأنه من عزم الأمور، وقد جعله الله ـ تعالى ـ ضياءً يطهـر الذنوب، ويضـاعف الأجـور، وهـو من الدين بمنزلة الرأس من الجسـد، ونفس الإنسان نفيسة يجب مراعاة حقوقها، وعدم إهانتها فهي ملك لله ـ تعالى ـ يجب تطويعـها لمراد الله، لتزكـو وتطيب وتبقى عزيزة كريمة، ثمينة لا ترخص بدنس المعصية.

وكم يوجد اليوم ممن حرص على قتل نفسه وهو لا يشعر، إما بحرمانها من الهـدى والإيمان، وإبعـادها من مـصاحـبة أهل الإحسـان، وإرغـامـهـا على مصاحبة أهل الفسوق والعصيان. وإما بضياع وقته في القيل والقال، أو الكلام البـذيء، أو الإكـثـار من النوم، أو الإفـراط في المبـاحـات، وإمـا بتناول بعض المشروبات التي تسبب الأمراض، وتفقد البدن شهية الطعام والشراب أو غير ذلك. وإذا كـان هذا الرجل عـذب بحزِّ يده فكيف بمن هلك بعينه التي ينظر بها إلى الحـرام، ولربمـا نظرة واحـدة أوبقت عليـه دنيـاه وآخـرته؛ فكل الحـوادث مبدؤها من النظر، وكم من نظرة قالت لصاحبها: دعني!

وقـد أمـرنا الله ـ عـز وجل ـ بحـفظ أبصـارنا، وبيَّن أنـهـا تـورد المهـالك إن لـم تُغَضَّ، قال تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾ [النور: ٣٠]، ويقول ﷺ، كما في حديث بريدة بن الحصيب: «**يا علي! لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخره**» رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي بسند حسن.

والعين تزني وزناهـا النظر، ويكفي أنه زنـا حـرمـه الله ـ تعـالى ـ ونهـانـا عن قـربانه، يقـول تعـالى: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا**﴾ [الإسراء: ٣٢].

وروى عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمني وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**» متفق عليه.

وكيف بمن هلك بأذنه التي يسمع بها الحرام حتى يطمئن قلبه بسماع المعصية، فلا يكاد يصبر عنها حتى يأتيه أجله، وهو على غضب الله وسخطه، وسيسأله الله - تعالى - عن أذنه ما الذي كان يسمع بها قال تعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾ [الإسراء: ٣٦].

وكم من أذن حاربت الله ورسوله ليس لها هم إلا سماع الباطل واتباعه، والإعراض عن الحق وعن استماعه. وكيف بمن هلك بلسانه الذي ينطق به، ويكفي في ذلك حديث معاذ - رضي الله عنه - قال: يا رسول الله! دلني على عمل يدخلني الجنة، ويباعدني عن النار، قال: «**لقد سألتني عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه؛ تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، وتحج البيت. ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل. ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ رأس الأمر: الإسلام، وعموده: الصلاة، وذروة سنامه: الجهاد. ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ كف عليك هذا - وأشار إلى لسانه - قال: يا نبي الله! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم**» رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجة وغيرهم بسند صحيح.

وكيف بمن هلك بيده وما أخذت من الحرام، أو كتبت من المعاصي، أو آذت مسلمًا، وهكذا القدم وخطاها ومشيها إلى ما يبغضه الله ويأباه.

وعمومًا فقد يستسهل الإنسان الأمر وهو عند الله عظيم. وهذا وعيد شديد ورد في الحديث، وهل المراد الخلود في النار أم لا؟ قال بعض أهل العلم: أمثال هذا الحديث تُمَر كما هي من غير تأويل. وقيل: من استحل مثل هذا وجعله حلالا مع حرمته فهو كافر؛ لأنه أحل ما حرمه الله تعالى، إذ استحل القتل وهو حرام وقيل: إن المراد أن الجنة التي حرمت عليه في وقت ما، كالوقت الذي يدخل فيه السابقون. وقيل: المراد جنة معينة كالفردوس. وقيل: يحتمل أن ذلك شرع من سبق، والله أعلم.

ويكفي أن نعلم أنه وعيد شديد وزجرعظيم، تتعظ له القلوب. وقد أخرج البخاري ما يشبه ذلك، فعن سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ التقى مع المشركين، فاقتتلوا فلما قال رسول الله ﷺ إلى عسكره، وقال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع شاذة ولا فاذة إلا أتبعها يضربها بسيفه، فقال الصحابة: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان. فقال رسول الله ﷺ: أما إنه من أهل النار. فقال رجل من القوم: أنا صاحبه، قال: فخرج معه كلما وقف وقف. معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال: فجرح الرجل جُرحًا شديدًا، فاستعجل الموت، فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله. قال: وما ذاك؟ قال: الرجل الذي ذكرت آنفًا، إنه من أهل النار، فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به فخرجت في طلبه، ثم جرح جرحًا شديدًا، فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه في الأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**» أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة خيبر.

فنسأل الله أن يثبتنا على الحق، وأن يحبب إلينا الإيمان، وأن يزينه في قلوبنا، وأن يكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وأن يجعلنا من الراشدين، ونسأله - تعالى - أن يجعل أعمالنا خالصة له وحده، وأن لا يجعل فيها لأحد من الناس نصيب.

******

ضرسه في النار كجبل أحد

القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو بكل شيء عليم، فقد روى عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله قال: **«إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء»** رواه أحمد ومسلم.

والمؤمن كراكب خشبة في البحر يدعو ويقول: اللهم نجني من الهلاك، فلا يفتر لسانه عن الدعاء حتى ينجو من الغرق. والدنيا بحر عميق غرق فيه الكثير من الناس حتى أنك ترى الإنسان يعمل فيما يبدو للناس بعمل أهل الجنة، فلا يبقى بينه وبينها إلا ذراع، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار.

وبالعكس قد يعمل فيما يبدو للناس بعمل أهل النار، حتى لا يبقى بينه وبينها إلا ذراع، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة، ويظهر ذلك جليا في حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق -: **«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكا، ويؤمر بأربع كلمات: ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل النار فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل الجنة فيدخل الجنة»** متفق عليه.

وممن كتب الله شقاءه الرَّجّال بن عنفوة الحنفي وفد إلى النبي ﷺ مع وفد بني حنيفة، وكانوا بضعة عشر رجلا فأسلموا، وقرأ الرجّال القرآن، وحفظ البقرة، وقدم زمن الردة إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فبعثه إلى أهل اليمامة

يدعوهم إلى الله تعالى، ويطالبهم بالثبات على الإسلام، في زمن تزعزعت فيه القلوب وتزلزلت فيه الأقدام، فوجدهم قد ارتدوا عن الإسلام اتباعًا لشيطانهم الذي ادعى النبوة - مسيلمة الكذاب - والكثير منهم تركوا الإسلام؛ عصبية وحميَّة جاهلية، حتى قال قائلهم: «إني أعلم أن محمدًا لصادق، وأن مسيلمة كذاب، ولكن كذاب ربيعة أحب إليَّ من صادق مُضَر. وما أسوأ العصبية التي تحول الإنسان من عبد لله تعالى يأتمر بأمره، وينتهي عن نهيه إلى عبد لقبيلته وعشيرته وعرفه وعادته، وتطمس معالم الخير في قلبه، وتنبت معالم الشر، وتجعله إمَّعَةً؛ إن أحسن الناس أحسن، وإن أساء الناس أساء وقدم الرَّجَّال على مسيلمة، وإذا بالناس يدخلون عليه أفواجا، ويسلمون عليه بالنبوة ويعظمونه أشد تعظيم، فتحركت حمية الجاهلية في صدره، فوافق قومه وشهد لمسيلمة بالنبوة وخلع ربقة الإسلام من عنقه، واستبدل الكفر بالإسلام، والظلمة بالنور، والضلال بالهدى، والهلاك بالفلاح، والشقاء بالسعادة، والوحشة بالأنس، وحزب الشيطان بحزب الله والكذب بالصدق.

وكان الرَّجَّال صديقًا حميمًا لمسيلمة فقال: يا مسيلمة! أشهد أنني سمعت محمدًا يقول: لقد أشركت مسيلمة بن حبيب معي في الأمر. وكان هذا الفاجر من ألد أعداء الله - تعالى - ومن رءوس الكفر الذين دعوا الناس إلى الخروج من دين الله أفواجًا، والدخول في دين مسيلمة أفواجًا، فأضل الكثير من أهل اليمامة، حتى اتبعوا مسيلمة، قاتلهما الله وأخزاهما.

قال سيف بن عمر: عن طلحة، عن عكرمة، عن أبي هريرة قال: كنت يومًا عند النبي ﷺ في رهط، معنا الرَّجَّال بن عنفوة، فقال: إن فيكم لرجلا ضرسه في النار أعظم من أحد، يقول أبو هريرة: «فهلك القوم كلهم إلا أنا والرجال، وكنت متخوفًا خوفًا شديدًا حتى خرج الرجال مع مسيلمة، وشهد له بالنبوة، وكانت فتنة الرَّجَّال أعظم من فتنة مسيلمة».

وقد ذكر ابن حجر في الإصابة: «أن الواقدي روى عن رافع بن خديج قال: كان في الرَّجَّال به عنفوة من الخشوع، واللزوم لقراءة القرآن، والخير فيما يرى رسول الله ﷺ شيء عجيب، فخرج علينا رسول الله ﷺ يومًا، والرَّجَّال معنا فقال: أحد هؤلاء النفر في النار، وقال رافع: فنظرت فإذا هم أبو هريرة، وأبو أروى، والطفيل بن عمرو، والرجال. فجعلت أنظرو أتعجب، فلما ارتدت بنو حنيفة سألت: ما فعل الرَّجَّال؟ فقالوا: افتتن وشهد لمسيلمة أن رسول الله ﷺ أشركه في الأمر، فقلت: ما قال رسول الله ﷺ هو الحق. قالوا: وكان الرَّجَّال يقول: كبشان انتطحا فأحبهما إلينا كبشنا ـ يعني مسيلمة ـ ويعني بالكبشين: رسول الله ﷺ ومسيلمة[١].

ومضى الرَّجَّال بوزره إلى ربه، وسيعض أصابع الندم على كذبه وافترائه، ويقول: يا ليتني لم أتخذ مسيلمة خليلا، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وأوردني المهالك، وقال: ما أنا بمصرخك وما أنت بمصرخي. وكان له بمثابة الكير الذي أحرقه وسوَّد وجهه، وأفسد دنياه وآخرته وصدق الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي
إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم   ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

وقال الآخر:

لا تركنن إلى ذي منظر حسن   فربّ رائعة قد ساء مخبرها
ما كل أصفر دينار لصفرته   صفر العقارب أرداها وأنكرها

ويقول الآخر:

لكل امرىء شكل من الناس مثله   فأكثرهم شكلا أقلهم عقلا

---

(١) البداية والنهاية: ٦/ ٣٢٨، و الإصابة: ١/ ٥٣٩، وإعجاز القرآن: ١٧٤.

وكل أناس آلفون لشكلهم فأكثرهم عقلا أقلهم شكلا
لأن كثير العقل لست بواجد له في طريق حين يسلكه مثلا
وكل سفيه طائش إن فقدته وجدت له في كل ناحية عدلا[1]

******

(١) أدب الدنيا والدين: ١٦٧ , ١٧٢ .

فهم خاطئ

من اعتمد على شيء وكله الله إليه، وقطع ما بينه وبين السماء، وخسف بالأرض من تحت قدميه فأصبح معلقا بين السماء والأرض عاقبته الهلاك، ومآله الشقاء. فلا إلى أهل السماء يعلو ويسمو، ولا إلى أهل الأرض يخلد، فحبله الذي يتمسك به أوهى من خيط العنكبوت، وقاعدته التي يعتمد عليها أضعف من الغثاء، وقائده في ذلك هو الشيطان الرجيم؛ الذي يطمس معالم الفطرة.

ومداخل الشيطان إلى النفس البشرية كثيرة، ومنها مدخل العجب بالنفس الذي يدعو إلى الكذب على الله - تعالى - وعلى رسوله ﷺ وإلى ادعاء الباطل والزور، وهذا ما حصل لمسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة ولبس ثوب غيره زوراً وبهتانًا فعير بذلك أبد الدهر، فلا يعرف إلا بمسيلمة الكذاب لادعائه النبوة كذبًا فاشتهر بالكذاب، والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار.

وسبب ادعاء مسيلمة النبوة أن وفود العرب أخذت تشد الرحال من أنحاء الجزيرة العربية إلى المدينة النبوية للقاء الرسول ﷺ، وإعلان إسلامها بين يديه ومبايعته على السمع والطاعة، وكان من جملة الوفود وفد بني حنيفة القادم من أعالي نجد، أناخ الوفد ركائبه في أطراف المدينة، وخلف على رحاله رجلاً يدعى مسيلمة بن حبيب الحنفي، ومضى الوفد إلى رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه فأكرم الرسول ﷺ وفادتهم، وأمر لكل واحد منهم بعطية، وأمر لصاحبهم الذي خلفوه في رحالهم بمثل ما أمر لهم.

وقد ذكر ابن إسحاق في السيرة أنه لما أمر لمسيلمة بمثل ما أمر لقومه قال: أما أنه ليس بشركم مكانًا، أي: لحفظه ضيعة أصحابه، وهذا الذي عناه

الرسول ﷺ لو صح الحديث. ولما عادوا إلى ديارهم ارتد عدو الله عن الإسلام، وتنبأ وكذب في دعواه، وقال: إني أشركت مع محمد في الأمر وأقنع قومه بذلك، وقال لهم: ألم يقل محمد بأني لست بشرِّكم مكانًا، ما قال ذلك إلا لما يعلم أني قد أشركت معه، ثم جعل يسجع لهم السجعات، ويقول لهم فيما يقول مضاهيا للقرآن.

ومن أقواله المشينة الباطلة التي يمرض لها القلب وتنتن لها الآذان: «لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشا». وأحل لهم الخمر والزنا، ووضع عنهم الصلاة، ومع هذا فهو يشهد لرسول الله ﷺ بأنه نبي، واجتمعت عليه بنو حنيفة؛ عصبية جاهلية، وحمية ممقوتة، وقالوا: كذابنا أحب إلينا من صادق مضر. ولكنه لم يكن أهلاً للرسالة، ولا مستحقا لها، وقد لبس ثوبها فلم يصلح له ولن يصلح له؛ لأن الرسالة تشريف وتكريم من عند الله تعالى، وقد جعل الله هذا الثوب مسبةً له يعيَّر به مدى الحياة؛ لأنه لبسه زورًا.

وقد كتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ كتابًا جاء فيه: «من مسيلمة - رسول الله - إلى محمد رسول الله: سلام عليك، أما بعد، فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشًا قوم يعتدون» وبعث الكتاب مع رجلين من رجاله، فلما قُرىء الكتاب للنبي ﷺ قال للرجلين: **«وما تقولان أنتما؟»**، فأجابا: نقول كما قال. فقال لهما: **«أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقيكما»**، ثم كتب إلى مسيلمة رسالة جاء فيها: **«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتبع الهدى أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين»** وبعث بالرسالة مع الرجلين. إلا أن شره ازداد وفساده استشرى، فرأى رسول الله ﷺ أن يبعث إليه برسالة يزجره فيها عن غيه، وندب لحمل

الرسالة حبيب بن زيد الأنصاري - رضي الله عنه - مضى حبيب بن زيد إلى ما أمره رسول الله ﷺ غير فاتر ولا ضعيف، ولا متمهل ولا متردد، يقوده إيمانه العميق، وحبه العظيم لله ولرسوله - عليه الصلاة والسلام - ترفعه النجاد وتحطه الوهاد، حتى بلغ ديار بني حنيفة في أعالي نجد، ودفع الرسالة إلى مسيلمة.

فما كاد مسيلمة يقف على ما جاء فيها حتى انتفخ صدره ضغينة وحقدًا، وبدا الشر على قسمات وجهه، وأمر بحبيب بن زيد أن يقيَّد، وأن يؤتى به إليه ضحى اليوم الثاني، فلما كان الغد تصدَّر مسيلمة مجلسه وجعل عن يمينه وعن شماله الطواغيت من كبار أتباعه، وأذن للعامة بالدخول عليه، ثم أمر بحبيب ابن زيد فجيء به إليه وهو يرسف في قيوده.

وقف حبيب وسط هذه الجموع الحاشدة الحاقدة، مشدود القامة، مرفوع الهامة، شامخ الأنف، وانتصب بينهما كرمح صلب. فالتفت إليه مسيلمة وقال: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ فقال: نعم، أشهد أن محمدًا رسول الله، فتقطع قلب مسيلمة غيظًا وقال: أتشهد أني رسول الله؟ فقال حبيب في سخرية لا ذعة: إن في أذني صممًا، لا أسمع ما تقول.

فتغير وجه مسيلمة وارتجفت شفتاه حنقًا، وقال لجلاده: اقطع قطعة من جسده، فأهوى الجلاد على حبيب بسيفه وبتر قطعة من جسده، فتدحرجت على الأرض.

ثم أعاد مسيلمة السؤال نفسه، وأعاد حبيب الجواب الأول نفسه، فقطع قطعة أخرى من جسده.. ومضى مسيلمة يسأل والجلاد يقطع، وحبيب يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله، حتى صار نحو من نصفه قطعًا من اللحم منثورة على الأرض، ونصفه الآخر كتلة تتكلم، ثم فاضت روحه الطاهرة على التوحيد الصادق، فلما بلغ أمه: نسيبة الأنصارية ماحصل لابنها حبيب مع عدو الله مسيلمة، ما زادت على أن قالت: من أجل هذا الموقف أعددته، وعند الله

أحتسبه، ولئن أمكنني الله ـ تعالى ـ من مسيلمة لأجعلن بناته يلطمن الخدود عليه.

لم يبطئ اليوم الذي تمنَّته نسيبة كثيراً؛ حيث أذن مؤذن الجهاد بقتال مسيلمة الكذاب، وكان في الجيش نسيبة المازنية الأنصارية وابنها عبد الله بن زيد، وفي يوم اليمامة الأغر شوهدت نسيبة تشق الصفوف كاللبؤة الثائرة، وهي تنادي: أين عدو الله؟ فلما انتهت إليه وجدته قد قتل بأيدي المؤمنين، فطابت نفسًا وقرت عينًا[١]. وكان الذي قتله وحشي بن حرب: قاتل حمزة بن عبد المطلب.

ومضى مسيلمة إلى ربه بكفره وردته وكذبه، يحمل وزره على ظهره، وسيتمنى أنه ثبت على إسلامه يوم يقول هو وأمثاله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٦ - ٥٨].

ومن أقواله السيئة: - «يا ضفدع بنت الضفدعين نقي ما تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين، رأسك في الماء وذنبك في الطين»، وكان يقول: «والمبذرات زرعًا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحًا، والطاحنات طحنًا، والخابزات خبزًا، والثاردات ثردًا، واللاقمات لقمًا، إهالة وسمناً، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، رفيقكم فامنعوه والمعترفآووه، والناعي فواسوه».

وكان يقول: الفيل، وما أدراك ما الفيل، له زلوم طويل... إلى غير ذلك من الكلام البذئ الساقط، الذي لا يقوله إلا معتوه قد ذهب لبه، وطار عقله، ومات قلبه، فأصبح يهذي هذيان المجانين، وكان يعيب عليه هذا القول

---

(١) صور من حياة الصحابة ٣١١-٣١٥، البداية والنهاية ٥/ ٤٦، ٦/ ٣٣١.

حتى الصبيان الصغار قبل بلوغهم سن الاحتلام، ومن أقوالهم وهم يلعبون :

دعانا إلى ترك الديانة والهدى مسيلمة الكذاب إذ جاء يسجع

فيا عجبًا من معشر قد تتابعوا له في سبيل الغي والغي أشنع

وقد ذكر علماء التاريخ أنه كان يتشبه بالنبي ﷺ، فقد بلغه أن رسول الله ﷺ بصق في بئر جافة، فأخذت تفور حتي غزر ماؤها، فقام مسيلمة يحاكيه في ذلك؛ إذ بصق في بئر فيها ماءٌ قليل فجف ماؤها، ولم يبق فيها قطرة.

وسقى بوضوئه نخلاً فيبست النخل. وأتي بصبيان صغار يبرك عليهم فجعل يمسح رءوسهم؛ فمنهم من تساقط شعر رأسه كله، ومنهم من لثغ لسانه.

ويقال: إنه دعا لرجل أصابه مرض في عينه فمسحها، فعمي الرجل وقد كان مبصراً. وقد ذكر سيف بن عمر، عن خليد بن زفر النمري، عن عمير بن طلحة، عن أبيه أنه جاء إلى اليمامة فقال: أين مسيلمة؟ فقال: مه رسول الله، فقال: لا، حتى أراه، فلما دخل عليه قال: أنت مسيلمة؟ قال: نعم، قال: من يأتيك؟ قال: رجس. قال: أفي نور أم في ظلمة؟ قال: في ظلمة. قال: أشهد أنك كذاب، وأن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر، واتبعه هذا الأعرابي الجلف قاتله الله - حتى قتل معه[1]، وطويت صحيفتاهما مع صحف أتباعهما، وفيها الزور والبهتان، والكفر والإلحاد، والردة عن الإسلام، وتنشر بين أيديهم يوم القيامة فيتمنى الواحد منهم أن يكون ترابًا.

*****

(١) البداية والنهاية ٦/ ٣٣١، وإعجاز القرآن ١٧٥ .

عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم

المسلم هو الذي يسلم أمره لله تعالى، ويعلم أن الأمر لله وحده، يحسن الرجاء ويحسن الظن بالله تعالى، ويؤمن أن الله ـ تعالى ـ لا يقضي قضاءً إلا وفيه حكمة عظيمة، فليس الشر إليه تعالى، وبهذا يعيش في طمأنينة دائمة وسكينة كاملة.

وممن أراد الله له الخير ويسر له سبله ثمامة بن أثال الحنفي ـ رضي الله عنه ـ، وكان قبل الإسلام يؤذي رسول الله ﷺ؛ بل وحاول قتله أكثر من مرة. وكانت آخر محاولة له عندما ركبه شيطانه، وأغراه بقتل رسول الله ﷺ، ووأد دعوته معه، فَدَأَبَ يتحين الفرصة للقضاء عليه، حتى أصاب منه غرة وكادت تتم الجريمة الشنعاء، لولا أن أحد أعمام ثمامة ثناه عن عزمه في آخر لحظة، فنجَّى الله نبيه من شره غير أن ثمامة وإن كف عن رسول الله ﷺ فإنه لم يكف عن أصحابه؛ حيث جعل يتربص بهم حتى ظفر بعدد منهم وقتلهم شر قتلة.

فأهدر النبي ﷺ دمه، وأعلن ذلك في أصحابه، ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى عزم ثمامة بن أثال على أداء العمرة، فانطلق من أرض اليمامة موليًا وجهه شطر مكة، وهو يُمنِّي نفسه بالطواف حول الكعبة، والذبح لأصنامها.

وبينما ثمامة في بعض طريقه قريبًا من المدينة نزلت به نازلة لم تقع له في حسبان، ذلك أن سريَّة من سرايا رسول الله ﷺ كانت تدور حول المدينة فظفرت بثمامة وهي لا تعرفه، وأتت به المدينة، وشدته إلى سارية من سواري المسجد منتظرة أن يقف النبي الكريم بنفسه على شأن الأسير، وأن يأمر فيه بأمره.

ولما خرج النبي ﷺ إلى المسجد، وهَمَّ بالدخول فيه رأى ثمامة مربوطًا في السارية، فقال لأصحابه: «أتدرون من أخذتم؟ فقالوا: لا، يا رسول الله.

فقال: «هذا ثمامة بن أثال الحنفي فأحسنوا معاملته». وكانوا يطعمونه ويتلطفونه تأليفًا لقلبه لعله يسلم، فكان ﷺ يقول له: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي يا محمد خير، فإن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه ﷺ يومين على حاله، ثم قال في اليوم الثالث: أطلقوا ثمامة. فأطلقوه.

غادر ثمامة مسجد رسول الله ﷺ ومضى حتى إذا بلغ نخلاً في أطراف المدينة فيه ماء أناخ راحلته عنده وتطهر من مائه فأحسن طهوره، ثم عاد إلى المسجد وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، ثم قال: يا رسول الله، والله! ما كان على ظهر الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، وقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ. والله ما كان دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إليَّ. والله! ما كان بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليَّ.

ثم قال: لقد كنت أصبت في أصحابك دمًا؛ إذ قتلت رجالاً منهم، فما الذي توجبه عليَّ؟ فقال ﷺ: يا ثمامة، إن الإسلام يجب ما قبله، فانبسطت أسارير ثمامة، ثم قال: «والله لأصيبن من المشركين أضعاف ما أصبت من المسلمين، ولأضعن نفسي وسيفي ومن معي في نصرتك ونصرة دينك.

ثم استأذن في أداء العمرة على وفق ما شرعه الله - تعالى - فأذن له، ومضى ثمامة إلى غايته، حتى إذا بلغ بطن مكة وقف ينادي بأعلى صوت: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. سمعت قريش صوت التلبية فغضبت، ولكنهم عرفوا أنه ثمامة بن أثال ملك اليمامة، وخافوا أن ينالوه بأذى فيقطع عنهم المئونة.

وأدى - رضي الله عنه - عمرته على الوجه المطلوب على مرأى ومسمع من قريش، وأهانهم وأذلهم بعزة الإسلام، ولما أكمل عمرته نظر إلى قريش، ثم

قال: والله! لن يصلكم بعد اليوم حبة واحدة حتى تتبعوا دين محمد ﷺ، وحاصر قريشًا حصاراً اقتصاديا عظيمًا، فارتفعت الأسعار وفشا الجوع واشتد الكرب، حتى خافوا على أنفسهم وأولادهم أن يموتوا من شدة الجوع، فكتبوا إلى النبي ﷺ وقالوا: يا محمد! إن عهدنا بك أنك تصل الرحم، وتحض على ذلك، وهذا أنت قد قطعت أرحامنا فقتلت الآباء بالسيف، وأمت الأبناء بالجوع، وإن ثمامة قد قطع عنا المؤنة فإن رأيت أن تكتب إليه أن يبعث إلينا ما نحتاج إليه فافعل، فكتب عليه الصلاة والسلام إلى ثمامة يطلق لهم ميرتهم فأطلقها.

وبقي ثمامة - رضي الله عنه - ما امتدت به الحياة وفيا لدينه الذي شرفه الله - تعالى - به حافظًا لعهد نبيه ﷺ.

فلما مات النبي - عليه الصلاة والسلام -، وأخذ الكثير من الناس يرتد ويخرجون من دين الله أفواجًا، وقف ثمامة في بني حنيفة قائلا: يا بني حنيفة إياكم وهذا الأمر المظلم الذي لا نور فيه، إنه والله! لشقاء كتبه الله - عز وجل - على من أخذ به منكم، وبلاء على من لم يأخذ به، وحذرهم من طاعة مسيلمة الكذاب، فقال: يا بني حنيفة، لا يجتمع نبيان في وقت واحد، وإن محمداً رسول الله لا نبي بعده، ولا نبي معه، ثم قرأ قوله الله تعالى: ﴿حمٓ ① تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ② غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١ - ٣].

ثم قال: أين كلام الله هذا من كلام مسيلمة: يا ضفدع نقي ما تنقين، لا الشراب تمنعين، ولا الماء تكدرين» ثم انحاز بمن بقي معه على الإسلام، ومضى يقاتل المرتدين، جهاداً في سبيل الله - تعالى - وإعلاء لكلمته، فجزاه الله عن الإسلام خير الجزاء، ورفع درجته في المهديين[1].

---

(١) صور من حياة الصحابة: ٥٧-٦٣.

وقد أخرج البخاري ومسلم قصة ثمامة ـ رضي الله عنه ـ في الحديث الذي رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له : ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج النبي ﷺ فقال : «ما عندك يا ثمامة؟» قال : عندي خير يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر . . . » الحديث كما سبق .

وقد انضم في محاربته للمرتدين إلى العلاء بن الحضرمي الذي أرسله الصديق إلى أهل البحرين وبها الحطم بن ضبيعة، فقال ثمامة لقومه : إني ما أرى والله! أن أقيم مع هؤلاء المرتدين، وقد أحدثوا في دين الله تعالى، وإن الله ضاربهم ببلية لا يقومون بها ولا يقعدون، وما أرى أن أتخلف وأنتم معي عن هؤلاء ـ يعني ابن الحضرمي وأصحابه ـ، وهم مسلمون وقد عرفنا الذي يريدون، وقد مروا بنا، ولا أرى إلا الخروج معهم؛ فمن أراد منكم الخروج فليخرج، فخرج ـ رضي الله عنه ـ عضداً ومدداً للعلاء وأصحابه، فكانوا قوة فتت في عضد أعدائهم، وشهد مع العلاء قتال الحطم، فانهزم المشركون، وقُتلوا وقسَّم العلاء الغنائم، ونفل رجالاً، فأعطى أحد المسلمين خميصة الحطَم، فاشتراها ثمامة منه .

فلما رجع بعد هذا الفتح المبين رأى بنو قيس بن ثعلبة ـ قوم الحطم ـ خميصته على ثمامة، فقالوا : أنت قتلت الحطم؟ قال : لم أقتله، ولكني اشتريتها فقتلوه .

وذهب ـ رضي الله عنه ـ ضحية العصبية الذميمة، وسقط مجاهداً في سبيل الله بلسانه وسيفه وماله، ونرجو أن يكون من الشهداء الأبرار، الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة : ١٥٤] .

وها نحن نسجله في سجل الصالحين، ونترضى عليه مع الصحابة

السابقين. أنقذه الله بالإسلام ووفقه بصحبة الكرام، وحفظ جوارحه من الآثام، وما إسلامه إلا توفيقًا من الله تعالى، وهداية له، ثم ثمرة من ثمرات حسن التعامل، ولين الجانب والصدق في الدعوة من الرسول ﷺ.

ولقد جعل الله في خروج ثمامة من دياره للعمرة خيراً مما كان في حسبانه. وقد كره الأسر والحبس في بادئه إلا أنه حمد الله على ذلك، إذ حبس الكفر عنه، وأطلق في رياض الإسلام، وحبست عنه المعاصي، وأطلقت له الطاعات، فسلام عليه يوم أسلم ويوم تاب، ويوم ثبت أيام الردة، ويوم مقت العصبية الجاهلية، ويوم خرج مجاهدا في سبيل الله تعالى، ويوم قتل في سبيل الله[١].



(١) للاستزادة من أخبار ثمامة: فتح الباري ٩/ ١٥٠، وأسد الغابة ١/ ٢٩٤-٢٩٥، وصور من حياة الصحابة ٥٦-٦٣، ودلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٧٨-٨١، والإصابة ١/ ٢٠٣، والله يعصمك من الناس ١٥٢-١٦٧، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ٤٦٧-٤٦٨.

كرامة أكرمني الله بها

اشتهر العرب بالفخر بالأحساب والطعن في الأنساب، فعاشوا بذلك شريعة الغاب التي تقوم على الظلم والجور، وأخذ حقوق الغير بغير حق، فأكرم الله البشرية بدين الإسلام؛ الذي أبطل موازين الجاهلية، ووضع ميزان العدل والمساواة. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ بل وحرم الفخر بالحسب، والطعن في النسب، فقد روى أبو مالك الأشعري-رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**».

وقال النسائي: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب» رواه مسلم.

وممن كان يفتخر به قومه ويعظمونه عروة بن مسعود الثقفي؛ فهو أحد الرجلين الذين قال الكفار: لولا نزل عليه القرآن بدلا من رسول الله ﷺ، يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وقد عاش معظم حياته في الظلام الدامس، همه رضى الناس وشرب الكأس، له مكانة عند قومه، وتقدير عند جيرانهم من القبائل، أرسلته قريش إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية، فقال: يا محمد! أرأيت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فوالله! إني أرى وجوها وأرى أوباشًا من الناس خلقاء أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه، قال عروة: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده! لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، وجعل يكلم النبي ﷺ وكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن

شعبة عند رأس رسول الله ﷺ، ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضربها المغيرة بنعل السيف، وقال: أخّر يدك وإلا قطعتها، قال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة: قال: أي غدر، أولست أسعى في غدرتك.

وكان المغيرة قد صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم، وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فأخذ عروة يرمق أصحاب رسول الله ﷺ وعلاقتهم به، فرجع إلى أصحابه، وقال: يا قوم، والله! لقد وفدت على الملوك: على قيصر وكسرى والنجاشي، ما رأيت ملكا يعظمه أصحابه مثل تعظيم أصحاب محمد له، والله ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف أحدهم، فدلك بها وجهه، وإذا أمر أمراً ابتدروه، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، لا يحدون إليه نظراً. يا قوم! لقد عرض عليكم خطة فاقبلوها.

ووقع الإيمان في قلب عروة مما رأى من التعامل الجليل الذي يقوم به الصحابة مع قائدهم ومعلمهم، وعلم أن الملك الحقيقي هو ملك القلوب، لا ملك الأبدان.

ومرت الأيام سريعة وجاءت الوفود تبايع رسول الله ﷺ على الإسلام، وتحركت فطرة الإسلام في قلب عروة واشتاق للدخول في دين الله - تعالى -، فقدم على رسول الله في رمضان، سنة تسع للهجرة، فأسلم وحسن إسلامه، وقال: يا رسول الله! أريد أن أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام، قال له: إنهم قاتلوك. قال عروة: يا رسول الله! أنا أحب إليهم من أبكارهم؛ لو وجدوني نائمًا ما أيقظوني، وكان محببًا فيهم مطاعًا.

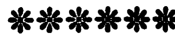
فخرج يدعو قومه إلى الإسلام، لعله أن يقوم يوم القيامة بواحد أو أكثر يكونون خلفه، وينال ثواب إسلامهم، وما عمله هذا إلا دلالة على إخلاصه؛ إذ أحب لقومه ما أحب لنفسه، ومن محبته لهم أن يذوقوا طعم الإيمان

وحلاوته، وأن يسعدوا بهذا الدين في الدنيا ليسعدوا برضوان الله في الآخرة.

مضى -رضي الله عنه- يحمل هم هذا الدين، وهم الداعية المخلص، فلما أشرف على عُلّية له أو بدا لهم من جبل عال أخذ يدعو قومه، ويقول: أسلموا تسلموا، تابعوا محمداً، ادخلوا في دين الله تذوقوا النجاة، اتركوا دين الآباء والأجداد، سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض، فلما سمعته ثقيف -وهم عباد اللات ولا يريدون إغاضتها ولا يرغبون عنها بديلاً- قالوا له: يا عروة، كف لسانك، واتركنا وشأننا فإننا لن نطيعك، فأعاد عليهم الموعظة والنصيحة -رجاء إسلامهم- فتعاونوا عليه وأخذوا يرمونه بالنبل والحجارة من كل مكان حتى خَرَّ صريعًا مضرجًا بالدماء، فتزعم بنو مالك أن الذي قتله رجل منهم، يقال له: وهب بن جابر، فقيل لعروة وهو في الاحتضار: ما ترى في دينك الذي دخلت فيه؟ قال: كرامة أكرمني الله -تعالى- بها، وشهادة ساقها الله إليَّ، فليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم فدفنوه معهم.

ورحل من الدنيا بإسلامه الذي سلّم الله به قلبه من النفاق، وجوارحه من الإلحاد، وماله من الحرام، وسلم الله به قبره من العذاب، ونرجو أن يحشر في زمرة السابقين الأولين، فلعل عمله وإن كان قليلاً يبارك فيه ليزن الجبال الراسية، ولعل الله -تعالى- أن يرفع درجته وأن يبدل سيئاته حسنات.

فقد وجد لذة الإيمان التي حرمها الملايين من الناس، وعاش فترة وجيزة من حياته حميداً، ونسأل الله أن يجعله مات شهيداً، وأن يجزيه عن الإسلام والمسلمين خيراً.



ردة عن الإسلام

كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، وأحيانًا يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»، فقد روى أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» رواه الترمذي والحاكم.

وانفرد الترمذي بروايته عن شهاب الجرمي، وانفرد الحاكم بروايته عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهم جميعًا -، وسنده صحيح. وروى النواس بن سمعان - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك» رواه ابن ماجه والحاكم بسند صحيح.

وهذا القول ممن عصمه الله، وحفظ له سمعه وبصره ولسانه ويده وقدمه وقلبه، وحفظ حياته كلها ليعبد ربه حتى يأتيه اليقين، وفي هذا الهدي النبوي، تعليم للأمة الراشدة بأن تداوم الاتصال بربها - تعالى -، وإعلام لها بأحوال القلب وكثرة تقلبه، وبيان لكثرة الفتن، فإن الرجل يمسي مؤمنا ويصبح كافراً، ويصبح مؤمنا ويمسي كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا.

روى أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إن بين يدي الساعة فتنًا كقطع الليل المظلم؛ يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسي كافراً، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافراً، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، فكسروا قسيكم، وقطّعوا أوتاركم، واضربوا سيوفكم بالحجارة، فإن دُخل على أحد منكم بيته، فليكن كخير ابني آدم» رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجة، والحاكم بسند صحيح.

ومما يذكر كما سبق أن الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - قال لابنه عبد الله، عندما سأله وقال: يا أبتي متى نستريح؟ قال: يا بني! لا نستريح حتى نضع

أول قدم في الجنة، ونترك الصراط خلف ظهورنا، أما قبل ذلك فأنت في ابتلاء واختبار، وخوف ووجل ولا تدري أين المصير؟ وما العمل الذي قدمت؟ هل قبل أم لا؟ وهل صلح أم لا؟ وكم يخشى الإنسان على نفسه أن تضل أو تزلَّ، أو ترتد أو تخترم بلا إسلام قبل الموت، فتكون العاقبة خزي الدنيا والآخرة.

وقد أورد المؤرخون في سيرة عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان الأول قصة ردته عن الإسلام، والتحاقه بالنصرانية، فلقد كان من السابقين الأولين إلى الإسلام، وهو ممن أذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، ليكونوا في جوار الملك الصالح «النجاشي»: ملك الحبشة الذي سخره الله لنصرة المسلمين، والدفاع عنهم ومحبتهم، وفتح قلبه للإيمان، ونوّر صدره للإسلام، وفي جواره أمن المسلمون على أنفسهم وعلى أموالهم، واستقرت أحوالهم، ووجدوا لذة في العبادة؛ إذ يؤدونها بسكينة وخشوع، وأمن وخضوع.

وفي ليلة من الليالي رأت أم حبيبة - رضي الله عنها - فيما يراه النائم أن زوجها عبيد الله بن جحش يتخبط في بحر لجيّ، غشيته ظلمات بعضها فوق بعض، وهو بأسوء حال، فهبت مذعورة مضطربة وأسرت ذلك في نفسها؛ إذ لم تخبر به أحدا؛ لكن رؤياها تحققت فلم تمض ليلة واحدة إلا وزوجها عبيد الله بن جحش قد تنصر، ثم أكب على حانات الخمارين يعاقر أم الخبائث، فلا يرتوي منها ولا يشبع، وخيَّر زوجته أم حبيبة بين أمرين، أحلاهما مر، قال لها: إما أن أطلقك، وإما أن تتنصري معي، فوجدت نفسها - رضي الله عنها - بين ثلاث؛ إما أن تستجيب لزوجها الذي جعل يلح في دعوتها إلى النصرانية وبذلك ترتد عن دينها - والعياذ بالله - وتبوء بخزي الدنيا والآخرة، وهذا أمر لا تفعله حتى ولو مشط لحمها عن عظمها بأمشاط من حديد؛ لأن الإسلام يعلو ولا يُعْلى عليه، ويدخل فيه ولا يخرج منه؛ وإما أن تعود إلى بيت أبيها في

مكة، وهو لا يزال قلعة للشرك فتعيش فيه مقهورة مغلوبة على دينها، وإما أن تبقى في بلادالحبشة وحيدة شريدة، لا أهل لها ولا وطن ولا معين.

فآثرت - رضي الله عنها - ما فيه رضى الله - عز وجل - على ما سواه، وعزمت على البقاء في الحبشة حتى يأتي الله - تعالى - بالفرج من عنده، وقد صبرت فكان النصر لها مع صبرها، والفرج لها مع كربها، واليسر لها مع عسرها. والله حكيم رحيم لا يجمع على عبده عسرين؛ بل يجعل مع العسر يسرين.

وقد وعد - تعالى - أن من اتقاه جعل له مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيراً منه، وهذا الذي حصل لأم حبيبة فما إن انتهت عدتها إلا ورسول الله ﷺ يخطبها لنفسه، فَعُقد له عليها، وأصبحت أمًّا لكل مؤمن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وزوجة لرسول الله - عليه الصلاة والسلام - في الدنيا والآخرة.

أما عبيد الله بن جحش، فبقي على نصرانيته وكفره وإلحاده بقية حياته حتى مات. وكان يعيِّر المسلمين ويقول: أبصرنا طريق الهداية وأصابكم العمى منه - يعني بذلك النصرانية - واستزله الشيطان، وزين له دين النصارى، ورضي بالكفر بعد الإسلام، وبالغواية بعد الهداية، وبالطرد من رحمة الله بعد القرب[1].

وكم بينه وبين أخيه - عبد الله - من البون الشاسع؛ فعبد الله هو الذي يقول لسعد بن أبي وقاص يوم أحد: تَمنَّ يا أبا إسحاق، قال سعد: يا رب إذا لقيت العدو فلقّني رجلاً شديداً بأسه، شديداً غضبه، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وآخذ سلبه، فأمَّن عبد الله بن جحش على هذا الدعاء،

---

(١) البداية والنهاية ٤/ ١٤٥، وصور من حياة الصحابة ٣٢٧-٣٢٨، ومختصر سيرة الرسول ﷺ ٤٣.

ثم قال: اللهم ارزقني رجلاً شديداً غضبه، شديداً بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً، قلت: فيم جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت.

قال سعد: لقد كانت دعوته خيراً من دعوتي، فلقد رأيته آخر النهار وقد قتل ومثّل به وإن أنفه وأذنه معلقان على شجرة بخيط[١].

فنسأل الله الثبات على الحق، وأن يحفظ لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، ودنيانا التي فيها معاشنا، وآخرتنا التي فيها معادنا، ونسأل الله أن لا يجعل مصيبتنا في ديننا، وأن يقبضنا على الإسلام غير مفتونين ولا ضالين.

*****

---

(١) صور من حياة الصحابة: ٨٦.

إخوان الشياطين

جنود الشيطان في الأرض كثير، يبنون حياتهم عل الأوهام والتلبيس والشعوذة، ويجدون من الناس ضعاف نفوس، يوافقونهم فيما يريدون، ويصيدونهم بالتخويف والترويع، وممن أزله الشيطان واتخذه داعية سوء ينفث سمومه، وينشر شروره: الأسود العنسي ـ سود الله وجهه ـ، واسمه: عيهلة بن كعب بن عوف العنسي المذجحي، أسلم يوم أسلم أهل اليمن، وبقي في الإسلام فترة وجيزة، ثم ارتد عن الإسلام عندما علم بمرض رسول الله ﷺ، وادعى أنه نبي، وكان كاهنًا مشعوذًا، أسود النفس، مستطير الشر، شديد القوة، ضخم الهيكل، فصيحًا، داهية، قادراً على اللعب بعقول العامة بأباطيله، وكان لا يظهر للناس إلا مقنّعًا، لإحاطة نفسه بهالة من الغموض والهيبة.

وكان النفوذ في اليمن إذ ذاك للأبناء، وعلى رأسهم: فيروز الديلمي صاحب رسول الله ﷺ، والأبناء: اسم يطلق على جماعة من الناس آباؤهم من الفرس الذين نزحوا من بلادهم إلى اليمن وأمهاتهم من العرب، وقد كان كبيرهم: باذان ـ عند ظهور الإسلام ـ ملكا على اليمن من قبل كسرى عظيم الفرس، فلما استبان له صدق رسول الله ﷺ وسمو دعوته خلع طاعة كسرى، ودخل هو وقومه في دين الله، فأقره النبي ﷺ على ملكه، وظل فيه إلى أن مات قبيل ظهور الأسود العنسي بزمن يسير.

وكانت ردة الأسود العنسي فتنة لأهل اليمن وشر لأكثر القرى المحيطة بها، وكان من أول المرتدين عن الإسلام؛ إذ ردته في حياة النبي ﷺ، وهو من الثلاثين الكذابين الذين يدّعون النبوة.

فقد روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم

الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة، ولا تقوم الساعة حتى يُبعث دجالون كذابون قريبًا من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله» متفق عليه.

وعن ثوبان - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد الأوثان، وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابًا كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي»** رواه الترمذي والحاكم بسند صحيح.

وكان أول من استجاب لدعوة الأسود العنسي قومه - بني مذحِج - فوثب بهم على صنعاء، وقتل واليها، شهر بن باذان، وتزوج بامرأته آذاد، ثم استولى على المناطق الأخرى، فجعلت تتهاوى تحت ضرباته بسرعة مذهلة، حتى دانت له البلاد الواقعة ما بين حضرموت إلى الطائف، وما بين البحرين والأحساء إلى عدن.

وكان مما ساعد الأسود العنسي على خداع الناس واستمالتهم إليه دهاؤه الذي لا حدود له، فقد زعم لأتباعه أن له ملكا ينزل عليه بالوحي وينبئُه بالمغيبات، وكان يؤكد هذا الزعم بجواسيسه الذين نشرهم في كل مكان ليقفوا على أخبار الناس، وينفذوا إلى أسرارهم، ويتعرفوا إلى مشكلاتهم، ويكشفوا عما يختلج في صدورهم من الأماني والآمال، ثم يأتوه بها سرا.

ما كادت تبلغ النبي ﷺ أنباء ردة الأسود العنسي ووثوبه على اليمن، حتى سيَّر نحو عشرة من أصحابه برسائل إلى من يتوسم فيهم الخير من أصحاب السابقة في اليمن، يحضهم فيها على مواجهة هذه الفتنة العمياء بالإيمان والحزم، ويأمرهم بالتخلص من الأسود العنسي بأية وسيلة، فما من أحد بلغته رسالة النبي ﷺ إلا لبى دعوته، وهب لإنفاذ أمره، وكان أسبقهم فيروز الديلمي - رضي الله عنه -، الذي دبّر خطة جليلة لاغتيال الفاجر والقضاء عليه.

يقول فيروز مضيت أنا وابن عمي «داذويه» إلى قائد جيش الأسود، واسمه: قيس بن عبد يغوث، وأبلغناه رسالة رسول الله ﷺ، فانشرح صدره لنا ولدعوتنا، وتعاهدنا نحن الثلاثة على أن نتصدى لدعوة المرتد الكذاب من الداخل، بينما يتصدى له إخواننا من الخارج، واستقر رأينا على أن نشرك ابنة عمي «آذاد»، التي تزوج بها الأسود بعد قتل زوجها.

مضيت إلى قصر الأسود والتقيت بابنة عمي، وقلت لها: يا بنت العم، لقد عرفت ما أنزله هذا الرجل بك وبنا من الشر والضر، وهذا كتاب رسول الله ﷺ إلينا خاصة، وإلى أهل اليمن عامة، يدعونا فيه إلى القضاء على هذه الفتنة، فهل لك أن تعينينا على قتله؟ فقالت: نعم، سنتعاون على قتله، فو الذي بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً! ما ارتبت في ديني طرفة عين، وما خلق الله رجلاً أبغض إليّ من هذا الشيطان، ووالله! ما علمته إلا فاجراً أثيماً. قال فيروز: وكيف لنا بقتله؟ فقالت: إنه متحرز متحرس لنفسه، وليس في القصر مكان إلا والحرس محيطون به، غير هذه الحجرة المهجورة؛ فإن ظهرها إلى مكان كذا وكذا على البرية، فإذا أمسيتم فانقبوها في عتمة الليل، وستجدون في داخلها السلاح والمصباح، وستجدونني في انتظاركم، ثم ادخلوا عليه واقتلوه.

قال فيروز: ولكن نقب حجرة في مثل هذا القصر ليس بالأمر الهين، فقد يمر إنسان فيهتف ويستصرخ الحرس، فيكون مالا يحمد عقباه، فقالت: صدقت، ولكم عندي رأي، ترسل إلي غدا رجلاً تأتمنه على هيئة عامل فآمره بنقب الحجرة من الداخل، حتى لا يبقى من النقب إلا شيء يسير، ثم تتمونه أنتم في الليل من الخارج، بأيسر الجهد.

ونفذت الخطة الصالحة للقضاء على الكفر والإلحاد؛ إذ دخل فيروز وصاحب له مع النقب، وولجا إلى داخل الحجرة، وتناولا السلاح. وأضاءا المصباح ومضيا نحو المقصورة، التي بها عدو الله وأشارت زوجته إلى مكان

نومه، فدخلا عليه وهو يغط في نومه، وذبحاه بالشفرة كما تذبح البهيمة، فأخذ يخور كما يخور الثور، فلما سمع الحرس خواره أقبلوا على المقصورة وقالوا: ما هذا؟ قالت زوجته: انصرفوا راشدين، فإن نبي الله يوحى إليه، فانصرفوا ثم ألقي برأسه من فوق أسوار القصر، فلما رآه أنصاره، وهنوا وذهبت ريحهم، ولما أبصره المؤمنون كبروا، وكروا على عدوهم. وقضي الأمر في ليلة من أسعد الليالي عند المؤمنين؛ إذ ظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا.

وانتقل الأسود إلى ربه بوجه أسود، وبمنهج أسود، وبصحيفة سوداء ليبوء بإثم دنياه وإثم آخرته، وليكون قائدًا لشياطين الإنس الذين أفقدهم الأنس، وأوقعهم في الرجس، وقادهم للسلاسل والحبس. وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[١].

*****

(١) صور من حياة الصحابة: ٤٤٨-٤٥٤، والتاريخ الإسلامي: ٧٣، ومختصر السيرة: ٤٧٧-٤٧٨.

يبعث ملبيًا

أكمل الله ـ تعالى ـ هذا الدين، وأتم النعمة، ورضي لنا الإسلام دينًا. وكان الإعلان بإكمال الدين وتمام النعمة في يوم مشهود؛ حضره أكثر من مائة ألف مسلم على صعيد واحد، بلباس واحد، يعبدون ربا واحدًا، وتحت لواء واحد، وقيادة واحدة؛ هي قيادة الرسول ﷺ، يقتدون به في قوله وفي فعله، وفي تعامله، يرون فعله فيمتثلون بلا تردد، ويسمعون كلامه فيلتقطونه كما يلتقطون أطيب الثمر.

وفي يوم عرفة سنة عشر من الهجرة، والناس يهللون ويكبرون ويسبحون، ويذكرون الله على كل حال، وقف أحد الصحابة مع أهل الموقف، وركب دابته ليغيِّر مكانه ويقترب من الرسول ﷺ متجهًا إلى الصخرات ليحظى بالأجر العظيم، وعفو الرب الرحيم، وبينما هو يتجول على صعيد عرفة ليزداد إيمانًا ويتعرض لنفحات ربه، إذا براحلته تلقيه من على ظهرها؛ لأنه كان مشغولا بربه ناسيًا من نفسه، يحدوه الشوق إلى جنة عرضها السموات والأرض، ويهزه الحنين إلى رضوان الله، والخروج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

وما أن وصل إلى الأرض حتى انكسرت عنقه وفارق الحياة في يوم حرام وشهر حرام، وبلد حرام، فجمع الله ـ تعالى ـ له أسباب مضاعفة الأجر من شرف الزمان؛ إذ مات في عشر ذي الحجة. وقد روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من أيام، العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام «أي العشر» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء»** رواه البخاري، ومات في يوم عرفة، وقد روي أنه أفضل الأيام؛ لأنه يوم الحج الأكبر، ويوم تكفير السيئات، ويوم عتق الرقاب، ويوم دحر وصِغُر الشيطان،

ويوم دنو الرب والمباهاة بأهل الموقف؛ فقد روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة؛ فيقول: ما أراد هؤلاء» رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه.

وجمع الله له شرف المكان؛ إذ هو في البلد الحرام الذي أقسم به في موضعين من كتابه، قال تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، وقال تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١]، وهو أحب البلاد إلى الله ـ تعالى ـ، وأحب البلاد إلى رسوله ﷺ؛ فعن عبد الله بن عدي أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته بالحَزْورة من مكة يقول: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أُخْرجت منك ما خرجت» رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه بسند صحيح.

وجمع له شرف العامل، إذ هو من الأمة المفضلة المختارة على جميع الأمم، فحاز على الفضائل من جميع جوانبها، ولقي ربه ـ تعالى ـ بإحرامه وإخلاصه وإجابة دعوته، متجردًا عن الدنيا وعن زخارفها، ورضي منها بالإزار والرداء، وترك الأهل والمال والولد.

وعلم ﷺ بخبر هذا الرجل فقال: «اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبه، ولا تمسوه طيبًا، ولا تخمروا رأسه، ولا تحنطوه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيًا» رواه البخاري ومسلم.

ومضى إلى ربه ـ تعالى ـ بتجارة رابحة، خفيف الحمل، صالح العمل، على خوف ووجل من الله عز وجل، فيا لها من سعادة عظيمة أن يقبض العبد على عمل صالح، وقبضه على عمل صالح من عاجل بشراه، ليظهر بصلاحه بين الخلائق.

وكم يخشى الإنسان أن يقبض وهو على عمل سيئ، فقد كان مالك بن

دينار ـ رحمه الله ـ يقول: والله! لو استطعت أن لا أنام ما نمت، فقيل له: لماذا يا أبا يحيى؟ قال: أخشى أن يأتيني ملك الموت، وأنا نائم، ولا أريد أن يأتيني إلا وأنا على عمل صالح.

فهل من قلوب واعية وآذان صاغية تحاسب أنفسها وتراقب ربها، لتداوم العمل الصالح خشية أن يأتيها الأجل وهي على معصية الله؟ فكم من الناس قبضوا وهم ينظرون إلى الحرام ويسمعون الحرام ويتعاملون بالحرام؛ فعضوا أصابع الندم وقالوا: ياليتنا نرد ولا نكذب، وقالوا: يا حسرتنا على ما مضى، وقالوا: لو أن لنا كرة فنكون من المحسنين، ولكن هيهات هيهات؛ مد الله لهم في الأجل، وخفف عليهم العمل، ولكن الغفلة سيطرت عليهم، والإعراض استولى عليهم، فلا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً.

وإذا كان هذا الصحابي مات وهو محرم يلبي، فإن الذي نقل خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع إلى أهل الموقف ـ بصوته الجهوري، قد ترك الإسلام ومات على النصرانية.

وأقصد بذلك ربيعة بن أمية بن خلف: رزقه الله صوتًا مسموعًا، فكان بمثابة المكبر الذي يبلغ الخطبة إلى أهل الموقف عمومًا، ولكنه لم يبق على إسلامه؛ إذ تنصر في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، وخلع عنه لباس الإسلام، ولبس ثوب النصرانية، وخرج من ولاية الله ـ تعالى ـ إلى ولاية الشيطان، ومن صحبة الرسول ﷺ إلى صحبة إبليس، ومن شرف التوحيد إلى رجس الوثنية، وعاش يتخبط في الظلام، حتى نقل إلى قبر مظلم ويحشر إلى نار مظلمة وبئس المصير.

وقد حدثني من أثق في كلامه أن امرأة بقيت طيلة عمرها بلا حج وأهلها يعرضون عليها الحج كل عام، وكبرت حتى رق عظمها وهزل جسمها، وهي لا

تزال مطالبة بركن الحج، وفي عام ١٤١٥هـ عرض عليها أحد أقاربها الحج لتكمل دينها، فوافقت على ذلك بعد إلحاح شديد وتركت زوجها المسن المريض، وظنت أنها لا تدركه حيا. وأدت فرضها ثم عادت إلى بلدها، وما بقيت إلا أيامًا معدودة، ثم قبضها الله - تعالى - إليه بعد أداء نسكها، وإكمال إسلامها، ولعلها عادت من حجها كيوم ولدتها أمها، ولعلها أن تلقى ربها بلا سيئة، فتقدس الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن، فيكون.

******

العفو عند المقدرة

بعث الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ ليتمِّم مكارم الأخلاق، وليكون قدوة حسنة يقتدى به، فتعلَّم الناس من قوله، وتعلموا من فعله، وتعلموا من أخلاقه.

وكفاه فخراً وزاده شرفًا أن يزكّيه ربه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. ومن أجلّ صفاته عدم الانتصار للنفس، وعدم الانتقام من الناس، فإن الله ـ تعالى ـ بعثه رحمة، وما بعثه نقمة، وبعثه مؤلفًا، وما بعثه معنفًا، جمع الله به شمل الأمة، وكشف به الغمَّة، وداوى به القلوب المريضة.

وفي غزوة «الفتح» المجيدة ظهر الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا، فلقد تهاوت الأصنام على وجوهها إلى غير رجعة، ودوّى صوت الحق بالأذان من على سطح الكعبة، ليعلو التوحيد على الشرك، وتسود الهداية على الضلالة، ويرتفع الحق على الباطل، وينتشر العدل، ويضمحل الظلم.

وفي هذه الغزوة أمر الرسول ﷺ بإهدار دم عدة أشخاص من الكفار لنيلهم من الإسلام، وصرفهم جهودهم في حربه، وأذيتهم لعباد الله الصالحين، وكان من هؤلاء الأشقياء: عكرمة بن أبي جهل الذي تربى في بيت الإلحاد والكفر، ورضع الحقد والبغضاء؛ أبوه هو رأس الشرك، وهو عدو الله وعدو رسوله ﷺ، وعدو الإسلام والمسلمين؛ بل هو فرعون هذه الأمة.

وقد علَّم ابنه عكرمة أذية المسلمين من الصغر، وأخذه معه في جيش الكفر والإلحاد يوم بدر ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متمٌّ نوره ولو كره الكافرون. وانتهت المعركة بهزيمة الكفار وبقتل أبي جهل، وقد شاهده ابنه ورماح المسلمين تنهل من دمه، وسمعه وهو يطلق آخر صرخة من شفتيه.

عاد عكرمة إلى مكة بعد أن خلف جثة والده في بدر؛ فقد أعجزته الهزيمة عن أن يظفر بها ليدفنها في مكة، وأرغمه الفرار على تركها للمسلمين، فألقوها

في قليب بدر .

ومنذ ذلك اليوم أصبح لعكرمة بن أبي جهل مع الإسلام شأن آخر ، فقد كان يعاديه في بادئ الأمر حميَّة لأبيه ، فأصبح يعاديه اليوم ثأرًا له .

ومن هنا انبرى عكرمة ونفرٌ ممن قُتِل آباؤهم في بدر ، يوقدون نار العداوة في صدور المشركين على محمد ، ويضرمون جمرة الثأر في قلوب الموتورين من قريش ، حتى كانت غزوة أحد . وشارك عكرمة في أحد ، وكان على ميسرة فرسان قريش ، وأبلى بلاءً عظيمًا ، وعاود الكَرَّة في الخندق ؛ لينال من المسلمين فلم ينجح .

وفي يوم الفتح رأت قريش ألا قِبَل لها بمحمد وأصحابه ، فقررت أن تخلي له السبيل إلى مكة ، وقد أعانها على اتخاذ قرارها هذا ما عرفته : من أن الرسول ﷺ أمر قواده ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم من أهل مكة ، لكن عكرمة ونفرًا معه خرجوا على إجماع قريش ، وتصدوا للجيش الإسلامي العظيم ، فهزمهم خالد بن الوليد في معركة صغيرة قتل فيها من قتل ، ولاذ بالفرار من أمكنه الفرار ، وكان منهم عكرمة ، وفي هذا الفرار يقول حماس بن قيس بن خالد ، وقيل : الرعاش الهذلي :

إنك لو شهدت يوم الخندمه إذ فر صفوان وفر عكرمه
وأبو يزيد قائم كالمؤتمه واستقبلتهم بالسيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجمجمه ضربًا فلا يسمع إلا غمغمه
لهم نَهِيتٌ خلفنا وهمهمه لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه

فلما دخل رسول الله ﷺ مكة أُسْقط في يد عكرمة ، فمكة لم يبق له فيها قرار ، والرسول ﷺ عفا عما سلف من قريش تجاهه ، لكنه استثنى منهم نفرًا سماهم ، وأمر بقتلهم ، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة ، ومنهم عكرمة - كما سلف - لكنه تسلل متخفيًا من مكة ويمم وجهه شطر اليمن ؛ إذ لم يكن له ملاذ

إلا هناك.

عند ذلك مضت زوجة عكرمة ـ وهي أمُّ حكيم ـ إلى منزل رسول الله ﷺ، وأعلنت إسلامها وبايعته على أن لا تشرك بالله شيئًا، ولا تسرق، ولا تزني، ولا تقتل، ولا تأتي ببهتان، ولا تعصي في معروف، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وبعد البيعة قالت: يا رسول الله! قد هرب منك عكرمة إلى اليمن خوفًا أن تقتله، فأمِّنه أمَّنك الله. فقال ﷺ: هو آمن. وبهذا يتبين سعة صدره، وعظيم حلمه، وحسن خلقه، فما أعظمه من مربٍّ، و ما أجله من معلم، وما أبره من رسول، بأبي هو وأمي ﷺ.

فلما سمعت الأمان له خرجت من ساعتها في طلب زوجها حتى أدركته عند ساحل البحر، وهو يفاوض بحارًا مسلمًا على نقله إلى اليمن، فيقول النوتي «البحَّار»: أخلص حتى أنقلك. فقال عكرمة: وكيف أخلص؟ قال: تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا رسول الله. فقال عكرمة: ما هربت من مكة إلا من هذا، وفيما هو كذلك إذ أقبلت أم حكيم على عكرمة، وقالت: يا ابن عم، جئتك من عند أفضل الناس، وأبر الناس، وخير الناس، من عند محمد بن عبد الله، وقد استأمنت لك منه، فأمنك، فلا تهلك نفسك، فقال: أنت كلَّمتيه؟ قالت: نعم، أنا كلمته فأمنك، وما زالت به تؤمنه وتطمئنه حتى عاد معها.

وقد راودها عن نفسها في الطريق فأبت أشد الإباء، وقالت: إني مسلمة وأنت مشرك، فاستغرب ذلك أشد غرابة.

ووصلا إلى رسول الله ﷺ فقال عكرمة: ما الذي تدعو إليه يا محمد؟ قال: أدعوك إلى الإسلام. فقال عكرمة: والله ما دعوت إلا إلى حق، وما أمرت إلا بخير، ثم بسط وقال: إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك عبده ورسوله، ثم قال: يا رسول الله، إني والله! لا أدع نفقة أنفقتها في صد عن سبيل الله، إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالا قاتلته صدا عن سبيل الله إلا قاتلت ضعفه في سبيل الله.

ومنذ ذلك اليوم وعكرمة بارٌ بما قطع على نفسه؛ فلا تراه إلا مجاهداً في ساحات القتال، عبَّاداً قوامًا، قراء لكتاب الله، لا يصبر عن المصحف ولا عن القراءة، يضع المصحف على وجهه ويقبِّله، ويقول: كلام ربي، كلام ربي، ويبكي من خشية الله[1].

وقد ورد في بعض الروايات: أنه ركب في السفينة فأصابتهم ريح قاصف، حتى كادت تغرقهم؛ فقال أهل السيفنة لمن في السفينة من الركاب: أخلصوا لله تعالى ووحدوه، وقولوا: لا إله إلا الله، فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئًا، لا تجلب نفعًا ولا تدفع ضراً، فقال عكرمة: والله! لئن لم ينج في البحر إلا الإخلاص فلن ينج في البر سواه، ثم قال: اللهم! إن لك علي عهداً إن عافيتني وسلمتني عما أنا فيه: أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده فلا أجده إلا عفوا كريمًا، فلما نجا رجع إلى مكة ثم أسلم وصلح حاله. والله أعلم بذلك[2].

وممن أهدر دمه وقال اقتلوه ولو كان متعلقًا بأستار الكعبة عبد الله بن سعد بن أبي السرح؛ فلقد أسلم وكتب الوحي ثم ارتد عن الإسلام، ولحق بالمشركين بمكة، فلما أهدر دمه جاء إلى عثمان به عفان - رضي الله عنه - أخيه

---

(١) صور من حياة الصحابة: ١١٥-١٢٢.
(٢) البداية والنهاية: ٤/ ٢٩٧.

لأمه، فاختبأ عنده، فاستأمن له عثمان، فأمنه الرسول ﷺ، ثم أسلم وحسن إسلامه وولاه عمر بعض أعماله، وكان على ميمنة جيش المسلمين بقيادة عمرو ابن العاص الذي افتتح مصر سنة عشرين للهجرة. فلما آلت الخلافة إلى عثمان عزل عمرو بن العاص عن مصر وولَّى عليها عبد الله بن أبي السرح سنة ٢٥هـ، وأمره بغزو بلاد إفريقية فغزاها، وفتحها وحصل للجيش الإسلامي منها مال عظيم، كان قسم الغنيمة لكل فارس من الجيش ثلاثة آلاف مثقال من الذهب، وللراجل ألف مثقال. وكان معه في جيشه ذاك ثلاثة من العبادلة: عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، ثم غزا بعد إفريقية الأساود من أرض النوبة.

ثم غزا غزوة ذات الصواري، في البحر، إلى الروم، وهي غزوة عظيمة، فلما ظهرت الفتنة في عهد عثمان ـ رضي الله عنه ـ خرج إلى الرملة، وقيل: عسقلان، ودعا الله ـ تعالى ـ أن يقبضه في الصلاة.

فصلى يومًا الفجر وقرأ في الأولى بعد الفاتحة بالعاديات، وفي الثانية بالفاتحة وسورة ثم سلم عن يمينه، وقبضه الله ـ تعالى ـ قبل أن يسلم عن يساره، فيكون قد مات وهو في الصلاة رضي الله عنه وأرضاه[1].

وصاحب الإيمان يوقن أن الأمر لله من قبل ومن بعد، وأن هداية التوفيق من اختصاص ربه فمن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ولو اجتمعت الأمة على هداية بشر واحد ما استطاعوا إلا بإذن الله، ولو أرادوا إضلال واحد ما استطاعوا غير أن بذل الأسباب مطلوب حتى تلين القلوب، وتنكشف الذنوب، ويُعظَّم علام الغيوب.

*****

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٣٣-٣٥، والبداية والنهاية: ٤/ ٢٩٦، ٥/ ٣٠٤، ودلائل النبوة: ٥/ ٦٠.

قتل تحت أستار الكعبة

يستولي الشيطان على بعض القلوب ليصدها عن ذكر الله، وعن طلب رضوان الله، وعن مصاحبة أولياء الله، ويُكَرِّه إليها الإيمان، ويبغضه في قلوبها، ويحبب إليها الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الخاسرون. ويحول بينها وبين الصلاة ليقطع صلتها بالله، ويتركها معلقة مع الأهواء والشهوات، تخوض في بحر السيئات وتتلظى بنار الشبهات.

وممن استحوذ عليه الشيطان عبد الله بن خطل، وكان اسمه عبد العزى، فلما أسلم سماه الرسول ﷺ عبد الله.

وفي يوم من الأيام بعثه لجمع الصدقة من مستحقيها، وبعث معه رجلاً من الأنصار، وكان معه مولى له يشق عليه ويكلفه بالتكاليف الباهظة حتى أثقل كاهله، وأعجزه عن القيام بواجبه، وكلفه ما لا يطيق؛ لأنه يحمل قلبًا قاسيًا ويتصف بخلق سيِّئ، لا همَّ له إلا نفسه، وكأنه لم يطلع على أخلاق الرسول ﷺ؛ إذ يقول خادمه أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: «خدمته ﷺ عشر سنين، فلم يقل لشيء فعلته لم فعلته، ولا لشيء لَم أفعله لِمَ لم تفعله؛ بل كان سهلاً هينًا لينًا كريمًا».

وقد روى أبو أمامة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وبيت في أعلى الجنة لمن حَسُن خُلُقُه**» رواه أبو داود بإسناد حسن(١).

والإنسان لا يسع الناس بماله، ولكنه يسعهم بأخلاقه ولين جانبه، وكم

---

(١) صحيح الجامع الصغير: ١٤٦٤.

من قلب أقسى من الحجارة لان بالمعاملة الحسنة! إلا أن ابن خطل ما عرف ذلك، فازدادت قسوة قلبه، حتى أخرجته عن الإسلام.

وفي مرة من المرات نزل منزلا وقال لمولاه: اذبح لنا تيسًا، واصنع لنا طعامًا، ثم نام، ولما استيقظ قال لمولاه: آتنا غذاءنا، فقال له المولى: ما صنعت شيئًا. قال: ولماذا؟ قال: كلفتني ما لا أطيق، فغضب عليه غضبًا شديدًا، ثم عدا عليه وقتله، وقال: مالي وللإسلام، لا حاجة لي فيه فارتد مشركًا.

وأين هذا الرجل مع مولاه من علي بن الحسين الملقب بزين العابدين؛ إذ كان معه جارية طلب منها ماءً فجاءته بماء، وسكبته عليه، فسقط الإناء على يده، فجرحها وانكسر الإناء، فالتفت إليها، فقالت له: والكاظمين الغيظ، وذكرته بالله الواحد القهار الذي يملك الوجود كله، فتذكر الرجل وقال: كظمت غيظي. قالت: والعافين عن الناس. قال: عفوت عنك. قالت: والله يحب المحسنين. قال: أنت حرة لوجه الله تعالى.

وقد ورد أن هذه القصة وقعت لهارون الرشيد، أو لغيره، وقد تتكرر لكثرة الصالحين الذين يتفاعلون مع القرآن الكريم.

وكان لابن خطل قينتان تغنيان بهجاء الرسول ﷺ، وبأذية المسلمين، فأهدر رسول الله ﷺ دم ابن خطل، ودم قينتيه، وقال: اقتلوهم ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة، وهو بهذا ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا ينتقم لنفسه وإنما يغضب لله تعالى، ويغضب لدين الله تعالى.

فلما سمع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إهدار دم ابن خطل، وقينتيه، تسابقوا إلى قتله؛ إذ اشترك في قتله أبو برزة الأسلمي، وسعيد بن حريث المخزومي، وقيل: عمار بن ياسر، وسعيد بن حريث، وقُتلت إحدى قينتيه، وطُلب الأمان للأخرى[1].

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي: ٥/ ٦٢، والبداية والنهاية: ٤/ ٢٩٦-٢٩٧.

ومضى ابن خطل إلى ربه كافراً مرتدا؛ أخذته العزة بالإثم بعد أن دنس قلبه بالكفر، وعطل جوارحه عن الإيمان، وما نفعه تعلقه بأستار الكعبة؛ لأنه محارب للكعبة، ولرب الكعبة، وكافر حلال الدم، لا يجوز له أن يدخل المسجد الحرام، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وروى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان**» رواه البخاري.

فنسأل الله ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا من لدنه رحمة، وأن يُرنا الحق حقا وأن يرزقنا اتباعه، وأن يرنا الباطل باطلاً وأن يرزقنا اجتنابه، وأن يحبب إلينا الإيمان وأن يزينه في قلوبنا، وأن يكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وأن يجعلنا من الراشدين.

*****

تصديق الكهان

يفخر المسلم بعقيدته التي جعلها الله ـ تعالى ـ حصنًا يتحصن به، وجعلها سلاحًا يتسلح به، وجعلها قوة يجاهد بها نفسه الأمارة بالسوء؛ لعلها تطمئن وتزكو، ويجالد بها أعداءه من شياطين الإنس والجن، وقد يضعف الإيمان عند بعض الناس، وقد يزول بالكلية لهوى في النفس أو تدنس برجس.

وكانت وفاة رسول الله ﷺ امتحانًا للناس؛ فمنهم من ثبت على الحق حتى لقي ربه، ومنهم من ارتد ومات على ردته ـ والعياذ بالله ـ، ومنهم من ارتد ثم عاد إلى الإسلام مرة أخرى ومات على إسلامه؛ ومن هؤلاء: طليحة بن خويلد الأسدي، فقد شهد الخندق مع المشركين ثم أسلم سنة تسع، ووفد على رسول الله ﷺ مع الوفود، وأسلم مع قومه بني أسد، إلا أن إسلامه لم يمتد، فما إن مات رسول الله ﷺ إلا وطليحة مع المرتدين الذين تزلزل الإيمان في قلوبهم وداخلهم الكفر وانتكست قلوبهم وأظلمت صدورهم.

وتبعته قبيلته بنو أسد؛ عصبية وحميَّة جاهلية، وانضمت إليهم طيِّئ وبشر كثير، وليت الأمر اقتصر على الردة، ولكنه تعدى ذلك إذ ادَّعى النبوة وانضم معه عيينة بن حصن الفزاري في سبعمائة من قومه ـ بني فزارة ـ، وقام بمؤازرته وارتد معه عن الإسلام، وقال لقومه: والله! لنبي من بني أسد أحب إلي من نبي من بني هاشم، وقد مات محمد وهذا طليحة فاتبعوه.

فأرسل إليهما الصديق ـ رضي الله عنه ـ سيف الله المسلول «خالد بن الوليد» ـ رضي الله عنه ـ فالتقى الجيشان واصطف الناس، وطليحة ملتف في كساء له يزعم أن الوحي ينزل عليه. وجعل عيينة يقاتل فإذا ضجر من القتال جاء إلى طليحة فيقول له: أجاءك جبريل؟ فيقول: لا. فيرجع فيقاتل ثم يعود إليه، ويقول: أجاءك جبريل؟ فيقول: لا. وفي الثالثة قال: نعم، قال: فما

الذي قاله لك؟ قال: إنه يقول: إن لك رحى كرحاه، وحديثًا لا تنساه، فعاد عيينة إلى قومه، وقال: انصرفوا، فانهزم الناس عن طليحة، فركب فرسه، وأركب زوجته «النوار» على بعير له، ثم انهزم إلى الشام وتفرق جمعه.

وقد روى ابن عساكر أن طليحة الأسدي ادعى النبوة في حياة النبي ﷺ، وأن ابنه خيال أو جبال قدم على رسول الله ﷺ فسأله: ما اسم الذي يأتي إلى أبيك؟ فقال: ذو النون، الذي لا يكذب ولا يخون، ولا يكون كما يكون، فقال: لقد سمى ملكا عظيم الشأن، ثم قال لابنه: قتلك الله وحرمك الشهادة، ورده كما جاء، فقتل خيال بن طليحة مرتدا في بعض الوقائع؛ قتله عكاشة بن محصن - رضي الله عنه -، ثم قتل طليحة عكاشة، وله مع المسلمين وقائع، ثم خذله الله على يد خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وتفرق جنده، من حوله فهرب حتى دخل الشام، فنزل على آل جفنة، فأقام عندهم حتى مات الصديق.

وما كان تخفيه أيام الصديق إلا حياءً منه؛ إذ كان صاحبًا له، والحياء لا يأتي إلا بخير.

وفي أيام عمر - رضي الله عنه - عاد طليحة إلى الإسلام مرة أخرى، وندم على ردته واستغفر ربه من ذنبه العظيم، وقصد مكة للعمرة، وبعد أداء العمرة توجه إلى المدينة ليسلم على أمير المؤمنين عمر فلما رآه عمر قال له: غرِّب وجهك عني فإنك قاتل الرجلين الصالحين، يعني بهما: عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم، فقال: يا أمير المؤمنين! هما رجلان أكرمهما الله - تعالى - على يدي بالشهادة ولم يُهنِّي بأيديهما فأموت على الكفر، فأعجب عمر كلامه فرضي عنه وعفا عنه، وكتب له بالوصاة إلى الأمراء بأن يشاور ولا يولى شيئًا من الأمر.

ثم عاد إلى الشام مجاهداً فشهد اليرموك، وبعض حروب الفرس في القادسية ونهاوند، وكان من الشجعان المذكورين، والأبطال المشهورين، وقد

حسن إسلامه بعد هذا كله .

قال ابن سعد : يعدل ألف فارس لشدته وشجاعته وبصره بالحرب .

ومن شعره أيام ردته وادعائه النبوة في قتل المسلمين أصحابه :

فما ظنكم بالقوم إذ تقتلونهم ... أليسوا وإن لم يسلموا برجال
فإن يكن ازداد أصبى ونسوة ... فلم يذهبوا فرعًا بقتل خيال
نصبت لهم صدر الحمالة إنها ... معاودة قتل الكماة نزال
فيومًا تراها في الجلال مصونة ... ويوما تراها غير ذات جلال
ويومًا تراها تضيء المشرفية نحوها ... ويومًا تراها في ظلال عوالي
عشية غادرتُ ابن أقرم ثاويًا ... وعكاشة العُمِّي عند مجال[1]

وبقي - رضي الله عنه - على الإسلام حتى مات ، وأعاده الله - تعالى - إلى الهدى بعد العمى ، و إلى السعادة بعد الشقاوة ، ويعتبر صحابيا من الصحابة إذ يقول العلماء في تعريف الصحابي : هو من اجتمع بالنبي ﷺ ، أو رآه مؤمنًا به ، ومات على ذلك ، ويدخل في هذا التعريف طليحة الأسدي ؛ لأنه ارتد ثم عاد إلى الإسلام ، والأشعث بن قيس كذلك ، ويخرج من هذا التعريف النجاشي ؛ لأنه لم يجتمع به ولم يره ، وإن آمن به في حياته ، ويخرج من هذا التعريف ربيعة بن أمية بن خلف ، لأنه ارتد إلى النصرانية في عهد عمر - رضي الله عنه - ، ومات على نصرانيته .

فمن زحزح عن الكفر وأدخل الإسلام فقد فاز ، ومن أحياه الله بالإسلام بعد الموت بالكفر فقد فاز ، ومن تداركه الله برحمته ومنَّ عليه بهدايته فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

---

(١) البداية والنهاية : ٦/ ٣٢١ ، ٧/ ١٢١ ، وتاريخ الأمم والملوك : ٢/ ٢٦٢ .

تأثير القرآن

القرآن غيث للقلوب يلين قسوتها، وينور ظلمتها، ويفتح أقفالها، ويحرك سكونها، ويوقظ غفلتها.

والقلوب أمام القرآن ثلاثة أقسام؛ منها ما يكون كالأرض الطيبة النقية، تقبل الهداية والموعظة، وتطبقها على نفسها وتظهرها للآخرين، ومنها ما يكون كالأرض الأجادب، التي تقبل الماء ولا تنبت الكلأ، ومنها ما يكون كالأرض القيعان التي لا تقبل ماءً ولا تنبت كلأً.

وقد روى أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا؛ فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، شربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»** متفق عليه.

وقد وصف الله القرآن بصفات كثيرة؛ منها البركة، قال تعالى: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [ص: ٢٩]، ومنها العظمة، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ** ﴾ [الحجر: ٨٧]، ومنها التأثير، قال تعالى: ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الحشر: ٢١]، إلى غير ذلك من الصفات الكثيرة، ولقد كان له تأثير عجيب في القلوب القاسية وممن أثَّر فيهم سويد بن الصامت بن عطية، فبينما رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل في الموسم والأسواق، ويدعوهم

إلى الله تعالى، وكان ﷺ لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له ودعاه إلى الإسلام وعرض عليه ما عنده.

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: قدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجا أو معتمراً، وكان سويد إنما يسميه قومه الكامل لجلده وشعره وشرفه ونسبه وهو الذي يقول:

ألا رب من تدعو صديقا ولو ترى ... مقالته بالغيب ساءك ما يفري

مقالته كالشهد ما كان شاهدا ... وبالغيب مأثور على ثغرة النحر

يسرك باديه وتحت أديمه ... تميمة غش تبتري عقب الظهر

تبين لك العينات ما هو كاتم ... من الغل والبغضاء بالنظر الشزر

فرشْني بخير طالما قد بريتني ... وخير الموالي من يريش ولا يبري

قال: فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الإسلام فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي، قال رسول الله ﷺ: وما الذي معك؟ قال: مجلة لقمان، يعني: حكمة لقمان. فقال رسول الله ﷺ: اعرضها علي، فعرضها عليه، فقال: إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل منه، قرآن أنزله الله عليَّ فهو هدى ونور. فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام فتأثر بما سمع وبدت أسارير وجهه تشرق، وأنوار قلبه تخرج، ولم يبعد من الخير، وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتلته الخزرج فكان رجال من قومه يقولون: إنا لنراه قتل وهو مسلم، وكان قتله قبل بعاث[1].

ومثل سويد بن الصامت: إياس بن معاذ، يقول ابن إسحاق: حدثني الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، عن محمود بن لبيد قال: «لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة، ومعه فتية من بني عبد الأشهل، فيهم

(١) السيرة النبوية: ٢/ ٣٦، والبداية والنهاية: ٣/ ١٤٤-١٤٥.

إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، وسمع بهم رسول الله ﷺ، وهو حريص على إسلامهم وعلى إنقاذهم وإنقاذ غيرهم من النار، فأتاهم فجلس إليهم فقال: هل لكم في خير مما جئتم له؟ قال: قالوا: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله إلى العباد، أدعوهم إلى عبادة الله وحده ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليَّ الكتاب، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، قال: فقال إياس بن معاذ ـ وكان غلامًا حدثًا: يا قوم هذا والله! خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس، وقال: دعنا منك فلعمري! لقد جئنا لغير هذا، قال: فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج.

قال: ثم لم يلبث إياس أن هلك، قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضرني من قومه أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره، ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلمًا، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع»(١).

وتأثير القرآن ظاهر في الإنس، فما فتحت القلوب إلا به ولا مصرت الأمصار إلا به؛ لأننا أمة أعزنا الله ـ تعالى ـ به، وجعل القيادة لنا به، والسعادة لنا به، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر، ولم يقتصر تأثيره على الإنس فقط؛ بل وتأثيره على الجن كذلك، فقد حدثنا القرآن الكريم عن استماع الجن للقرآن، وتأثرهم به، وعودتهم إلى قومهم منذرين، وقيامهم بالدعوة إلى الله، وكانت هذه الاستجابة ثمرة من ثمرات حضور مجالس الذكر، والإنصات لكلام رب العالمين، والاستماع إلى كلام الصالحين.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا

(١) البداية والنهاية: ٣/ ١٤٥-١٤٦.

حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، ويبتغون الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بوادي نخلة عامدا سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن، استمعوا له فقالوا: إن هذا والله! الذي حال بينكم وبين خبر السماء».

وإننا إلى الله نشكو حال الكثير من المسلمين اليوم الذين لم يتأثروا بالقرآن؛ بل ولم يواظبوا على قراءته، فلا تراه عندهم إلا جمالا على الرفوف، وكم يمر من الأيام والأسابيع والشهور بلا قراءة! وكيف يريد هؤلاء صلاحًا، وكيف يرغبون فلاحًا، وكيف يؤملون أرباحًا، وهم عن كتاب الله - تعالى - معرضون، وبدنياهم مشغولون، وعن آخرتهم غافلون!

بل، وللأسف الشديد، لا نرى الكثير من المسلمين يتأدبون بأدب القرآن، ولنقف على خبر الجن السابق فنجد أنهم أحسن حالا من كثير من

الإنس؛ إذ تأدبوا بآداب جليلة، ما درسوها ولا عرفوها من قبل، ولكن هيبة الموقف وروعة البيان، وبلاغة القرآن أخذت بالقلوب، وحركت كوامن الخير، فأنصتوا للقراءة؛ لأن كلام الله تعالى يعلو ولا يعلى عليه، وواصلوا الاستماع للذكر حتى قضي وانتهى، ثم ولوا إلى قومهم منذرين مبلغين رسالة الله.

فإذا كان هذا تأثير القرآن في الجن فكيف لا يؤثر في الإنس، وسيرة سلفنا أكبر شاهد على ذلك، فما سبب إسلام عمر، والطفيل بن عمرو، وأسيد بن الحضير، وسعد بن معاذ، وعمرو بن الجموح وغيرهم كثير إلا تأثير القرآن، ورحم الله عثمان به عفان الذي يقول: لو نظفت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم، وهذه حقيقة في حياة الصحابة - رضي الله عنهم -، فها هو عباد بن بشر - رضي الله عنه - يحرس المسلمين في غزوة ذات الرقاع بعد رجوعهم، فيتوجه إلى القبلة ويصلي، ويقرأ سورة الكهف وفيما هو سابح في هذا النور الإلهي أقبل أحد أعدائه ليرميه بسهمه وهو في الصلاة، فانتزعه عباد من جسده ومضى في قراءته، فرماه بالثاني وبالثالث، وهو ينتزعها، ثم أنهى صلاته وأيقظ صاحبه، فقال له صاحبه: يا سبحان الله، هلا أيقظتني عند أول سهم رماك به، قال عباد: كنت في سورة أقرأها فلم أحب أن أقطعها حتى أفرغ منها، والله! لولا خوفي أن أضيع ثغرا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لكان قطع نفسي أحب إليَّ من قطعها.

وهذا أمر لا يستغرب فإن شغلهم الشاغل هو كتاب الله تعالى، ولذا كانوا قرآنا يمشي على الأرض، أصلح الله لهم أنفسم وأصلح بهم أهلهم ومجتمعهم، فهل يعود المسلمون إلى كتاب الله، وهل يشغلون به أوقاتهم، وهل يقدرونه حق قدره، وهل يقومون بحقه أعظم قيام؟

******

اليد الحانية

سبل الشيطان لإضلال الإنسان كثيرة، ومنها التخطيط لأذية الصالحين بالقول أو بالفعل أو بهما جميعًا.

ويعمل هذا العدو على ملء القلوب بالبغضاء والشحناء، حتى تتأجج بنار الحقد وتصطلي بلهيب الأذى. ولا يكاد يسلم مؤمن من أذى عدوه؛ بل وقد يؤز أعوانا له على أذى المتقين، وكلما عظمت البلوى كلما عظمت التقوى وازداد المؤمن إيمانًا؛ لأن أعظم الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.

فقد روى أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الناس على قدر دينهم، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي في الناس ما عليه خطيئة**». رواه أحمد، والترمذي، والدارمي وابن ماجة وابن حبان بسند صحيح.

وقد تعرض الرسول ﷺ لعدة محاولات اغتيال، ولكن الله - تعالى - حفظه، إذ يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ [المائدة: ٦٧].

ومما تعرض له ﷺ محاولة فضالة بن عمير الليثي، فهو ممن كره الإسلام في أول أمره، وممن أبغض الرسالة وصاحبها - عليه الصلاة والسلام -؛ بل وحرص بكل ما يستطيع على القضاء على الدعوة وعلى إطفاء نور الله تعالى، وكان يحدث نفسه ويقول - وهو يرى رسول الله ﷺ يمشي أمامه -: هذا الذي قتل الآباء وسفه الأحلام، وعاب الدين، وحطم الآلهة، لأنتقمن منه. وأخذ يخطط لهذا الانتقام ويقول: لو أني اقتنصت منه فرصة، فانقضضت عليه

فقتلته، إني إذا فعلت ذلك ألحقت الهزيمة بالمسلمين، فإنهم ما انتصروا إلا به، ولا يجتمعون إلا عليه، وتحسس فضالة سيفه، وتقدم يسترق الخطى حتى اقترب من رسول الله، ومد يده نحو سيفه، فإذا برسول الله يقول له: أفضالة؟ قال - وقد أخذ بهيبة الرسول ﷺ -: نعم فضالة، يا رسول الله، قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟

وذهل فضالة لهذا السؤال؛ إن رسول الله يسأله عما حدث به نفسه، قال فضاله لنفسه: وماذا يعلم محمد من دخيلة نفسي؟! لا يمكن أن يكون سؤاله هذا عما أريد تنفيذه. قال فضالة: لا شيء يا رسول الله، كنت أذكر الله، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: استغفر الله، عندها أدرك فضالة أن محمداً قد كشف سره، واطلع على خبيئة نفسه بما أعطاه الله - تعالى - من الوحي، أما الغيب فلا يعلمه هو ولا أحد من الخلق؛ بل هو من اختصاص الله وحده.

وناداه رسول الله ﷺ فأقبل حتى وقف أمامه، ومد رسول الله يده الحانية إلى صدر فضالة ووضعها على قلبه، إنها يد رسول الله ما امتدت إلى شيء إلا زكا وطاب بإذن الله، فهو الذي جعلها زكية طيبة.

يقول فضالة: ما إن وضع رسول الله يده على صدري حتى أصبح أحب أهل الأرض إلي، ثم قال: يا رسول الله ما كان أحد من أهل الأرض أبغض إلي منك، وما أن وضعت يدك على صدري حتى كنت أحب أهل الأرض إلي، أحبك أكثر من والدي وولدي ومالي وحتى من نفسي، ومن تلك الساعة وقر الإيمان في قلبه، مصداقًا للحديث الذي رواه أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»** متفق عليه.

واستأذن فضالة وانصرف وأخذ طريقه المعتاد إلى بيته، فمر بامرأة كان يتحدث إليها من قبل ولا يمنعه إيمان أو تقوى من ذاك الحديث المشين، فقالت

له: هلم إلى الحديث يا فضالة. قال: لا، قد كان ذلك قبل اليوم، قالت: عجبًا، وما الذي غيَّرك اليوم، قال: الإيمان بالله ورسوله ثم أنشد:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك الله والإسلام
لوما رأيت محمدًا وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيِّنا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام(١)

ومضى فضالة في درب الإسلام، وعض عليه بالنواجذ، ووجد بغيته وعاش لذته، وكان داعية للخير، محذراً من الشر، يوقن أن طريق النجاة هو طريق الرسل، وأن منهج الاقتداء هو منهج الأخيار، وأن اغتنام الحياة في الطاعة أمر مطلوب، فإن الدنيا دار ظعن وليست بدار إقامة، ودار ممر وليست بدار مقر وكان يقول: الحمد لله الذي هداني وأدخلني الإسلام قبل موتي وشرفني بصحبة رسوله ﷺ، وجعل لي ذكراً في الآخرين، وولد رضي الله عنه في تلك الساعة التي حظي فيها بيد الرسول ﷺ، وعاش يتنقل في رياض الكتاب والسنة يزداد كل يوم إيمانًا.

وما أعظم البذل لهذا الدين؛ فلو أن المسلم ساهم في الدعوة بكلمة أو بابتسامة أو بنفقة لدخل الناس في دين الله أفواجًا، وقد قص عليَّ ثقة أن شابا صغيراً أحب الدعوة، فكان يدعو إلى الله بنشر ورقات عن محاسن الإسلام، ووجد سيارة رجل ألماني فوضع فيها ورقة، ومضى الألماني بالورقة وحملها معه عند سفره، وعند ما توقف في بلد من البلاد استخرج الورقة، وطلب من أحد العرب أن يترجمها فترجمها، وإذا بها تحكي عظمة الإسلام وذل النصرانية، فاستغرب الألماني ولم يصدق حتى ذهب إلى مركز إسلامي فتحقق من الخبر، فحققوه له فأعلن إسلامه.

وأخذ يقرأ عن الإسلام حتى تمكن الإيمان من قلبه، ثم عاد إلى البلد الذي

(١) والله يعصمك من الناس: ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦.

أعطي فيه المنشور، وأخذ يبحث عن الشاب الصغير فلم يجده، فسأله أحد الناس عما يريد، قال: أريد أن أجد ذاك الشاب لأكافئه فقد كانت هدايتي على يديه، وهو أعظم هدية أهديت إلي فهل تسمع الآذان مثل هذا الخبر؟ وهَل تتصور العقول مثل تلك اليد الحانية التي تثير الإيمان وتحرك الفطرة فتسعى جاهدة إلى البذل والعطاء؟ وهل يكون الهم الذي نحمله هو العمل لنشر دين الله لنحظى بسعادة الدنيا ونجاة الآخرة؟ وهل نساهم في بناء الأجيال المسلمة لتكون حصنًا حصينًا، ودرعًا منيعًا ننتشلها من الرذيلة، ونقودها إلي الفضيلة لتعرف عظمة الإسلام، وتعيش في أمن وسلام، وتشتاق لدار السلام؟

*****

العجب بالنفس

من صفات أهل الإيمان: التواضع، قال الله ـ تعالى ـ عنهم: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

وإمام المتواضعين هو رسول الله ﷺ؛ إذ يقول: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»** رواه البخاري.

وكان ﷺ يركب الحمار ويردف خلفه، ويجلس على الأرض، ويشتغل في مهنة أهله ويخدمهم ويساعدهم، ويعاون خدمه، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويذهب إلى السوق، ويحضر لأهله طعامًا، ويلاطف الصغار، ويدخل السرور عليهم. وحياته أكمل حياة بشرية.

والتواضع رفعة في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: **«من تواضع لله رفعه»** رواه مسلم وغيره، ومَنْ حُرِم التواضع حرم خيرًا كثيرًا، وقد يؤدي به الكبر إلى الردة عن الإسلام، وهذا الذي وقع فعلاً لجبلة بن الأيهم الغساني ملك غسان ـ وغسان نصارى العرب ـ وكنيته أبو المنذر، وكان آخر ملوك غسان، فكتب له الرسول ﷺ كتابًا مع شجاع بن وهب يدعوه فيه إلى الإسلام، فأسلم وكتب بإسلامه إلى رسول الله ﷺ.

وقال ابن عساكر: لم يسلم قط. وقيل أسلم في أيام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وفرح بذلك عمر، ثم بعث إليه يستدعيه إلى المدينة، وقيل: بل استأذنه جبلة في القدوم عليه، فأذن له فركب في خلق كثير من قومه واستقبله عمر ورحب به وأدنى مجلسه، وشهد الحج مع عمر، فبينما هو يطوف بالكعبة إذ وطىء إزاره رجل من بني فزارة، فانحل الأزار فغضب جبلة؛ إذ كان حرسه وجنوده يفسحون له الطريق فلا يعرف الزحام؛ فلما رأى إزاره على الأرض مد

يده إلى الفزاري ولطمه لطمة شديدة هشمت أنفه، وقيل: بل قلع عينه بتلك الضربة فشكاه الفزاري إلى أمير المؤمنين عمر، فاستدعى عمر جبلة، وسأله عن صحة قول الفزاري، فاعترف جبلة بذلك فقال له عمر: أقده من نفسك. قال: كيف وأنا ملك وهو سوقة من عامة الناس؟ قال له عمر: إن الإسلام جمعك وإياه فلست تفضله إلا بالتقوى، فهي ميزان الإسلام بين الناس؛ لا فضل لأحد على أحد إلا بها، كما يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فقال جبلة: قد كنت أظن أن أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية، فقال عمر: دع ذا عنك فإن لم ترض، أقدته أنا وأعطيته حقه منك، قال: إذًا أخرج من الإسلام وأتنصر كما كنت. قال: إن تنصرت ضربت عنقك؛ لأنك مرتد.

فأخذ جبلة يفكر في أمره وأخذته العزة بالإثم فلما رأى الجد من عمر قال: سأنظر في أمري هذه الليلة، فانصرف من عند عمر، فلما ادْلَهَمَّ الليل ركب في قومه ومن أطاعه وسار إلى الشام، ودخل بلاد الروم، واستأذن على هرقل فأذن له فلما دخل عليه أعلن النصرانية بين يديه، وترك الإسلام، فرحب به هرقل وفرح بذلك، وأقطعه بلادًا كثيرة، وأجرى عليه أرزاقًا جزيلة، وأهدى إليه هدايا جميلة، من سُمَّاره الذين يسامرونه كل ليلة أو معظم الليالي، فمكث عنده دهرًا.

ثم إن عمر كتب كتابًا إلى هرقل مع رجل يقال له: جثامة بن مساحق الكناني، فلما بلغ هرقل كتاب عمر بن الخطاب قال له هرقل: هل لقيت ابن عمك جبلة؟ قال: لا. قال: فالقه. فذكر اجتماعه به وما هو فيه من النعمة والسرور والحبور الدنيوي في لباسه وفرشه ومجلسه وطيبه وجواريه. حواليه الحسان من الخدم والقيان، ومطعمه ومشربه، وسروره وداره التي تعوض بها

عن دار الإسلام.

وذكر أنه دعاه إلى الإسلام والعود إلى الشام فأبى ذلك وأصر على ارتداده، وأخذ يعاقر الخمر ويسمع لغناء الجواري حوله، وأخذن يذكّرنه بماض له أحزنه فأخذ يبكي، ثم قال لرسول عمر: هذه خمسمائة دينار هرقلية لك، قال: لا أقبل منك شيئًا وأنت مرتد، ولا حاجة لي من مالك، فلقد تعلمنا من ديننا أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وتعلمنا من نبينا ﷺ أن لا نسأل الناس شيئًا، وقد أرشدنا إلى الاستعفاف عما في أيدي الناس؛ إذ يقول ﷺ: **«من استعف أعفه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن سأل الناس وله عَدْل خمس أواق فقد سأل إلحافًا»** رواه الإمام أحمد بسند صحيح.

ويذكر أن جبلة قال لرسول عمر: أبلغ عمر بن الخطاب مني السلام وسائر المسلمين، فلما قدم رسول عمر عليه أخبره بقول جبلة قال له عمر: وهل رأيته وهو يشرب الخمر؟ قال: نعم. قال: أبعده الله، تعجل فانية بباقية، فما ربحت تجارته.

وقد بعث معاوية بن أبي سفيان رسولا إلى ملك الروم، فاجتمع بجبلة ابن الأيهم، فرأى ما هو فيه من سعادة البطن والفرج، وهي حياة البهائم، ورأى كثرة أمواله وخدمه، فقال جبلة لرسول معاوية: لو أعلم أن معاوية يقطعني أرض البثينة، فإنها منازلنا، وعشرين قرية من غوطة دمشق، ويفرض لجماعتنا، ويحسن جوائزنا لرجعت إلى الشام، فأخبر الرسول معاوية بذلك، فقال معاوية: أنا أعطيه ذلك، وكتب إليه كتابًا مع البريد بذلك، فما أدركه البريد إلا وقد مات، قبحه الله[1].

وذكر الواقدي أن جبلة شهد اليرموك مع الروم ثم أسلم بعد ذلك في عهد عمر فاتفق أن وطئ رداء رجل من مزينة، فلطمه المزني، فأخبر أبو عبيدة،

(١) البداية والنهاية: ٨/ ٦٥-٦٨.

فقال: يلطمه جبلة قَوَدًا، قالوا: ألا يقتل المزني لأنه لطم ملك؟ قال: لا، قالوا: ألا تقطع يده؟ قال: لا. ، قال جبلة: بئس الدين هذا، ثم ارتد نصرانيا، وترحل بأهله حتى دخل أرض الروم، فبلغ عمر ذلك فشق عليه، ومات على نصرانيته.

ولو أن الإنسان تذكر أن أصله من تراب، وأنه مملوك لا مالك، وعبد لا معبود، وضعيف لا قوي، ما تكبر مقدار الذرة، ولو أيقن أنه كان نطفة مذرة، ويحمل في أحشائه العذرة، وآخره جيفة قذرة ما تعالى ولا أصابه العجب، ولو فكر مليا وعلم أنه خرج من مجرى البول مرتين ما تكبر على أحد.

ولكنه الشيطان الذي ينفخ أهل الكبر، فيصور لهم المخلوقات كالذر فلا يرون ميزانًا إلا لهم، ولا يضربون للناس حساب، وسرعان ما يظهرون على حقيقتهم، وينكشف الغطاء ويندمون على ذاك الداء، عافانا الله من هذا المرض المشين، ورزقنا التواضع مع المؤمنين وجعلنا من عباده الصالحين[1].



(١) للاستزادة من أخبار جبلة، سير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٣٢، وشذرات الذهب: ١/ ٢٧، والأعلام: ٢/ ١١١-١١٢، وغيرها.

الشجاعة في الحق

يتمنى الإنسان أن ينال الصفات الحميدة التي ترضي الله - تعالى - عنه، ثم تجعله قدوة يُقتدى به بين الناس.

ومن أحسن هذه الصفات الشجاعة والإقدام في الحق، وبيان الهدى والإيمان، وهذه صفة محمودة يحمد عليها صاحبها، ومن الشجاعة والإقدام ما يذم، وهي التي يراد بها العصبية والقومية والحمية والرياء، وقد تدخل صاحبها النار وتكسبه العار، وقد بينت السنة ذلك.

يروي أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**» متفق عليه.

وروى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه: رجل استشهد فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: قارىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها؟ قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار**» رواه مسلم.

وممن وهبه الله - تعالى - الشجاعة في الحق: وهب بن قابوس المزني -

رضي الله عنه ـ؛ إذ أقبل ومعه ابن أخته الحارث بن عقبة بغنم لهما من جبل مزينة، فوجدا المدينة خالية، فسألا أين الناس؟ فقالوا: بأحد، خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين، فقالا: لا نسأل أثراً بعد عين، فأسلما ثم خرجا فأتيا النبي ﷺ بأحد، فإذا الغلبة والسلطان للمسلمين، فأغارا مع المسلمين في النهب، وقاتلا أشد القتال، وكانت قد انفرقت فرقة من المشركين، فقال النبي ﷺ: مَنْ لهذه؟ فقال المزني: أنا، فقام فذَبَّها بالسيف حتى ولّوا، ورجع المزني. ثم طلعت كتيبة أخرى فقال: من يقوم لهؤلاء؟ فقال المزني: أنا، فقال: قم وأبشر بالجنة، فقام المزني مسروراً يقول: والله! لا أقيل ولا أستقيل، فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف حتى يخرج من أقصاهم حتى قتلوه ومثلوا به.

ثم قام ابن أخته: الحارث فقاتل كنحو قتال خاله حتى قتل، وقام رسول الله ﷺ على قدميه، وقد ناله ما ناله من الجراح يشرف على قبر المزني وابن أخته حتى وضعا في لحديهما، فكان عمر وسعد بن مالك يقولان: ما حال نموت عليها أحب إلينا من أن نلقي الله على حال المزني(١).

قال ابن حجر في الإصابة: وهب بن قابس أو قابوس المزني، ذكره ابن السكن في الصحابة، وأخرج من طريق محمد بن طلحة عن محمد بن الحصين بن عمرو بن سعد به معاذ عن أبيه عن جده قال: لقي رجل من مزينة، يقال له: وهب بن قابس بالعرج، وبايعه ثم أقام في أهله حتى إذا كان يوم أحد خرج بحبل فيه غنم حتى قدم المدينة، فوجدها خلواً فسأل عن النبي ﷺ فقيل: إنه يقاتل قريبًا بأحد فرمى بحبله، وتوجه إلى أحد فطلعت خيل المشركين، فقال النبي ﷺ: من يوزع عنا الخيل، جعله الله رفيقي في الجنة؟ فتقدم وهب فضرب بسيفه حتى ردها، وصنع ذلك ثلاث مرات ثم قتل، فقال النبي ﷺ: دعوه حتى نفرغ له فلما فرغ اُلْتُمِسَ فلم يوجد، فقال عمر: ما من الناس أحد

---

(١) صفة الصفوة: ١/ ٦٠٧-٦٠٨.

أحب إلي أن ألقى الله بعمله من وهب بن قابس[١] .

وهكذا ترخص النفوس في سبيل الله - تعالى - وتتسابق إلى الجنة، وتشتاق للقاء الله تعالى، وتتمنى أن لها بعدد شعر جسدها أنفسًا تقتل في سبيل الله .

ولقد روي إن خيثمة بن الحارث بن مالك الأوسي، سيد بني عمرو بن عوف قال لابنه سعد - يوم بدر -: يا بني! أقم مع أهلك فأكثرهم نساء، وآثرني بالخروج لعلي أنال الشهادة في سبيل الله، فقال له ابنه سعد: يا أبتي! إنك من أحب الناس إليَّ أمرت بطاعتك إلا أن الذي طلبت مني عزيز، لو كان غير الجنة لآثرتك به، إني أريد الجنة، وأتمنى الشهادة في وجهي هذا، فاقترعا فوقعت القرعة على سعد، فأبلى بلاءً حسنًا مع جند الله حتى خرَّ صريعًا في المعركة، وتركه أبوه خيثمة وقد قرت عينه بذلك .

فلما كانت غزوة أحد فرح خيثمة بها؛ إذ لا يوجد له منافس من أهله فخرج مع المسلمين، وهو يقول: لقد أخطأتني وقعة بدر وكنت عليها حريصًا، ولقد رأيت ابني سعدًا البارحة في النوم وهو في أحسن حال يسرح في ثمار الجنة، ويقول: لقد وجدت ما وعدني ربي حقا، فالحق بنا يا أبي ترافقنا في الجنة، يا رسول الله! أصبحت مشتاقًا إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سني ورقَّ عظمي وأحب لقاء ربي، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة .

فمضى في ساحات المعركة تحت لواء الحق يهلل ويكبر حتى استشهد في المعركة، ونرجو أن يجتمع بابنه سعد، وأن يكرَّم بما كُرِّم به ابنه، فرضي الله عنهم أجمعين[٢] .

---

(١) الإصابة: ٣/ ٦٤٣، وأسد الغابة: ٤/ ٦٨٦ .

(٢) شهداء الإسلام: ٧٠-٧١، وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٦٦ .

ورحم الله الأمير السعيد الشهيد عبد الله بن رواحة الذي سخَّر شعره لدينه لا لنفسه؛ إذ يقول وهو يحث النفس على الجهاد ويمنعها من التردد: -

أقسمت يا نفس لتنزلنه ‏ ‏ ‏ ‏ طائعة أو لتكرهنه
فطالما قد كنت مطمئنه ‏ ‏ ‏ ‏ ما لي أراك تكرهين الجنه
إن أجلب الناس وشدوا الرَّنه ‏ ‏ ‏ ‏ هل أنت إلا نطفة في شنه

*****

الجدال بالباطل

أعظم الجوارح خطرًا على الإنسان جارحة اللسان، وقد بيَّن الرسول ﷺ ذلك في حديث معاذ الذي ذكر فيه أركان الإسلام وأبواب الخير ورأس الأمر، وعموده وذروة سنامه، ثم قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله، قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه، وقال: كف عليك هذا، قلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به، فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**» رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة بسند صحيح.

ومما يروى أن عمر به الخطاب - رضي الله عنه - كان يقول: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه فالنار أولى به.

وكان أبو بكر - رضي الله عنه - يأخذ بلسان نفسه، ويقول: هذا الذي أوردني الموارد، ويقول عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: أشد الجوارح حاجة إلى طول سجن هو اللسان.

ومن حكمة لقمان أنه عندما سأله سيده عن أطيب ما في الذبيحة فأعطاه القلب واللسان، ثم سأله عن أخبث ما في الذبيحة فأعطاه القلب واللسان، وقال: هما طيبان إذا طابا، وخبيثان إذا خبثا.

وقد يستسهل الإنسان كلمة يقولها، وما علم أنها تهوي به في جهنم سبعين خريفًا، وكان السلف - رحمهم الله - يعدون كلامهم في الأسبوع، ويحصونه في اليوم، ويوقنون أنه من عملهم؛ فلا تراهم يتكلمون إلا بالحق، أو يصمتون؛ عملاً بقول الرسول ﷺ في حديث أبي هريرة وأبي شريح - رضي الله عنهما - إذ يقول: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت**» متفق عليه.

وقد ورد أن سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ قال : إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب .

وقد ذكر ابن الجوزي في كتابه «صفة الصفوة» في ترجمة يوسف بن أيوب الهمداني ـ رحمه الله ـ أنه كان عابداً ناسكا يكثر الوعظ ويبذل النصح ، وكان يجتمع عنده خلق كثير ، ووقع له القبول التام .

وفي يوم من الأيام قام إليه رجل متفقه يظهر فصاحته ، ويشهر بلاغته يقال له : ابن السقاء ، وأخذ يجادله بالباطل ليدحض به الحق ، ويمحو به الصدق ، وأكثر من أذيته في مسألة من المسائل فقال له الهمداني : اجلس لمعرفة الحق ، والإذعان للصدق ، فإني أجد في كلامك رائحة الكفر ، ولعلك تموت على غير الإسلام .

وقد تكون هذه دعوة عليه من رجل صالح لم يرد الانتقام لنفسه ولا التشفي لذاته ، وإنما غضب لله ـ تعالى ـ ولرسوله ﷺ ، ودفاعًا عن دينه ، ونصحًا للرجل ، خصوصًا وإنه ضلَّل الكثير من الناس ، ولبس عليهم ، فهي دعوة غيور على دين الله تعالى ، ودعوة مظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، ويقول : لأنصرنك ولو بعد حين ، وقد تكون فراسة لهذا الغيور ، رزقه الله نوراً في قلبه ينظر به إلى خبايا الأمور ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وبعد فترة من الزمن ليست بالطويلة خرج ابن السقاء إلى بلاد الروم ، فأحب النصارى وركن إليهم ، وأخذ أخلاقهم وأعجب بنصرانيتهم واضطرب قلبه وتزعزع إسلامه ، وشك فيما كان يعتقده من الإسلام ، حتى ترك الإسلام ودخل في النصرانية ، وكان يزعم أن الإله ثلاثة ، وقد كان يعتقد قبل ذلك أنه واحد لاشريك له ، وما نفعه باطله الذي يجادل به ؛ بل أورده الموارد .

وقد روى أبو أمامة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : **«أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك**

الكذب وإن كان مازحًا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسُن خلقه» رواه أبو داود بإسناد حسن.

وقد يظن مَنْ لاخلاق له أن النصرانية لهم خير، وما علموا أنهم تركوا النجاة وسلكوا طريق الهلاك، وخلعوا ثوب الصحة والعافية ولبسوا ثوب المرض والهلاك، وبغوا على انفسهم من حيث لا يعلمون، وسبحان الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويفعل ما يشاء.

فقد ورد في ترجمة معروف بن فيروز الكرخي أنه كان نصرانيا، وأبواه نصرانيا ن، فأسلماه إلى مؤدب عندهم ليعلمه ويربيه وهو صبي، فكان المؤدب يقول له: يا معروف: الإ له ثلاثة، فيقول: بل هو الواحد الصمد، فضربه المؤدب ضربًا مبرحًا حتى ألجأه للهرب، وانقطع عن أهله فترة من الزمن، وحزنوا عليه حزنًا شديدًا، فكان أبواه يقولان: لو عاد إلينا لدخلنا في دينه الذي هو عليه، فعاد إليهم بعد زمن، فلما دق الباب قالوا: مَنْ؟ قال: معروف قالوا: على أي دين جئت؟ فقال: على الدين الحنيف، فأسلم أبواه على يديه، وأسلم إخوته وحسن إسلامهم، وأخبرهم أن الإسلام خير من النصرانية، وكان يقول: إذا أراد الله بعبد شرا أغلق عنه باب العمل وفتح عليه باب الجدل.

وقص إنسان شارب معروف فلم يفتر عن الذكر فقال: كيف أقص؟ فقال: أنت تعمل وأنا أعمل. وقيل: اغتاب رجل عند معروف فقال: اذكر القطن إذا وضع على عينك(١).

ولست بهذا أسرد سيرة معروف الكرخي، وإنما أردت أنْ أبيِّن أن الفخر بالإسلام، وأن البذل فيه كما كان عليه السابقون، وخير للعبد أن يمسك لسانه إلا عن خير؛ فإن اللسان سبع إذا لم يحفظ أكل صاحبه، وإذا لم يُحْفظ بالذكر هلك بالوزر.

فنسأل الله أن يرزقنا ألسنًا صادقة، وعلومًا نافعة ومجالسا ناصحة.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٩/ ٣٤٠، ٣٤١، والثبات عند الممات: ١٥٦.

دعاة إلى الجنة

أصدق الناس معاملة هم الذين يحولون بين الناس وبين النار، ويدعونهم إلى مراقبة العزيز الغفار، ويشغلون أوقاتهم بالأفكار، ويرغبون الناس في دار الأبرار، ويحذرونهم دار البوار.

وقد حكي عن عبد الواحد بن زيد، قال: كنت في مركب فطرحتنا الريح إلى جزيرة، وإذا فيها رجل يعبد صنمًا، فقلنا له: يا رجل مَنْ تعبد؟ فأشار إلى الصنم، وقال: أعبد هذا فهو إلهي ومعبودي، وليس لي سواه، فقلنا له: إن معنا في المركب من يصنع مثل هذا الصنم الذي تعبد، واعلم بأنه ليس إله يعبد، فقال: هل لكم إله غيره تعبدونه؟ قلنا: نعم. قال: ومن هو المعبود عندكم؟ فقلنا: الله الواحد القهار، خالق الليل والنهار، والذي بيده الأمر كله، قال: ومن هو الله؟ قلنا: الله الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي الأحياء والأموات قضاؤه.

فقال: كيف علمتم ذلك؟ قلنا: وجَّه إلينا هذا المعبود رسولا كريمًا بلغنا كل شيء، ودعانا لكل خير. قال: فما فعل الرسول وأين هو؟ قلنا: أدى الرسالة على أكمل وجه حتى تركنا على البيضاء ليلها كنهارها، وما شيء إلا وقد أعطانا منه خبراً حتى الطير في السماء، ثم قبضه الله ـ تعالى ـ إليه فكل من على الأرض فان، ولا يبقى إلا الله الواحد القهار.

قال: فهل ترك عندكم شيئًا مما جاء به؟ قلنا: نعم، ترك عندنا كتاب الرب العظيم، وهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فيه نبأ ما قبلنا وخبر ما بعدنا، وحكم ما بيننا، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم.

فقال: أروني كتاب الملك، فينبغي أن تكون كتب الملوك حسانًا، فأتيناه بالمصحف فقال: ما أعرف هذا وما رأيته قبل اليوم، فقرأنا عليه سورة من القرآن، فلم نزل نقرأ وهو يبكي حتى ختمنا السورة، فقال: ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يعُصى، ثم أسلم الرجل وحسن إسلامه، وحملناه معنا، وعلمناه شرائع الإسلام وسورًا من القرآن وكنا حين سترنا الليل بظلامه وصلينا العشاء وأخذنا مضاجعنا قال لنا: يا قوم! هل الإله الذي دللتموني عليه ينام، قلنا له: لا، إنه لاينام؛ هو عظيم قيوم لا تأخذه سنة ولانوم.

قال: بئس العبيد أنتم! تنامون ومولاكم لا ينام. فأعجبنا كلامه. وليس القصد منع النفس من النوم، فإن النوم جبلّة جبلت عليه، لا تصبر عنه أبدًا، ولكن المراد: التقليل منه بقدر الإمكان فإنه يقصر الأعمار والناس لا يشعرون.

فلو أن الإنسان ينام في الليل ثمان ساعات، وعمره ستون سنة، كان للنوم منها عشرون سنة، ولذا ذكر الله ـ تعالى ـ في صفات أهل الجنة أنهم كانوا قليلا من الليل ما يهجعون، يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٨].

ويقول تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿ **وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٤].

وأنكر ﷺ على الرجل الذي قال: أقوم الليل ولا أنام، فقال: «**أما والله! إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**» متفق عليه، من حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه.

وقد قيل بأن أم سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ قالت لابنها ـ سليمان ـ: يا بني! إياك وكثرة النوم، فإن كثرة النوم تدع الإنسان فقيرًا يوم القيامة.

يقول الراوي: فلما قدمنا بلدة، عيادان: إحدى ضواحي البصرة، قلت لأصحابي: هذا رجل حديث عهد بالإسلام، وهو فقير يحتاج إلى المساعدة والصدقة، فجمعنا له دراهم وأعطيناه، فقال: ما هذا؟ قلنا: تنفقها على نفسك ومن تريد، قال: لا إله إلا الله!! دللتموني على طريق ما سلكتموها أنا في جزائر البحر أعبد صنمًا من الأصنام، ومع ذلك فلم يضيْعني الإله الواحد العظيم، فكيف يضيعني وأنا أوحّده الآن وأدعوه وأرجوه.

فلما كان بعد أيام، قيل لي: إنه في الموت فأتيته، فقلت له: هل من حاجة؟ فقال: قضى حوائجي من جاء بكم إلى جزيرتي.

قال عبد الواحد بن زيد: فحملتني عيني فنمت عنده، فرأيت روضة خضراء وفيها قبة، وفي القبة سرير عليه جارية لم يُر أحسن منها، فقالت: سألتك بالله ألا عجلت به فقد اشتد شوقي إليه، فانتبهت وإذا به قد فارق الدنيا. فقمت إليه وغسلته وكفنته ودفنته فلما جَنّ الليل رأيته في القبة مع الجارية، وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤][(١)].

ولعل هذه الرؤيا بشارة له، ومن عاجل بشراه، ونرجو أن تتحقق له وأن يكون من الذين أنعم الله عليهم؛ مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

طويت صحيفته، وانصرمت أيامه، وتداركه الله برحمته؛ إذ قيَّض له دعاة خير يدعونه إلى الهدى، ويقودونه إلى الجنة، فنسأل الله أن يتقبل منا ومنهم صالح العمل، وأن يتجاوز عنا وعنهم سيء العمل، وأن يجعلنا هداة مهتدين، وأن ييسر لنا سبل الهداية والرشاد، وأن يصرفنا عن سبل الغواية والفساد، وأن يجعلنا من أنصاره، الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

---

(١) التوابين ٢٩٩-٣٠٠.

عاقبة النظر إلى الحرام

نعم الله ـ تعالى ـ لا تقد ولا تحصى، ومن أجلِّ وأعظم نعمه: نعمة البصر، والعاقل اللبيب هو الذي يسخرها في طاعة الله تعالى، ويوقن أنها شاهدة بما عملت يوم القيامة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «**هل تدرون ممَّ أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه يقول: يا ربي ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول بعداً لكنّ وسحقًا، فعنكن كنت أناضل**» رواه مسلم.

والصالحون يكسبون بأبصارهم حسنات كالجبال؛ لأنهم ما بين نظر في آيات الله الشرعية، ونظر في آيات الله الكونية، ونظر في سنة رسول أمة الخيرية، واطلاع على سير الصالحين، ولهم في كل خبر نظر، فهم على الطريق القويم؛ إن رأوا خيراً نظروا، وإن رأوا شرا غضوا، مستمدين ذلك من قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

والنظرة إلى المحرم سهم مسموم من سهام إبليس، يفتك بالقلوب، ويوقع الجوارح في غضب الله وسخطه.

وغض البصر يورث ثلاث فوائد جليلة القدر: -

الأولى: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب مما تركه لله تعالى، فإن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

الثانية: أن غض البصر يورث نور القلب والفراسة؛ لإنه ترك النظر للظلام المحرم فعوضه الله النظر بنور من نوره، ولذا ذكر الله آية النور عقيب آيات غض البصر في سورة النور، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وكان شاه بن شجاع الكرماني لا تخطىء له فراسة، وكان يقول: من عَمَر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، وأكل الحلال لم تخطىء له فراسة.

الثالثة: قوة القلب وشجاعته وثباته، فيجعل الله له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة، وفي الأثر: «الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله»(١).

وكم من نظرة أورث بصاحبها إلى الهلاك، وأورثته الحسرة الدائمة، والحزن المستمر.

وقد ذكر ابن القيم -رحمه الله- أن رجلا كان بمصر، وكان يلزم المسجد للأذان والصلاة، وكان عليه بهاء الطاعة ونور العبادة، فرقى يومًا المنارة على عادته للأذان وكان تحت المنارة دار لنصراني، وكان النصراني يعرض بناته سافرات ليصطاد بهن ضعاف الإيمان، الذين لا همَّ لهم إلا التلذذ بالنظر فاطلع المؤذن في الدار فرأى ابنة صاحب الدار في أحسن هيئة، فافتتن بها فترك

---

(١) فتاوى ابن تيمية: ٢١/ ٢٥٢-٢٥٩.

الأذان، ونزل إليها ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك وما تريد؟ قال: أريدك. قالت: لماذا؟ قال: قد سلبت لُبِّي وأخذت بمجامع قلبي.

قالت: لا أستطيع أن أجيبك إلى ريبة أبدًا. قال لها: أتزوجك، قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك. قال المؤذن: سأتنصر مقابل الزواج بك، قالت: إن تنصرت وتركت الإسلام فسأتزوج بك.

فتنصر من أجل فرجه ومن أجل شهوة عابرة، ومن أجل لذة زائلة، فأقام معهم في الدار، فلما كان أثناء ذلك اليوم رقي إلى سطح كان في الدار، فسقط منه، فمات من ساعته على نصرانيته، ولم يتمكن من المرأة ولم يظفر بها، وفاته دينه لنظرة واحدة لم يغضها عن الحرام، وعاش في الإسلام معظم عمره، ولكنه خلع ربقته في ساعة شيطانية بنظرة إبليسية مسمومة، وأراد اللذة عمرًا طويلا فأخذ في ساعة أو بعض ساعة، وكانت خاتمته أن يموت نصرانيا كافرًا ملحدًا فباء بخزي الدنيا والآخرة[1].

وعجبًا لأمر هذا، ما كأنه قرأ سيرة أم سليم -رضي الله عنها-؛ يأيتها أبو طلحة -رضي الله عنه- فيقول لها: يا أم سليم! إني أريد الزواج بك، قالت: يا أبا طلحة! نعم الرجل أنت حسبًا ونسبًا ومالا، ولا يرد مثلك، ولكنك كافر وأنا مسلمة، ولا يجوز للكافر أن يتزوج بالمسلمة، فلك عليَّ إن أسلمت: أن أتزوج بك، ولا أريد مهرًا إلا الإسلام فقط.

قال أبو طلحة: سأفكر في أمري. قالت: يا أبا طلحة! أليس أن صنمك الذي تعبد خشبة نجرها عبد آل فلان، لا تنفع ولا تضر؟ فعاد أبو طلحة لمنزله، ثم أخذ يفكر في كلام أم سليم ويتردد في الإسلام، ثم عزم على الإسلام، وذهب لأم سليم وأسلم على يديها، وتزوجها وحسن إسلامه.

---

(١) الجواب الكافي: ٢٤٦.

ولو لم تأت أم سليم يوم القيامة إلا بأبي طلحة لكفاها فخراً، وفي هذه المرأة قدوة حسنة لبنات جنسها، لعلهن أن يحذون حذوها وأن يسلكن طريقها وهكذا سنة الله: فريق في الجنة وفريق في السعير[١].

******

(١) صور من حياة الصحابة: ٣١٧، ٣١٨.

إياكم والجلوس على الطرقات

ديننا الإسلامي هو دين العفة والنقاء والطهر والصفاء؛ عمل على تطهير القلوب أولاً، ثم على تطهير الجوارح ثانيًا، وحمى الأموال والعقول والأعراض.

ومما اهتم به الإسلام الطريق؛ فوضع له آدابًا يجب على المسلم أن يؤديها، ليحفظ نفسه ويحفظ حق غيره، والأصل في الجلوس على الطريق أنه غير مرغوب فيه شرعًا؛ بسبب ما يترتب عليه من مضايقة للمارين والمارات، وتعرض للوقوع في الممنوع شرعًا؛ مثل: النظر إلى النساء، وشغل القلب بالناس، ويجر ذلك إلى الوقوع في الغيبة، وسوء الظن، وتهمة الآخرين حسب ظاهر أحوالهم.

ولذلك حذر النبي ﷺ من الجلوس على طريق الناس، فأخبره الصحابة أنهم لا يستغنون عن الجلوس على الطريق؛ لأنها هي التي تسع تجمعهم؛ سواء قل عدد المجتمعين أو كثر؛ خصوصًا وأن دورهم ضيقة في الغالب.

فأذن لهم النبي ﷺ بالجلوس عليها مع القيام بآدابها وأداء حقوقها، وقد عدها بعض العلماء، فأوصلها ثلاثة عشر أدبًا: ١- غض البصر. ٢- كف الأذى عن المارين بقول أوفعل. ٣- رد السلام. ٤- الأمر بالمعروف. ٥- النهي عن المنكر. ٦- تشميت العاطس. ٧- مساعدة المحتاج بحمل متاعه. ٨- إغاثة الملهوف. ٩- إرشاد ابن السبيل. ١٠- إعانة المظلوم ومساعدته على ظالمه. ١١- ذكر الله حتى لا يشغله الطريق ولا يلهيه. ١٢- حسن الكلام؛ لأن مثل هذه المجالس عرضة للخوض فيما هو ممنوع شرعًا. ١٣- إفشاء السلام. وقد نظمها ابن حجر - رحمه الله - في أربعة أبيات هي: -

جمعت آداب مـن رام الجلـوس على
الطريــق من قــول خيـــر الخلــق إنسانــا
أفش السـلام وأحســن في الكـــلام
وشمـــت عاطسًـــا وسلامًـــا رد إحسانًـــا
في الحمل عاون ومظلومًا أعـن وأغـث
لهفـــان اهـــد سبيـــلاً واهـــد حيرانـــا
بالعرف وانه عــن نكـر وكـــف أذى
وغـــض طـــرفًا وأكثـــر ذكـــر مولانـــا[1]

وقد أرشد ﷺ إلى أداء حق الطريق؛ فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والجلوس على الطرقات! قالوا: يا رسول الله! ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها، قال: فإذا أبيتم فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حقه؟ قال: غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» متفق عليه.

ولقد عاقب الله من أهمل هذه الحقوق، وأراه عاقبة جنايته، وقد ذكر ابن القيم أن رجلاً كان واقفًا بإزاء داره، وكان بابه يشبه باب حمام اسمه حمام منجاب، فمرت به جارية لها منظر وحسن جمال، فقالت: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال لها: هذا حمام منجاب، يريد باب داره خيانة وغدراً، فدخلت المرأة ثم دخل وراءها، فلما رأت نفسها في داره، وعلمت أنه خدعها، أظهرت له البشر والفرح باجتماعها به، وقالت ـ من باب الخدعة منها والتحيل لتتخلص مما أوقعها فيه، وخوفًا من فعل الفاحشة ـ يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقر به عيوننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين

(١) السلوك الاجتماعي في الإسلام: ٤٢٠.

وتشتهين، وخرج من عندها وتركها في الدار ليأتي بطعام وشراب وكساء وغيره، ونسي أن يغلق الدار، فخرجت المرأة وولت هاربة إلى أهلها بعد أن حفظها ربها، وبقيت لها عفتها فلما رجع لم يجدها، ووجدها قد خرجت وذهبت، فهام الرجل على وجهه، وأخذ يتصورها في كل لحظة، ويذكرها على كل حال؛ فهي همه وغمه، وطعامه وشرابه، وجعل يمشي في الطريق وينظر يمنة ويسرة بلا غض لبصره ويقول:

يا رب قائلة يومًا وقد تعبت   أين الطريق إلى حمام منجاب

فبينما هو يقول ذلك إذا بجارية أجابته: -

هلا جعلت سريعًا إذ ظفرت بها   حرزًا على الدار أو قفلاً على الباب

فازداد هيمانه - واشتد هيجانه، ولم يزل كذلك حتى فارق الدنيا، وهو يقول: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ ونسى التوحيد، وحيل بينه وبين ما يشتهي، وقدم على ربه بإثمه؛ فلا هو غض بصره أدبا للطريق، ولا هو نال هوى نفسه وشهوة فرجه مما تتمناه.

فهل من عظة وعبرة لمن خان الطريق حقه، وأطلق على المحرمات بصره؟

ومثل هذا رجل عشق شخصًا فاشتد حبه له، حتى وقع ألمًا به، ولزم الفراش بسببه، وتمنع ذلك الشخص عليه، واشتد نفاره عنه فلم تزل الوسائط الإبليسية بينهما حتى وعده أن يعوده في مرضه الذي طرحه على الفراش، فأخبره الساعي بذلك، ففرح واشتد فرحه، وزاد سروره وانجلى غمه، وجعل ينتظر الميعاد الذي ضربه له، فبينما هو كذلك إذ جاء الساعي إليه وكلمه، فقال: إنه وصل معي إلى بعض الطريق ورجع، فرغبت إليه وكلمته، فقال: إنه ذكرني وفرح بي، لا أدخل مداخل الريب ولا أعرض نفسي لمواقع التهم، فعاودته، فأتى وانصرف، فلما سمع البائس ذلك، سقط في يده، وعاد إلى أشد مما كان به، وبدت عليه علائم الموت فجعل يقول في تلك الحال: -

أسـلم يا راحـة العليـل ويا شفاء المدنف النحيل

رضاك أشهى إلى فؤادي من رحمة الخالق الجليل

فقلت له : يا فلان ، اتق الله الذي لا تخفى عليه خافية ، وقلوب الخلق بيده ، قال : قد كان ما كان ، ولن أصبر عن هذا الغلام الذي قطع حبه فؤادي .

يقول الساعي : فقمت عنه ، فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت ، فعياذاً بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة ، ولو أقفل عينيه لسد على الشيطان أبوابه وكسَّر بالحق أنيابه ، ولكنه أخلد إلى الهوى ورضي الهوان[1] .

******

(١) الجواب الكافي : ٢٤٤ , ٢٤٥ .

الداعية المحتضر

أحسن الناس قولا هم الدعاة؛ الذينَ لا يطلبون على دعوتهم أجراً من الناس، وإنما يريدون ثواب الله ـ تعالى ـ؛ يحبون للناس ما يحبون لأنفسهم، ويدلونهم ويرشدونهم حتى وهم في الغرغرة، يحرصون على نفع الناس حتى وهم في الاحتضار.

ومن هؤلاء الصادقين: رجل ساق الله له عاصيًا عند احتضاره، ليقدم له النصيحة، ويدعوه للهداية، لعله أن يلقى ربه بعمل صالح، وقد لا تنفع المواعظ في بعض القلوب، ولكنها تلين إذا رأت حادثة معينة تهزها هزا، وتؤزها إلى الخير أزا، ولعلي أن أسرد هذه الحادثة الواقعة فعلا للتذكر والاعتبار.

وملخص هذه الحادثة أن رجلا كان يعمل سائقًا لإحدى سيارات الإسعاف، وكان هذا السائق فظا غليظ القلب؛ كان لا يتذكر بالذكرى ولا يتعظ بالموعظة؛ وسبب ذلك قسوة في قلبه، بالإضافة إلى كثرة الحوادث الشنيعة التي يباشرها معظم أيامه، وكما قيل: «كثرة المساس يقلل الإحساس».

ولربما وجد بعض الحوادث الفظيعة، التي يتقطع أصحابها فيحمل الرأس في يد، و الرجل في يد، وأجزاء الجسد في حَمْلَة أخرى، ومع هذا فما كان يتأثر لشيء من ذلك البتة، ولا يتورع عن معصية من المعاصي؛ ومن أعظمها ترك الصلاة والعياذ بالله».

وفي يوم من الأيام بُلِّغ بمباشرة حادث في مدخل من مداخل مدينة الرياض وكان الوقت متأخراً حوالي الساعة الواحدة ليلا، وركب سيارة الإسعاف على عادته، وانطلق مسرعًا نحو الحادث، وكان معه معاون يعاونه إلا أنه كان مجازاً ذاك اليوم.

ولما وصل إلى مكان الحادث وجد سيارة قد ارتطمت بإحدى أعمدة الكهرباء، وأدت إلى انقطاع التيار الكهربائي عن تلك المنطقة، إلا أنه كان يرى نورا يخرج من السيارة، فذهب نحوها وبيده سيجارة دخان، فلما وصل للسيارة المصدومة، وجد رجلاً كث اللحية، علامات الصلاح تظهر على وجهه المشرق بنور الإيمان، فقال لسائق الإسعاف: هل تريد مساعدتي؟ قال: نعم، قال: جزاك الله خيراً، أرجو أن تطفىء السيجارة أولا، فأطفأها، ثم ساعده على الخروج من سيارته، فقال: لقد عملت إلي معروفًا، أريد أن أكافئك عليه، عملا بقول الرسول ﷺ: **«من سأل بالله فأعطوه، ومن استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»** رواه أبو داود، والنسائي، وأحمد وغيرهم بسند صحيح من حديث ابن عمر، رضي الله عنهما.

فقال سائق الإسعاف: أنت الذي تستحق المساعدة، وأنت مشغول بنفسك، وأعفيك من المكافأة، قال له: إن مكافأتي معنوية تتعلق بالقلب، ولا تتعلق بالجسد، وهي نصيحة أقدمها لك فهي في نظري أغلى من المال، وأغلى من الدنيا.

فقال له السائق: أعطني نصيحتك وسأستمع لها بأذن صاغية، قال له: يا أخي - جزاك الله خيراً - أنت أخي في الله، وأحب لك ما أحب لنفسي، وأكره منك ما أكرهه من نفسي، فعليك - بارك الله فيك - بطاعة الله تعالى، وطاعة الوالدين، واحذر قرناء السوء، ثم شخص بعينيه إلى السماء وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ثم انقطع صوته وانقطع نفسه، وغارت عيناه، وارتخت رجلاه، وانفك صدغاه، ومال أنفه، وأخذ جسمه يبرد شيئًا فشيئًا بدءاً برجليه، يقول السائق: فعلمت أنه مات، وحملته إلى المستشفى، وسلمته إلى قسم الحوادث، ثم عدت إلى

البيت قرابة الثالثة ليلا ، فأردت أن أنام فلم أستطع ؛ لأنني رأيت منظراً فظيعًا ، وأخذت أفكر في أمر هذا الميت كيف مات؟ وعلى أية خاتمة مات؟ ومدى حبه للنصيحة ، ورغبته في صلاحي واستقامتي ، وبذله الدعوة لي ، وأخذت أراجع حساباتي مع ربي ، وما قدمته في أول حياتي ، وبينما أنا في بحر متلاطم من أمواج الأفكار والتخيلات ، وإذا بمؤذن الفجر يؤذن فرددت معه ، وكأنني لأول مرة أسمع الأذان ، مع أنني قد سمعته آلاف المرات ، لكني أسمعه بقلب نائم أو غافل أو معرض أو ميت ، أما الآن فأسمعه بقلب مستيقظ ، يقول : ثم ذهبت للمسجد صلاة الفجر لأول مرة ، وصليت مع الإمام ، وسمعت القرآن في ساعة مجيدة ، فزادت يقظة قلبي .

وبعد الانتهاء من الصلاة ذهبت لإمام المسجد ، وذكرت له قصتي وما حدث لي وأعلنت توبتي ، فقال لي : واجب عليك أن تحمد الله تعالى ، الذي سهل لك داعية يدعوك عند احتضاره ، دعاك بقوله ودعاك بفعله ، يقول السائق : فصلح حالي ، وزاد إيماني ، ووجدت لذة عجيبة ، ندمت على ما مضى من حياتي في الضياع .

وسبحان من يجعل موت بعض الناس حياة للبعض الآخر ، فالميت الصالح مات وقدم على ربه ، وجعله الله ـ تعالى ـ سببًا في استقامة هذا السائق ليحيا حياة أهل الإيمان ويترك العصيان(١) .

فهذه ثمرة من ثمرات مجالسة الصالحين ، حتى وإن لم يقصد الإنسان مجالستهم ، وإن لم يرغب في سماع مواعظهم ، فقد يفتح الله ـ تعالى ـ القلب المقفل بموعظة ، وقد يحرك القلب المريض بكلمة ، وقد ينور القلب المظلم بمعاملة ، وصدق الرسول الكريم ﷺ إذ يقول : «مثل الجليس الصالح والجليس

---

(١) السعداء : ١٦-١٨ بتصرف .

السوء كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة» متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه.

والمرء على دين خليله وسيحشر يوم القيامة مع من يحب؛ فإما أن يحب أهل الصلاح لينال النجاح، وإما أن يحب العصاه لينال الإفلاس، وقد روي عن الشافعي:

أحب من الإخوان كل مواتي ... وكل غضيض الطرف عن عثراتي
يوافقني في كل أمر أريده ... ويحفظني حيا وبعد وفاتي
فمن لي بهذا ليت أني أصبته ... فقاسمته ما لي من الحسنات
تصفحت إخواني وكان أقلهم ... على كثرة الإخوان أهل ثقاتي

******

المحافظة على النوافل

همم الناس في العبادة تختلف؛ فمنهم سابق بالخيرات: يؤدي الفرائض، ويترك النواهي، ويكثر من النوافل، لا يترك باب طاعة إلا ولجه، ومنهم مقتصد: يؤدي الفرائض فقط، ويترك النواهي، وليس له حب فيما عدا ذلك، ومنهم ظالم لنفسه: خلط عملا صالحًا وآخر سيئًا، فهو على شفا حفرة من الهلاك. وأقرب هؤلاء الأصناف إلى الله ـ تعالى ـ الصنف الأول، وهم الذين يداومون على التطوع بعد الفرائض، ولا يزالون يتقربون إلى الله بنوافلهم حتى يحبهم الله ـ تعالى ـ فإذا أحبهم: حفظ لهم سمعهم وبصرهم، وأيديهم وأرجلهم، ويحفظه لجوارحهم، يحفظ لهم عملهم الصالح، ويبارك فيه، ويحفظ لهم حياتهم.

روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«قال الله تعالى: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»** رواه البخاري.

ومن هؤلاء الأولياء، ولانزكي على الله أحدًا: رجل يسمى ناصر النجار كان يعمل نجارًا في مدينة الرياض، وكان كلما حان وقت صلاة الضحى أغلق دكانه وانطلق إلى المسجد المجاور للدكان، ثم توضأ وصلى سنة الضحى، لعلمه بفضلها وعظيم أجرها، فإذا انتهى من صلاته، عاد إلى مكانه، وعمل فيه بقية وقته، إلا ما يتخلله من طعام أو نوم وراحة، وهذا ديدنه الذي يمضي عليه ويواظب على فعله.

وفي يوم من الأيام أغلق دكانه الساعة السابعة صباحًا، ثم انطلق إلى المسجد ليؤدي نافلة الضحى، وما أن وصل إلى المسجد وتوضأ وشرع في صلاته، وكبر التكبيرة الأولى، وصلى الركعة الأولى وقام للركعة الثانية وشرع في الفاتحة، إلا ومال الرجل وسقط على الأرض ليودع الدنيا بهاتين الركعتين، ويلقى ربه وهو في أفضل العبادات، التي هي ركن الإسلام الأعظم وعموده الأقوم، وبقي على حالته التي مات عليها وهو لا يزال في الصلاة، حتى دخل المؤذن إلى المسجد لصلاة الظهر، وإذا به يرى هذا الرجل الصالح، واجتمع الناس وحملوه إلى بيته، الذي خرج منه بعد صلاة الفجر على أمل أن يعود إليه كعادته في الظهر، ولكنه عاد على غير المألوف؛ إذ عاد محمولا على الأكتاف، يحمله غيره لا يحمل نفسه، عاد وهو لا يسمع كسمعه الأول، ولا يبصر ولا يطعم ولا يشرب ولا يتكلم، عاد جثة بلا روح، عاد موحشًا لا مؤانسًا؛ كل يقول: عجلوا به إلى قبره[(١)] .

ولما شرع المغسِّل في تغسيله وأراد خلع ثيابه أبعد يديه من على صدره ـ كما كانت في الصلاة ـ فردها، فأبعدها، فردها، فأبقاها كما هي في الصلاة، ثم غسله وكفنه وطيبه، وحملوه إلى قبره؛ ليستقبل آخرته ويودع دنياه، ليستقبل حفرته ويترك قصره؛ وليستقبل وحشته ويترك أنسه إلا أن المرجو له أن الآخرة خير له من الأولى، وهذه ميتة كلٌّ يتمناها.

فقد ذكر الإمام الذهبي في ترجمة أبي ثعلبة الخشني أن أبا الزاهرية قال: سمعت أبا ثعلبة يقول: اللهم لا تخنقني كما أرى هؤلاء يخنقون، فبينا هو يصلي في جوف الليل قبض وهو ساجد، فرأت ابنته في المنام أن أباها قد مات، فاستيقظت فزعة فنادت أمها أين أبي؟ قالت: في مصلاه، فنادته فلم يجبها فأنبهته فوجدته ميتًا[(٢)] .

---

(١) السعداء: ١٩ ، ٢٠ بتصرف.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٥٦٠-٥٧١ .

ومثله عامر بن عبد الله بن الزبير الذي تربى على يد أبيه، فكان ناسكًا عابدًا سابقًا إلى الخيرات؛ يكثر من الدعاء على كل حال؛ لأنه يعلم أن الدعاء هو العبادة، وأنه ينفع مما نزل ومما لم ينزل، يقول مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ: كان عامر بن عبد الله يصلي العشاء ليلة من الليالي، ثم عاد منصرفًا إلى منزله، فاشتاق للدعاء، فرفع يديه في الطريق، وأخذ يدعو ربه طوال ليله حتى أذن لصلاة الصبح، فرجع إلى المسجد من الطريق وصلى الفجر بوضوء العشاء.

وكان جوادًا كريمًا يتحين العبُّاد وهم سجود؛ كأبي حازم وصفوان بن سليم وسليمان بن شحم وأشباههم، فيأتيهم بالصرة فيها الدنانير والدراهم فيضعها عند نعالهم؛ بحيث يأخذونها عند خروجهم قالوا له: لماذا لا ترسل بها إليهم؟ قال: أكره أن يتغير وجه أحدهم، إذا نظر إلى رسولي وإذا لقيني، وكان إذا شهد جنازة وقف على القبر، فقال: ألا أراك ضيقًا، ألا أراك كثيبًا؛ ألا أراك مظلمًا؟ إن سلمت لأتأهبن لك أهبتك، فأول شيء تراه عيناه من ماله يتقرب به إلى ربه، وإن كان رقيقه ليتعرضون له عند انصرافه من الجنائز ليعتقهم.

قال مصعب بن عبد الله: سمع عامر بن عبد الله المؤذن يؤذن لصلاة المغرب ـ وهو يجود بنفسه في مرض شديد، وكان منزله قريب من المسجد ـ فقال: خذوا بيدي. فقيل له: إنك عليل وقد عذرك الله تعالى، فقال: أسمع داعي الله فلا أجيبه؟ فأخذوا بيده فدخل في صلاة المغرب فركع مع الإمام ركعة ثم مات(١).

وشبيه بهؤلاء رجل ذهب إلى المسجد يوم الجمعة، يريد فضل المبادرة وثواب الخطبة، قبض الله روحه في مجلس ذكر شريف ومع عباد شرفاء، وفي بقعة شريفة وودَّع الدنيا في يوم الجمعة، ولعله أن يسلم من عذاب القبر كما ورد في الحديث قال ﷺ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه

---

(١) صفة الصفوة: ٢/ ١٣٠-١٣٢.

الله فتنة القبر» رواه أحمد بسند حسن[1] .

ونحن نسأل الله ـ تعالى ـ أن يتوفانا على الإسلام والسنة ، وأن يجعل خير أعمالنا خواتمها ، وخير أعمارنا أواخرها ، وخير أيامنا يوم أن نلقاه .

******

(١) أحكام الجنائز : ٣٥.

شاب نشأ في طاعة الله

اهتم الإسلام بالشباب؛ لأن أعمارهم هي لب العمر وخلاصته، ولأن الشباب وسطية بين الطفولة والكهولة والشيخوخة، ولأنه قوة بين ضعفين، ولأنه سن أهل الجنة، ولأنه سن نضوج العقل والإدراك وسن التكليف، ينمو عند الشاب العقل والشهوة؛ فإما أن يغلّب جانب الشهوة فيكون كالبهائم، وإما أن يغلب جانب العقل فيكون كالملائكة.

وكم من الشباب يعتبرون قدوات صالحة للأجيال المسلمة، لاهمَّ لهم إلا إعلاء كلمة الله تعالى، يقدمون محبوب الله -تعالى- على محبوب أنفسهم، ويقدمون العمل للآخرة على العمل للدنيا، ولو نظرنا في سيرة حنظلة بن أبي عامر -رضي الله عنه- لوجدنا ما يشفي الغليل؛ إذ يترك فراشه الوثير وزوجته الحسناء في ليلة عرسه، وينطلق إلى الجهاد وينسى الجنابة والاغتسال. ويمضي في ساحات المعركة يصاول ويجاول، حتى خرَّ شهيدًا؛ طمعًا في رضوان الله تعالى، ورغبة في دخول الجنة.

ونسأل الله أن يعطيه ما سأل، وأن يرزقه ما تمنى. وقد لقب بغسيل الملائكة؛ لأن الملائكة غسلته بماء المزن في صحاف الذهب أو الفضة.

والخير في هذه الأمة لا ينقطع فقد وجد في عصرنا منْ هو نموذج صالح ذكرنا بشباب سلف هذه الأمة المباركة؛ إذ يقول الشيخ سعيد بن مسفر: حدثني من أثق في علمه وأمانته من المشايخ -شاهدُ عَيَان حضر القصة وعاصر أحداثها بنفسه، والقصة وقعت في مدينة بريدة بالقصِيم-: أن شابا نشأ وترعرع في طاعة الله تعالى، لا يعرف من الدنيا إلا بمقدار زاد الراكب الذي لا بد منه، همه وغمه وشغله القرآن والمسجد، فهو في رباط معظم وقته؛ حديثه القرآن؛ ومجلسه المسجد، وعمله الذكر والصلاة والسباق في الخيرات، ما كان يلعب

لعب الصبيان ولا يلهو لهو الخسران، ولا يألف العصيان، كان يلازم والده من سن السادسة، ويغدو ويروح معه إلى المسجد في طفولته، ولازم المسجد في صباه، حفظ القرآن وعمره تسع سنوات، وإذا سأل عنه أحد أرشدوه أنه في المسجد لتعلق قلبه به.

وجاءت الدراسة الابتدائية فألزمه والده أن يلتحق بإحدى المدارس، فامتثل الأمر أسبوعًا، ثم أبدى عدم رغبته في المواصلة وقال: أحب أن أعيش مع القرآن فقط، فوافق والده على ذلك.

وبعد فترة من الزمن توفي والده؛ فأصبح يتيمًا فكفله عمه حتى بلغ سن السادسة عشرة من عمره، وهو لا يزال على استقامته، وفي يوم من الأيام مرض مرضًا شديدًا وطلبوا له العلاج كسبب من الأسباب، ولكن دون جدوى، ولازمه المرض أسبوعًا كاملا وهو يزداد يومًا بعد يوم، وفي اليوم السابع من مرضه شعر بدنو أجله فأخذ يكثر من ذكر الله تعالى، ومن التشهد حتى فارق الحياة في حوالي الساعة الحادية عشرة قبل الظهر.

فأراد عمه أن يدفنه في تلك الساعة؛ لكنه تذكر أنه لا يوجد أحد من الناس لانشغالهم بوظائفهم وأعمالهم ومزارعهم، فقال: أنتظر حتى صلاة الظهر ويجتمع الناس للصلاة فنام قليلا، وإذا به يرى في نومه امرأة جميلة ما رأى مثلها في حياته تشع أنوارها من أمامها، ومعها نساء من خلفها يقول عم الشاب، فأيقظتني المرأة، وقالت لي: يا شيخ! نسألك بالله أن تعجل علينا بهذا الشاب، قال: ومَنْ أنت؟ قالت: أنا زوجته من الحور العين، ونحن على أحر من الجمر ننتظره فلا تؤخره علينا. قال عم الشاب: فاستيقظت من نومي، ودعوت الناس، فاجتمعوا وحفروا قبره، وسارعت إلى تجهيزه، فلما دخلوا إلى الغرفة التي فيها الشاب وجدوا رائحة طيبة ما وجدوا مثلها قبل ذلك، فقال الناس لعمه: ما هذه الرائحة التي هي أزكى من رائحة العود الثمين الغالي؟

قال : إنها رائحة الحورية ، وبقيت هذه الرائحة أكثر من شهرين في الغرفة .

إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

لقد أحب هذا الشاب لقاء ربه فأحب الله لقاءه ، وعَجّل الله له ببشارته الجليلة ؛ إذ استقبلنه الحور العين عند وفاته وفرحنَ بقدومه ، فقرت عينه بلقاء الله ، وقرت عينه بثباته على الحق ، وقرت بالنظر لأهل الجنة .

وهذه القصة كقصة عبد الله بن غالب الحداني صاحب القيام والصيام ، والراغب في طاعة الملك العلام ، خرج مع أصحابه لمقابلة العدو ، فلما برز للعدو قال : عَلاَمَ آسى من الدنيا؟ فوالله ما فيها للبيب جذل ، والله! لولا محبتي لمباشرة السهر بصفحة وجهي ، وافتراش الجبهة لك يا سيدي والمراوحة بين الأعضاء في ظلم الليل ، رجاء ثوابك وحلول رضوانك لقد كنت متمنيًا لفراق الدنيا وأهلها .

ثم كسر جفن سيفه ، وتقدم نحو العدو ، فقاتل ببسالة حتى قتل ، فحمل من المعركة وإنه به لرمقًا فمات دون العسكر . فجهزه أصحابه ودفنوه فلما دفنوه خرج من قبره رائحة المسك ، فرآه رجل من إخوانه في منامه فقال : يا أبا فراس ما صنعت؟ قال : خير الصنيع ، قال : إلام صرت؟ قال : إلى الجنة ، قال : بأي شيء نلت الجنة؟ قال : بحسن اليقين ، وطول التهجد ، وظمأ الهواجر ، قال : فما هذه الرائحة الطيبة التي توجد من قبرك؟ قال : تلك رائحة التلاوة والظمأ قال : قلت : أوصني ، قال : اكسب لنفسك خيرًا لا تخرج عنك الليالي والأيام عطلاً أي : مجردة من كل خير»[1] .

وهذا يدل على حرص سلفنا على الأعمال الصالحة والتسابق إليها ، فهم يعلمون أنهم ما خلقوا إلا للعبادة ، وأنها خير مال المؤمن وزاده ، وأنهم يدركون بها السعادة وينالون بها السيادة ، وأن التفاضل بالأعمال ؛ لا بالجاه والمال ، وأن

(١) صفة الصفوة : ٣/ ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

التنافس في الذكر بالغدو والآصال؛ لا بالقيل والقال، ولا بكثرة السؤال، والعبرة بالمآل لا بالدنيا وسوء الحال، يصبح أحدهم وقد عزفت نفسه عن الدنيا؛ فيحفظ نهاره بالصيام وليله بالقيام، ويتذكر الآخرة كأنها نصب عينية، فيكون على صلة بالطاعة، وعلى حرص على الذكر واستماعه؛ ليكون من أهل الشفاعة، ومن أهل النجاة يوم قيام الساعة.

******

المبادرة إلى الجمعة

أفضل الأيام يوم الجمعة؛ فيه خلق الله - تعالى - آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة.

روى أوس بن أوس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**من أفضل أيامكم يوم الجمعة؛ فيه خلق الله آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ. قالوا: يا رسول الله! وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت يعني: بليت؟ قال: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**» رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة وغيرهم بسند صحيح.

وروى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة؛ فيه خلق الله آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة**» رواه مسلم والترمذي والنسائي بسند صحيح.

وذكر العلامة ابن القيم - رحمه الله - في كتابه القيم «زاد المعاد» خصائص يوم الجمعة، فأورد أكثر من ثلاث وثلاثين خصيصة[١]. وهذا اليوم هو أحد أعياد المسلمين يفرح المؤمن فيه بإنهاء أيام أسبوعه بطاعة ربه، وينافس في تقديم القربان العظيم، وقربانه معنويًا أكثر من أن يكون حسيًا ولا يكون القربان إلا ممن بكر إلى الجمعة، وجاء في ساعاتها الأولى.

فقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**من راح في الساعة الأولى فكأنما قَرَّب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قَرَّب كبشًا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة**

---

(١) زاد المعاد: ١/ ٣٧٥-٤٢٥.

فكأنما قرَّبَ دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر» متفق عليه .

قال ابن القيم - رحمه الله - : لما كان يوم الجمعة في الأسبوع كالعيد في العام وكان العيد مشتملا على صلاة وقربان، وكان يوم الجمعة يوم صلاة، جعل الله التعجيل فيه إلى المسجد بدلا من القربان وقائمًا مقامه فاجتمع للرائح فيه إلى المسجد الصلاة والقربان، كما في حديث أبي هريرة آنف الذكر[1] .

ومن أهل أسبق إلى ساعات الجمعة شاب في الثلاثين من عمره، أتى في صبيحة الجمعة مغتسلا مبكرًا، سابقًا للخيرات راغبًا في الحسنات، ودخل الجامع لينتظر صلاة الجمعة وأدى تحية المسجد، ثم أخذ المصحف وبدأ يقرأ القرآن وأكمل عدة أجزاء يرجو ثوابها من الرب، وهو يوقن أن بكل حرف من القرآن حسنة، والحسنة بعشر أمثالها .

ولربما قرأ ذاك اليوم، مع تبكيره، مائة ألف حرف بمليون حسنة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم، ويرفع الله بهذا القرآن أقوامًا ويضع به آخرين، وما أسكت هذا الشاب عن القرآن إلا دخول الخطيب ليؤدي خطبته، فأنصت لها وهو قريب من الإمام ينطبق عليه قول الرسول ﷺ: **«من بكَّر وابتكر، ودنا من الإمام فأنصت كان له بكل خطوة يخطوها صيام سنة، وقيامها، وذلك على الله يسير»** رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة وغيرهم بسند صحيح .

وبعد قليل من خطبة الإمام إذا بهذا الشاب يضع رأسه على ركبته، ثم أصدر صوتًا يشبه الشخير، ثم سقط على جنبه، فحمله بعض المصلين إلى برادة الماء ليغسلوا وجهه، فغسلوا وجهه ورشوه بالماء، ولكنه لم يفق ولم يتحرك، فحملوه إلى أقرب مستشفى، فأفاد الطبيب أنه قد توفي قبل عشر

(١) زاد المعاد : ١/ ٣٩٨، ٣٩٩.

(٢) السعداء : ٢٠، ٢١ .

دقائق[٢] .

وهذه كرامة من الله - تعالى - لهذا الشاب ؛ إذ سهل له التبكير إلى الجمعة ووفقه لقراءة الكثير من القرآن ، وشرفه بتسجيل الملائكة ، لاسمه في سجلاتهم .

فقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : **«إذا كان يوم الجمعة، قام على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الناس الأول فالأول؛ فالمهجِّر إلى الجمعة كالمهدي بدنة، ثم الذي يليه كالمهدي بقرة، ثم الذي يليه كالمهدي كبشًا، حتى ذكر الدجاجة والبيضة، فإذا جلس الإمام طويت الصحف واستمعوا الخطبة»** متفق عليه .

ولعل هذا الشاب أن يكون قد أحب لقاء الله بعمله الصالح فأحب الله لقاءه ، وما أظن هذا الشاب لو خيِّر بين الدنيا والآخرة يختار إلا الآخرة ؛ إذ ختم دنياه بالقرآن والصلاة وسماع الخطبة في يوم هو أفضل أيام الأسبوع .

فنسأل الله أن ييسر لنا العمل الصالح على الدوام ، وأن يقبضنا على أحب عمل إليه .

******

من السفر الحرام إلى بيت الله الحرام

القلوب مفطورة على الإسلام منوَّرة من الظلام مُحِبَّةٌ للملك العلاَّم، لكنها قد تظلم فتتيه في غياهب الإثم والمعصية، وما ظلامها إلا لكثرة آثامها، فكل معصية نقطة سوداء تدخل إلى القلب الأبيض النظيف فتدنسه، ولا تزال به حتى تتركه أسودًا مربادًا منكوسًا يحب الشر ويكره الخير.

وقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، فإن زاد زادت، فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [المطففين: ١٤]» رواه ابن ماجه وأحمد بسند حسن.

والشيطان يغتنم غفلة القلب وظلامه وضعفه ليستولي عليه، وممن استحوذ عليهم الشيطان فترة من الزمن، ثم أيقظ الله قلوبهم ونوَّر بصائرهم، ما ذكره أحد الإخوة الفضلاء: أن شيخًا من المدينة كان يحدِّث عن شيخ نبيل يذهب إلى الدعوة إلى الله - تعالى - خارج البلاد، وفي إحدى سفراته للدعوة رأى شابين يريدان السفر إلى بلاد الانحلال، وقد غيَّرا هيئتهما فلبسا لباس الإفرنج، وينتظران الطائرة على أحر من الجمر، وكانا في ريعان الشباب؛ لا يتجاوزان العشرين.

يقول الداعية: فسألت نفسي وقلت: إلى أين يذهبون؟ وفي أي وحل يتلطخون؟ وعلمت أنهما سيذهبان إلى بلد لا يذكر فيه اسم الله - تعالى - بلد اشتهر بالخنا والزنا والفجور والخمور، فتاقت نفسي إلى نصيحتهم، لعل الله أن ينقذهما على يدي، وترددت في أول الأمر وأصابني نوع من الحياء والخجل، وأراد الشيطان أن يثنيني عن دعوتهما وإرشادهما وإنقاذهما وهدايتهما للدلالة والإرشاد، ولكني تذكرت أن الله - تعالى - أخذ علينا الميثاق بالبيان، وأن كل

واحد منا على ثغر، وأن الدعوة المباركة من الرسول ﷺ بالنضارة والحسن والبهاء، وجمال الظاهر وجمال الباطن لمن سمع الحق، ثم وعاه ثم بلغه للناس، وأن كتم الحق خطير؛ جدُّ خطير، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

وروى أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها، ثم بلغها عني، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**» رواه أحمد وابن ماجة بسند صحيح.

يقول الداعية: فعزمت على دعوتهما، فاقتربت منهما ثم سلمت عليهما، وقلت لهما: إلى أين السفر؟ قالا: إلى البلد الفلاني، فقلت لهما: وما الغرض من السفر؟ قالا: للنزهة والترويح عن النفس والاستجابة لداعي الهوى، فتأثرت لذلك أعظم التأثر، وقلت لهما: ما موقفكما لو سقطت بكما الطائرة أو احترقت، ومات من فيها وأنتما منهم؟ ما الذي تقابلان الله - تعالى - به؟ هل استعددتما للموت، وأخذتما له عدته وأهبته؟ هل علمتما أنكما ستعودان إلى الله تعالى، وأنه سيسألكما عن عمريكما وشبابيكما ماذا أفنيتماه فيه وأبليتماه فيه؟ وأهلت عليهما وابلا من الوعظ والإرشاد، ففكرا قليلا ثم قالا: يا شيخ! قد عرفنا خطر الذهاب إلى بلاد الانحلال والفجور، ولكن ما السبيل إلى الخلاص من ذلك؟ قلت لهما: ابقيا في بلاد المسلمين، ومع المسلمين، واستفيدا من توجيهات الإسلام واسألا العلماء، واصحبا أهل الخير والصلاح، فقالا: كيف نعود وقد ذكرنا لأهلنا سفرنا وعودتنا صعبة؟ فقلت لهما: عودا مع هذا الشاب الذي خرج لتوديعي، فإنه سيدلكم على الطريق المستقيم.

فسمعا نصيحتي وعادا مع ذاك الشاب الموفق فدلهما بالعودة إلى البيت الحرام؛ لأداء العمرة، والصلاة في المسجد الحرام، والمتاجرة الرابحة مع الرب تعالى، فوافقا على ذلك وسهرا معه تلك الليلة على مائدة ذكر وجلسة علم.

وبعد صلاة الفجر يمما وجهيهما شطر المسجد الحرام ومضيا تحطهما الوهاد وترفعهما النهاد في ذكر وتسبيح ودعاء، وقالا: يا حسرتنا على ما فاتنا من العمر، هذه اللذة التي نعيشها، هذه اللحظات كنا في بعد عنها، سبقنا ركب أهل الإيمان، ولما وصلا إلى الميقات أحرما منه، وأخذا يلبيان: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، وقد كانوا قبل ذلك يلبون للهوى وللشهوة، فسبحان مقلب القلوب والأبصار، وتوجها للحرم المكي الشريف بعد الإحرام ولساناهما لا يفتران من التلبية، وفي منعطف من المنعطفات، انقلبت بهما السيارة فماتا جميعًا محرمين، ولساناهما بذكر الله يلهجان وودعا الدنيا بلباس الإحرام، ويسر الله لهما طريق الهداية، وصرفهما عن طريق الغواية، ولم يكن بين موتهما وبين عزمهما على السفر لبلاد الفجور إلا يومًا أو قريبًا منه.

وهذا الفضل الذي نالاه بتوفيق الله تعالى، ثم بمصاحبة الصالحين، وبأداء الدعاة لواجب الدعوة وبالإخلاص في النصيحة، وبإيقاظ القلوب من غفلتها وتنبيهها على واجبها.

ومثلهما شباب وصلوا إلى الحرم للعمرة، فلما دخلوا إلى الحرم بدءوا بجمع الصلاة وأداء الفريضة قبل انتهاء وقتها، وعندما دخلوا في الصلاة وقرءوا في الركعة الأولى بعد الفاتحة سورة الضحى، ووصل الإمام إلى قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] رددها عدة مرات، وهو يبكي ثم سقط مغشيا عليه وفارق الحياة وهو بلباس الإحرام في الحرم

يصلي.

فهنيئًا لأهل العمل الصالح الذين يداومونه حتى يقبضوا عليه، وهنيئًا لأهل التوفيق الذين يغادرون الدنيا بخير زاد وهو زاد التقوى، وهنيئًا لمن أيقن بلقاء الله فاستعد له، فأعده المولى - تعالى - لأعظم لقاء، ورزقه الحياء، وحفظه من الشقاء.

******

أهل القرآن هم أهل الله

أعظم الناس أجرًا هم أهل القرآن، الذين يشرفون بكلام الله، ويحلون ألسنتهم به، وينورون قلوبهم به، وينالون فضل الله، ويرشدون عباد الله، ويشغلون المجالس بذكر الله؛ ألسنتهم لا تفتر عن ذكر الله تعالى، وقلوبهم لا تصبر عن كتاب الله، وأخلاقهم مستمدة من هداية الله ونور الله الذي أنزله على رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وكم من القلوب القاسية لانت عند سماع القرآن، وكم من المجتمعات السيئة صلحت عند سماع القرآن.

وممن نشأ على كتاب الله - تعالى - وعمر به مجالسه وأشغل به لسانه: رجل كان حافظًا لكتاب الله تعالى، وكان يعلمه الناس بدون أجر، فكبر سنه ورق عظمه، وبلغ من الكبر عتيا، حتى فقد الذاكرة، فنسي جميع من يعرفهم حتى أسماء أبنائه، ولازمته هذه الحالة حوالي عشرين سنة إلا أن العجيب من أمره أنه كان في هذه المدة يقرأ القرآن فلا يخطىء في آية، ولا يسقط كلمة.

وفي يوم من الأيام وفي وقت السحر بالذات، أخذ هذا الرجل ينادي أكبر أولاده باسمه، وقد نسيه منذ عشرين سنة، فلما سمعه ابنه فرح فرحًا شديدًا، وقال: عادت ذاكرته له، وعاد رشده وصوابه، فقال: لبيك يا والدي، ماذا تريد؟ قال: يا بني! هل ترى هذين الرجلين الجميلين الذين يرتدي كل واحد منهما عمامة بيضاء؟ قال ابنه له: يا والدي حفظك الله، لا أرى شيئًا،

ولعلك رأيت هذا في المنام ولا حقيقة لذلك، قال: يا بني! أراهما عيانًا أمامي الآن، وأعجب كيف لا تراهما أنت، قال: يا والدي لا أرى شيئًا، فقال: يا بني! أودعك، وأودع أهلك، وأودع الدنيا، وأسأل الله أن يجمعنا في دار كرامته، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ثم رفع سبابته ليوحد بها ربه، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، ثم فاضت روحه، وانقطعت أنفاسه على هذه الكلمة العظيمة.

وقد روى معاذ بن جبل - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**» رواه أحمد وأبو داود والحاكم بسند صحيح[1].

وقد يستغرب بعض الناس مثل هذا الخبر وليس بغريب؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿**فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ**﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٥].

وروى البراء به عازب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر...**» الحديث رواه أحمد وأبو داود وابن خزيمة وغيرهم بسند صحيح.

وقد ذكر في ترجمة عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - أنه عند الاحتضار قال: أجلسوني فأجلسوه، فقال: إلهي! أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ورددها ثلاث مرات، ولكن: لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه، فأحَدَّ النظر فقالوا له: إنك لتنظر نظرًا شديدًا يا أمير المؤمنين، فقال: إني لأرى حَضْرة؛ ما هم بإنس ولا جان، ثم قبض من ساعته، وفي رواية أنه قال لأهله:

---

(١) السعداء: ٢١-٢٢.

اخرجوا عني فخرجوا، وجلس على الباب مسلمة بن عبد الملك وأخته فاطمة زوجة عمر، فسمعوه يقول: «مرحبًا بهذه الوجوه التي ليست بوجوه إنس ولا جان، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

ثم هدأ الصوت فدخلوا عليه فوجدوه قد غمض، وسوي إلى القبلة وقبض[١].

وهذه من عاجل بشرى المؤمن؛ فالملائكة يبشرونه ببياض وجهه وبياض صحيفته، وحسن عمله وحسن خاتمته ورضوان ربه عليه، ويؤانسونه عند نزع روحه.

وهذه كرامة جليلة لا تكون إلا لمن صدق مع ربه، وأخلص في عمله، وتابع رسوله ﷺ.

******

(١) البداية والنهاية: ٩/ ٢١٩.

عاقبة ترك الصلاة

ليس بين الله - تعالى - وبين أحد من خلقه نسب؛ بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له كفوًا أحد.

وقد روى أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: **انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾** [الإخلاص: ١، ٢] وهو حديث حسن رواه الترمذي وغيره.

وصلة العبد بربه لا تكون إلا بالعمل الصالح، وكلما زاد صلاح العبد زاد قربه من ربه، وكلما قل صلاحه قل قربه، ولذا نجد أن أقرب المخلوقات طاعة لله هم الملائكة عليهم السلام، أسكنهم الله - تعالى - سماواته ورضي بجوارهم دون غيرهم، فهم في طاعة دائمة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ومن أقرب الطاعات لله - تعالى - الصلاة فهي اتصال بين العبد وبين ربه.

فقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: **«قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: «الحمد لله رب العالمين» قال الله: حمدني عبدي. فإذا قال: «الرحمن الرحيم» قال الله: أثنى علي عبدي. فإذا قال: «مالك يوم الدين». قال: مجدني عبدي، فإذا قال: «إياك نعبد وإياك نستعين»، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين»، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»** رواه أحمد ومسلم وأبو داود بسند صحيح.

والصلاة بمثابة المحطات التي يتزود منها العبد زادًا لروحه، وزادها أعظم من زاد الأبدان، والاهتمام به أجلُّ من الاهتمام بزاد الأجساد، وكم من قلوب

طهرت بالصلاة! وكم من ذنوب كُفّرت بالصلاة! وكم من عيوب سترت بالصلاة! وكم من خيرات حصِّلت بالصلاة! وكم من شرور دفعت بالصلاة! وهي الفرق بين الإسلام والكفر، روى بريدة بن الحصيب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر**» رواه أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم بسند صحيح.

ومع هذا كله فإننا قد نجد من يتركها بدون عذر، أو يتساهل في أدائها، وهذا أمر خطير جدا؛ فتركها جحوداً كفر، وتركها تساهلا كفر كذلك عند كثير من أهل العلم.

ولقد توعد الله - تعالى - من أخرها بويل - وهو واد في جهنم - أو شدة عذاب، قال تعالى: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ** ﴾ [الماعون: ٤، ٥]، قال سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -: الساهون عن الصلاة: هم المؤخرون لها عن وقتها؛ سماهم مصلين، لكنهم لما تهاونوا بها وأخروها عن وقتها، وعدهم الله بويل: وهو شدة العذاب، وقيل: واد في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لذابت من شدة حره، وهو مسكن من يتهاون بالصلاة ويؤخرها عن وقتها.

وقال تعالى: ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** ﴾ [مريم: ٥٩]، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ليس معنى أضاعوها: تركوها بالكلية، ولكن المعنى أخروها عن أوقاتها.

وقال سعيد بن المسيب - رحمه الله - معنى أضاعوها: أي أخروها، فلا يصلي الظهر حتى يأتي العصر، ولا يصلي العصر إلى المغرب، ولا يصلي المغرب إلى العشاء، ولا يصلي العشاء إلى الفجر، ولا يصلي الفجر إلى طلوع الشمس، فمن مات وهو مصر على هذه الحالة ولم يتب، وعده الله بغي: وهو واد في جهنم، بعيد قعره خبيث طعمه.

والوعيد الشديد على ترك الصلاة كثير لا يحصر، ومن لم يتعظ بالقرآن لم يتعظ بغيره، وفي القصة التالية عبرة وعظة لمن كان له قلب حي، وإدراك ووعي ليتقي وادي غيٍّ.

فقد ذكر الشيخ سعيد بن مسفر حفظه الله، وهو ثقة نحسبه والله حسيبه ولا نزكي على الله أحدًا، أن أحد الدعاة أخبره بقوله: كنا في خروج للدعوة في الأردن، وفي مدينة الزرقاء بالذات، وصلينا الجمعة في أحد مساجدها، وبعد الصلاة جلسنا مع مجموعة من طلاب العلم؛ منهم عالم من الكويت، وبينما نحن نتذاكر ونتساءل في عدة مواضيع من أبواب العلم إذا بالناس يدخلون المسجد بشكل غير عادي، وهم يصيحون، ويقولون: أين الشيخ؟ أين الشيخ؟ فدلُّوا على العالم الكويتي فجاءوه، وقالوا له: يا شيخ! توفي شاب في الصباح من هذا اليوم في حادث مروري، فحفرنا قبره ثم غسلناه، وكفناه وصلينا عليه وحملناه إلى قبره، وما أن وضعناه في قبره، إلا وثعبان عظيم معه في القبر، فرفعناه من القبر والثعبان لا يزال، فذهب الشيخ معهم، والداعية ناقل الخبر معهم، يقول: فلما أشرفنا على القبر، رأينا ثعبانًا عظيمًا في وسط القبر قد رفع رأسه وفتح فاه وأخرج لسانه وأخذ ينظر للناس نظرًا مخيفًا.

فقال الشيخ: اتركوا هذا القبر واحفروا له في مكان آخر على بعد مائتي متر عن القبر الأول، فلما انتهوا منه إذا بالثعبان في وسط القبر، فحسبوا أنه ثعبان آخر فنظروا في القبر الأول فما وجدوا فيه شيئًا.

فقال الشيخ: لو حفرنا ثالثًا ورابعًا لوجدنا ذلك الثعبان، ولكننا نريد إخراجه من القبر وقتله، فتعاون الجميع وأخرجوه من القبر ووضعوه على شفير القبر، والناس كلهم ينظرون إليه، وأصيب البعض بحالة ذعر وفزع وأغمي على البعض الآخر، وحملوا في سيارة الإسعاف إلى المستشفى، واستدعي رجال الأمن وطوقوا القبر، ومنعوا الاقتراب من القبر إلا للعلماء

ولأهل الميت، وحمل الميت مرة أخرى ليوضع في القبر، وما أن وضع في القبر حتى تحرك الثعبان حركة مذهلة؛ ثار على إثرها الغبار وأحدث صوتًا مفزعًا، ثم دخل من أسفل القبر فتفرق الناس عن القبر، وأخذ الثعبان يتلوى على الميت بدءًا برجليه حتى عمَّ جميع بدنه، وأخذ يعصر الميت حتى تكسرت أضلاعه، فقال الشيخ: اتركوه: فوارينا عليه التراب والثعبان معه، وذهبنا إلى والد الشاب فسألناه عن ولده الميت، فقال: ولدي طائع عندي وعند والدته، ولكنه ما كان يصلي أبدًا، فهذا عمله الذي صحبه في قبره، وما ظلمه الله ولكن ولدي هو الذي ظلم نفسه.

وصدق الرسول ﷺ؛ إذ يقول: في الحديث الذي رواه أنس بن مالك - رضي الله عنه -: **«يتبع الميت ثلاثة: أهله وعمله وماله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله»** متفق عليه.

وقد أورد الذهبي في كتابه «الكبائر» عند ذكر كبيرة ترك الصلاة: أن رجلا حفر لأخته قبرًا عند موتها فسقط في القبر كيس دراهم له، فلم يعلم به، وهو صاحب حاجة وفاقة؛ إذ كل ماله في ذاك الكيس، فدفنها ثم عاد إلى منزله، فتفقد المال فلم يجده، فعلم أنه لم يفقده إلا بعد القبر، فقال: أنبش قبرها وآخذ المال منه لحاجتي إليه فحفر قبرها، فوجده يشتعل عليها نارًا، فرد التراب عليها ثم عاد إلى أمه وقال: يا أماه، أخبريني عن أختي، وما عملها الذي كانت تعمل؟ قالت يا ولدي: وما سؤالك عنها؟ قال يا أمي: فقدت مالي الذي سقط في قبرها أثناء الحفر والدفن، فأردت استعادته فنبشت قبرها، وإذا به يشتعل عليها نارًا، فبكت أمها وبكى هو كذلك، فقالت أمها: يا ولدي! كانت أختك تتهاون بالصلاة وتؤخرها عن وقتها، فهذا حال من يؤخر الصلاة عن وقتها، فكيف حال من لا يصلي[١]؟

(١) الكبائر: ٢٦.

وقد سئل فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين عن الأحكام التي تترتب على ترك الصلاة: فقال: بعد أن عرفنا أن تارك الصلاة كافر كفراً مخرجاً من الملة؛ فإنه يترتب عليه أحكاما دنيوية وأحكاما أخروية؛ فأما الأحكام الدنوية فهي ما يلي: -

أولا: أنه يكون من المرتدين عن الإسلام فيدعى إلى الإسلام، فإن عاد وإلا وجب قتله، لما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «من بدل دينه فاقتلوه» رواه أحمد والبخاري.

ثانيًا: أنه لا يصح أن يزوج بمسلمة لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]

ثالثًا: أنه إذا ترك الصلاة بعد أن تزوج وهو يصلي، فإن النكاح ينفسخ، وتكون المرأة حرامًا، ويكون منها بمنزلة الأجنبي ما لم يعد إلى الإسلام ويصلي.

رابعًا: إذا مات لا يغسل ولا يكفن ولا يصلى عليه، ويحرم أن يدعو له أحد بالرحمة، ويخرج به إلى مكان من الأرض ويحفر له حفرة، ويرمى فيها لئلا يتأذى الناس برائحته.

خامسًا: لا تحل ذبيحته لكفره، ولو ذبح يهودي أو نصراني حل لنا أن نأكل ذبيحته.

سادسًا: لا يرث ولا يورث لقول رسول الله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم» متفق عليه من حديث أسامة بن زيد، رضي الله عنه.

سابعًا: سقوط الولاية ممن لا يصلي؛ فلو كان الأب كافراً، فلا يملك الولاية على ابنته عند النكاح.

ثامنًا: لا حضانة لتارك الصلاة على أحد من أولاده.

إلى غير ذلك من الأحكام، كترك السلام عليه ووجوب هجره...

وأما الأحكام الأخروية: فإنه يحشر يوم القيامة مع فرعون وهامان وقارون وأبي بن خلف[١].

فعلى المسلم أن يتقي الله وأن يحافظ على الصلاة، وأن يوقن بخطورة تركها أو التكاسل عنها أو تأديتها بعد وقتها، فإن الأمر خطير؛ جد خطير، وكبير؛ جد كبير نسأل الله أن يهدي القلوب لطاعته وأن يرزقنا الإخلاص.

******

(١) دروس الحرم المكي: ٥١-٥٣.

تأثير القرناء

الناس أجناس؛ منهم الطيب الذي يفوح طيبه من كل جارحة من جوارحه، فهو كالمسك؛ إما أن تمتلكه لتنتفع به في كل لحظة، وإما أن تُهدى إليك رائحته من غير ثمن.

ومن الناس من هو خبيث، يدنس بخبثه ونتنه كل منزل ينزله؛ بل وهو أخطر على العبد من المرض العضال، الذي يسري في الجسد كسريان النار في الهشيم، والكيّس الفطن هو الذي يختار أصحابه وينتقي أحبابه؛ ليجد من يعينه على الحق ومن يحذره من الباطل، ومما يذكر أن شابا اقترن بقرناء سوء دعوه إلى كل رذيلة، وحجبوه عن كل فضيلة.

ومما أوقعوه فيه تناول الحبوب المخدرة؛ إذ كان يجتمع هو وبعض أصحابه ممن يستخدمون الحبوب الحمراء.

وفي يوم من الأيام استخدمها في نهار رمضان حتى سكر وغاب عقله، واستولى عليه شيطانه، وترك ما بقي منها، وهي سبع حبات على رف علوي في غرفة نومه، وجاءت زوجته تريد إيقاظه عند الغروب، ومعها ابنتها الصغيرة التي لم يتجاوز عمرها سنة، وفي أثناء ايقاظها له دق جرس المنزل فنزلت زوجته لتفتح الباب، وأثناء نزولها قامت الطفلة الصغيرة بتناول الحبوب المخدرة تحسب أنها حلوى، وابتلعت منها خمس حبات وسقط الباقي على الأرض، وعادت أمها من الباب، ووجدت ابنتها ساقطة على الأرض، فطلبت من عم الطفلة أن يحملها للمستشفى، وعملوا لها عملية تنظيف حتى عادت إلى رشدها.

ولما أفاق أبوها من سكره وعرف القصة كلها حزن حزنًا شديدًا، وتألم ألمًا ذريعًا، وعقد العزم على التوبة، إلا أنه استشار قرين سوء فأشار عليه بترك الحبوب والاستعاضة عنها بالشراب، فوافقه على ذلك وأخذ بالنصيحة، وبقي

معهم فترة من الزمن يزداد فيها كل يوم سوءًا، حتى منَّ الله ـ تعالى ـ عليه بقرناء صالحين؛ دعوه إلى الصلاح وهدوه إلى الفلاح وكسب بهم النجاح، وتأثر بهم حتى صلح ظاهره وصلح باطنه، وندم على ما مضى من حياته من غير طاعة، وقال: كيف يهنأ العيش من غير استقامة.

ولازم هؤلاء الصالحين حتى تحول من مدمن مخدرات إلى مغسِّل للموتى.

ولمَّا أحس بلذة الهداية عمل على دعوة أصحابه القدامى، فلم يسمعوا له وأخذوا يستهزئون به، حتى بلغ عنهم هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتمت مراقبتهم وقبض على أحدهم متلبسًا بجريمته وأدخل السجن، وقدر الله له الهداية؛ إذ أنه أتى أحدُ الدعاة إلى السجن وألقى موعظة كانت سببًا في هدايته، وعندما حدثت أزمة الخليج ـ لا ردها الله ـ شمله العفو، فخرج من السجن، وبعد خروجه أخذ زوجته وأولاده وذهبوا إلى مكة لأداء العمرة، وبعدما رجعوا إلى الرياض بقي عدة أيام يتنقل بين أصحابه الصالحين، ويتزود من علومهم النافعة، ويروي عطشه الذي تجرعه سنوات طويلة، وفي يوم من الأيام أحس بثقل في جسده، فقال لزوجته: إنني سأدخل إلى الغرفة لأقرأ القرآن ثم أسترخي قليلا وأنام، فإذا أردتموني لأمر فستجدونني هناك، وذهب إلى غرفة نومه، وأخذ المصحف الشريف وفتحه وأخذ يقرأ الآيات البينات التي لو نزلت على جبل لتصدع لها وخشع لتأثيرها، واستطرد قليلا في القراءة ثم مال على شقة الأيمن والقرآن على صدره بين يديه، وسكنت أنفاسه على كلام الله.

وجاءت زوجته، وإذا به قد فارق الحياة على كلام ربه ليودع الدنيا بخير كلام، ويستقبل الآخرة بأفضل كلام.

وعلى النقيض تمامًا؛ إذ أصر أحد القرناء السابقين ـ أهل السوء ـ على

ضلاله، وتمكن منه شيطانه، وبقي على ذله وهوانه، فقد ازدحم الناس يومًا من الأيام، وجاءت الشرطة بأعداد هائلة إلى دورات مياه أحد المساجد، واستخرجوا صاحبًا قديمًا يعرفه هذا التائب من الحمام، قد ضرب إبرة الهيروين المخدرة، ومات على إثرها، وبقي في الحمام ثلاثة أيام حتى أنتنت رائحته، وتغير شكله، وتمزقت ثيابه، وغادر الدنيا بسكره، وعند الله يجتمع الناس ليوفى كل عامل عمله، ولا يظلم ربك أحدًا(١).

ومثل هذه القصة قصة رجل صحب الأخيار فترة من الزمن فصلح أمره واستقام حاله، وزاد إيمانه فكان يمثل المؤمن في مظهره وفي مخبره؛ تغبطه عند رؤيته، وفي يوم من الأيام صحب الأشرار، لينفثوا سمومهم في عقله وقلبه، وليدعوه إلى كل شر ورذيلة، وليغرسوا في قلبه بغض الصالحين، وكراهة الاستقامة في الدين.

وأخرجوه معهم إلى رحلة برية وفي أثناء الطريق انقلبت بهم السيارة وماتوا جميعًا، وحضر الناس ليشاهدوا الحادث، وإذا بهم يعرفون هذا الرجل بعد موته، قد حلق لحيته التي أطلقها مدة من الزمن، ويطيل ثوبه الذي قصره فترة من الوقت، ويجدون بجواره كأس الخمر بعد معاقرته لها، وموته وهو مخمور بها.

وكم من دمعة قطرت على هذه الخاتمة السيئة! فهل من قلوب واعية وآذان صاغية تتبع الهدى والرشاد، وتسعى إلى السعادة والانقياد، وتعمل ليوم المعاد؛ تصحب أهل السلام حتى يدخلوا دار السلام ويحيهم ربهم بالسلام؟!

*****

---

(١) الأشقياء: ٣١-٣٤ بتصرف.

أهل الهدي وأهل الهوي

أعظم داء ابتلي به الإنسان داء الغفلة، يُحول الإنسان إلى شيطان، والطاعة إلى عصيان، والعقل إلى هذيان، وتمر الدقائق كالثواني، والساعات كالدقائق، والأيام كالساعات، والأشهر كالأيام، والأعوام كالشهور، ويندم الإنسان في ساعة لا ينفع فيها الندم؛ يوم أن يقول: يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا.

نسي أنه عبد لا يعتبر بعبرة، ولا يتعظ بموعظة؛ له قلب لا يفقه به، وأذن لا يسمع بها، وعين لا يبصر بها.

وممن كان ضحية لداء الغفلة شاب يقول: عشت مرحلتي الدارسية الأولى مع والدي في بيئة صالحة؛ أسمع دعاء أمي وأنا عائد من سهري آخر الليل، أسمع صوت أبي في صلاته الطويلة، أتعجب في نفسي وأقول: ما أصبره كل يوم هكذا؟ لم أكن أعرف أن هذه راحة المؤمن، وأن هذه هي صلاة الأخيار، وكنت صاحب معصية؛ تكبر معي كلما كبرت، وتزداد قوة كلما قويت، على الرغم من النصائح التي أسمعها وتطرق مسامعي بين الحين والآخر.

عينت بعد تخرجي في مدينة غير مدينتي، وتبعد عنها مسافة بعيدة، لكن معرفتي الأولى بزملائي في العمل خففت ألم الغربة على نفسي.

انقطع عن مسامعي صوت القرآن، انقطع صوت أمي التي توقظني للصلاة وتحثني عليها، أصبحت أعيش وحيداً بعيداً عن الجو الأسري الذي عشته من قبل.

تم توجيهي للعمل في مراقبة الطرق السريعة، وأطراف المدينة للمحافظة على الأمن، ومراقبة الطرق، ومساعدة المحتاجين، كان عملي متجدداً،

وعشت مرتاحًا أؤدي عملي بجد وإخلاص.

ولكني عشت مرحلة متلاطمة الأمواج، تتقاذفني الحيرة في كل اتجاه لكثرة فراغي وقلة معارفي، وبدأت أشعر بالملل، ومن المشاهد المتكررة في حياتي العملية: الحوادث والمصابين.

في أثناء عملنا توقفت أنا وزميلي على جانب الطريق نتجاذب أطراف الحديث، فجأة سمعنا صوت ارتطام قوي أدرنا أبصارنا، فإذا بها سيارة مرتطمة بسيارة أخرى كانت قادمة من الاتجاه المقابل، هببنا مسرعين لمكان الحادث لإنقاذ المصابين... حادث لا يكاد يوصف.. شخصان في السيارة في حالة خطيرة أخرجناهما من السيارة، ووضعناهما ممدودين.

أسرعنا لإخراج صاحب السيارة الثانية الذي وجدناه قد فارق الحياة، عدنا للشخصين فإذا هما في حال الاحتضار، هب زميلي يلقنهما الشهادة، قولوا: لا إله إلا الله، لكن ألسنتهما ارتفعت بالغناء يرددان الأغنية، التي كانا يسمعانها قبل الحادث... أرهبني الموقف وهالني الأمر، وكان زميلي على عكسي يعرف أحوال الموت، أخذ يعيد عليهما الشهادة، فما استطاعا نطقها؛ بل أخذا يغنيان، ومن حضر من الناس يسمعهما ليشهدوا عليهما يوم القيامة؛ يو م الفضائح؛ يوم أن يتمنى الإنسان حسنة واحدة فلا يجدها.

واستمرا على الغناء حتى ماتا عليه، وما استطاعا أن ينطقا بلا إله إلا الله، ويلقيان ربهما بسوء عملهما وما تلذذا من الحياة بلذتها الحقيقية، وهي لذة الإيمان والعمل الصالح.

وكم من ضعاف العقول الذين اتخذوا الغناء معبودًا يقدسونه، حتى تمكن من قلوبهم وحال بينهم وبين الهداية!

وقصص سوء الخاتمة لأهل الغناء كثيرة جدا، حتى أن بعضهم عند الغرغرة لربما لعن الدين وتبرأ من الصلاة، وانخلع من الإسلام نسأل الله

العافية.

يقول الشاب راوي القصة آنفة الذكر والذي يعمل في مراقبة الطرق السريعة: تأثرت لموت المغنيين بغنائهما فتبت فترة من الزمن، ثم عدت إلى الغفلة مرة أخرى، وبعد مدة تزيد على ستة أشهر حصل حادث عجيب: شخص يسير بسيارته سيراً عاديا، وتعطلت سيارته في أحد الأنفاق المؤدية إلى المدينة. نزل من سيارته لإصلاح العطل في أحد العجلات، وعندما وقف خلف سيارته لِيُنْزِل العجلة السليمة: جاءت سيارة مسرعة وارتطمت به من الخلف، سقط مصابا إصابات بالغة.

حضرت أنا وزميل آخر غير الأول، وحملناه معنا في السيارة وقمنا بالاتصال بالمستشفى لاستقباله، وجدناه شابًا في مقتبل العمر؛ صاحب دين وتقوى، يبدو ذلك من مظهره، قمنا بإسعافه وحملناه، وإذا بنا نسمعه يهمهم ولا نفقه ما يقول، أرخينا مسامعنا فوجدناه يقرأ القرآن بصوت ندي وكأنه ليس مصابًا.

واستمر في قراءته ثم رفع أصبعه السبابة يتشهد، وسكت الصوت بعد ذلك ليفارق الدنيا على قراءة القرآن ويختمها بكلمة التوحيد... اتصل أحد الموظفين في المستشفى بمنزل المتوفى، كان المتحدث أخوه، قال عنه: إنه يذهب كل يوم اثنين لزيارة جدته الوحيدة في القرية، وكان يتفقد الأرامل والأيتام والمساكين، كانت تلك القرية تعرفه، فهو يحضر لهم الكتب النافعة والأشرطة الدينية.

وكان يذهب وسيارته مملوءة بالأرز والسكر لتوزيعها على المحتاجين، وحتى حلوى الأطفال لا ينساها ليفرحهم بها.

وكان يرد على من يثنيه عن فعل الخير، وكان يقول: إنني أستفيد من طول الطريق بحفظ القرآن ومراجعته، وسماع الأشرطة، والمحاضرات

الدينية، وأحتسب كل خطوة أخطوها[١].

وقد حفظه الله بهذا العمل الصالح؛ إذ تعطل بدنه إلا لسانه الذي يقرأ به القرآن، وقلبه الذي حفظ فيه القرآن، وأصبح داعية لغيره حتى بعد موته، ومضى إلى ربه بهذا العمل الذي نسأل الله أن يثقل به حسناته، وأن يكفر به سيئاته، وأن يرفع به درجاته، وأن يجعله من أهل الثبات بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وهذان إنذاران لهذا الإنسان؛ أحدهما: عن خاتمة المغني الذي عاش حياته للغناء، وقدم هواه على طاعة ربه فخسر خسرانًا مبينًا، والثاني: قدم حياته لربه وأفنى شبابه في الاستقامة لا يفتر لسانه عن ذكر الله، وعن بذل المعروف للآخرين، فكانت خاتمته حسنة، فهل يتعظ أهل الملاهي وروّاد المقاهي؟ وهل يستعدون للآخرة قبل حلول الموت؟ عسى أن تسمع الآذان وتعي القلوب وتترك الذنوب.

******

(١) الزمن القادم المجموعة الأولى: ٣٦-٤٢ بتصرف.

مات بجريمته الشنيعة

أكبر الكبائر ثلاث: الكفر ثم قتل النفس بغير حق، ثم الزنا كما رتبها الله في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله! أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك.

ولهذا الترتيب وجه معقول وهو أن قوى الانسان ثلاث: قوة العقل وقوة الغضب وقوة الشهوة؛ فأعلاها القوة العقلية التي يختص بها الإنسان دون سائر الدواب وتشركه فيها الملائكة؛ كما قال أبو بكر عبد العزيز وغيره: خلق للملائكة عقل بلا شهوة، وخلق للبهائم شهوة بلا عقل، وخلق للإنسان عقل وشهوة، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فالبهائم خير منه، ثم القوة الغضبية التي فيها دفع المضرة ثم القوة الشهوية التي فيها جلب المنفعة(١).

والذين يغلبون شهواتهم على عقولهم: فئة من الناس ساذجة، لاهمَّ لهم إلا بطونهم وفروجهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢].

وقد ذكر لي أحد الأحبة في الله، وهو من الثقات نحسبه والله حسيبه

---

(١) دقائق التفسير لابن تيمية: ٣-٤/ ٤٨٤، ومجموع الفتاوى: ١٤/ ٤٢٨.

ولانزكي على الله أحدا، في ليلة الجمعة التي توافق ٢٧/ ٢/ ١٤١٥ هـ: أن أحد أصدقائه في العمل كان يكثر البكاء ولا يرى لبكائه سببًا، وتكررت هذه الحالة مرات عديدة، ولم يجرأ على سؤاله لأنه أمر خاص به، وخشي أن يثير أحزانه أكثر مما هي عليه.

ومرت أيام كثيرة والرجل يزداد ألمًا وحزنا، فقال: أسأله، وأستخبر أمره؛ لأعرف حاله، فإن كان خاصا أقنعني، وإن كان لمشكلة حاولت مساعدته بقدر ما أستطيع... وتحيَّن الفرصة حتى وجدها فقال له: يا أخي، أراك تكثر البكاء فما الذي يبكيك؟ أشفقت عليك من كثرة أحزانك، قال: إنها قصة محزنة يتقطع لها القلب، ويندى لها الجبين، وكثيراً ما كان يظهر التأوه والتحسر، فاستعجلته، وقلت: أخبرني بالقصة لأساهم في التخفيف من معاناتك، فقال لي على استحياء شديد، والعرق يتصبب من وجهه: لقد كان لي صاحب سيىء سحبني إلى الشر معه؛ إذ كانت له صديقة يواعدها، ويخرج بها، ويقضى معها بعض الوقت، ثم يعيدها إلى أهلها، ولعل ذلك في وقت الدراسة حتى لا تنكشف.

وفي يوم من الأيام اتفقت معه أن يأتي بها في مكان من الأمكنة لا يلفت النظر، فأخذها على حسب الموعد الشيطاني، وعند ركوبها رآها صبي صغير فهددته ألا يخبر عنها، ومضت مع قرينها وكنت - أي المتحدث شاهد القصة - أنتظرهما لأشاركهما في جريمتهما، ولكنهما عدلا في سيرهما حتى وصلا إلى قبو تحت عمارة لم يكتمل إصلاحها، وجعلا مؤخرة السيارة إلى مدخل القبو ولم يطفىء السيّارة، فدخل غازها في القبو، وهما فيه حتى أغمي على المرأة وماتت في الحال. وأصيب الرجل بدوران في رأسه وصداع شديد يصرعه حينًا، ويقوم حينًا حتى وصل إلى مؤخرة السيارة، فسقط من قامته وأغمي عليه ثم مات.

وشاع خبرهما في أوساط الناس، وحضر رجال الأمن فوجدوهما قد فارقا الحياة على غضب الله وسخطه، وغابت عنهما مراقبة الرب تعالى، ونسيا أنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتناسيا أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم، كما يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٥ - ٧].

فماذا يقولان لله - تعالى - إذا سألهما عن صنيعهما؟ وماذا يقول ولي المرأة لربه، إذا سأله عن موليته، وعدم قيامه بحقها من الرعاية والملاحظة - لأن القوامة له - وتساهله في تزويجها، وعدم صيانتها عن الذئاب البشرية، وعدم منعها من المثيرات للشهوة.

لقد جنى ثمرة تفريطه فذاق مرارة الدنيا؛ عاش حزينًا كئيبًا منكسًا رأسه بين الناس، وله عند الله في الآخرة ما قد كتبه المولى له، وهو الذي يتولى عباده.

فهل يعي الأولياء والآباء حقوق الأولاد، ويؤدونها كاملة بلا نقص، ليحفظوا أعراضهم، ويحفظوا أعراض المسلمين.

وعاش هذا الشاب الناقل لهذه القصة في تفكير عميق، أذهله عن كل شيء، وأحزنه عن كل فرح، وأشغله عن كل ضيعة، وأخذ يراجع حساب نفسه ويقول: كيف أوافق النفوس الشريرة؟ وكيف أهوي في أحضان الرذيلة؟

وكيف أطاوع الهوى والشيطان؟

ولعل هذا الدرس أن يوقظ عنده الفطرة المستقيمة التي خلق عليها، ليكون من أهل الصراط المستقيم، وممن يحافظ على عرضه، ويدافع عن أعراض إخوانه المسلمين، وعسى أن يوقظ قلوب أمثاله من الغافلين الذين استمالهم الشيطان إلى أحضان الرذيلة، وسد عليهم طرق الفضيلة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

******

عاقبة المال الحرام

إن الله طيب ولا يقبل إلا طيبًا، أحل لنا الطيبات، وحرم علينا الخبيثات، أباح الحلال، وجعله بركة في المال، وسببًا لإجابة السؤال، وحرم علينا أكل أموال الناس بالباطل؛ بأي شكل من الأشكال، وبأي صورة من الصور؛ سواء بالغصب، أو بالسرقة، أو بالربا، أو بالغش، أو بالخيانة، أو بشهادة الزور، أو بالرشوة، أو بغيرها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله - تعالى - طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾**، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له».

ولقد وجد من الناس من استعبده درهمه وديناره وخميصته وخميلته، كما قال ﷺ في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -: «**تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه،**

مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة، كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفَّع».

والقصة التالية تحمل عبراً وعظات كثيرة، وتحتاج إلى الآذان الصاغية والقلوب الواعية، لعلها أن تتذكر وأن تعتبر وأن تأتمر وأن تنزجر، وعسى أن تستفيد من أحداثها ومجرياتها، يقول الراوي لها: قبل ثلاثة أعوام وجدت طفلة في الرابعة من عمرها، غارقة في مستودع المياة القذرة لدار من دور محلة الصليخ في بغداد، روعت بغداد لهذه المأساة، وأصبحت حديث المجالس، ونشرت الصحف والمجلات تفصيلاتها.

كانت الطفلة جميلة جدا؛ بيضاء البشرة، ذات شعر أصفر اللون، كانت أمها معلمة في مدرسة ابتدائية، وكان أبوها مديراً لإحدى الإعداديات، ولم يكن في الدار غير خادمة تخدم في المنزل، وتقوم بشئون الطفلة عند غياب أمها، وكانت الطفلة وحيدة أبويها، وكانت سلوتهما في هذه الدنيا تملأ الدار بشراً ومرحًا.

وعادت الأم من مدرستها ظهراً فلم تستقبلها طفلتها المدللة بالصخب المعتاد، فدخلت إلى صحن الدار مسرعة، فوجدت الخادمة في المطبخ تنظف الأواني، فسألتها عن طفلتها فزعمت أنها كانت معها قبل لحظات...!

ودخلت الأم غرف الدار، وفتشت مسالكها، فلم تجد أثرًا لطفلتها، فخرجت إلى الشارع فاقدة الوعي، تسأل الجيران والغادين والرائحين من الناس دون جدوى. وجاء أبوها، فلم يترك محلا يشتبه بوجودها فيه إلا وطرقه مستغيثًا مستنجدًا دون جدوى أيضًا، واتصل الوالدان بالشرطة ورجال الأمن، فقلبوا بغداد رأسًا على عقب دون أن يجدوا للطفلة أثرًا.

ومضت الساعات، وتعاقبت الأيام، والطفلة مجهولة المكان والمصير، وهطلت الأمطار غزيرة، وتدفقت المياه من سطوح المنزل وشرفاته، ففاض

مستودع المياة القذرة، وفتح عامل التنظيف غطاء المستودع، فوجد الطفلة البريئة طافية فوق سطح الماء، وأسرع رجال الأمن إلى المنزل، وبدءوا التحقيق مجدداً.

كان غطاء المستودع ثقيلا بدرجة لا تقوى على رفعه، فأشارت أصابع الاتهام إلى الخادم ولكن لماذا أقدمت الخادم على فعلتها الشنيعة؟

قال والد الطفلة: إن الخادم ابنته، يرعاها كما يرعى الطفلة سواء بسواء.

وقالت أم الطفلة: إن الخادم أمينة مستقيمة السيرة، ولم تجد عليها ما يمس سيرتها من قريب أو بعيد. وقال الجيران: إن العائلة كانت ترعى الخادم رعاية مثالية؛ تتناول الطعام مع العائلة يداً بيد، وترتدي الثياب نفسها التي كانت ترتديها الطفلة، وتنام في الغرفة ذاتها التي تأوي إليها الأم والطفلة، وكانت الأم تحرص على أن تجلس الخادم معها عندما تزور أو تزار.

وقال الوالدان: إنهما لا يشكان في الخادم، ولا يمكن أن تقدم على إغراق الطفلة عمداً. ولم يكتف رجال الأمن بما سمعوا، وأصروا على التعمق في التحقيق، وسأل أحدهم الخادم: لماذا أغرقت الطفلة؟ فانفجرت الخادم باكية منتحبة، وأصرت على الإنكار، وكان ا لوالدان يحميان الخادم ويصران على براءتها.

وطلب رجال الأمن أن يستصحبوا الخادم إلى مقر الشرطة، ليدققوا في التحقيق، وامتنعت الخادم، ولاذت بأم الطفلة تتمسك بأهداب ثيابها، فرجت الأم أن يتركوا الخادم وشأنها؛ لأنها تشك بنفسها ولا تشك بالخادم مطلقًا.

وأيد الأب رجاء الأم، وقال: إنه يتنازل عن حقه الشخصي. ولكن رجال الأمن أصروا على استصحاب الخادم إلى مقرهم، وقالوا: إنكم إذا تنازلتم عن حقكم الشخصي، فإن الحق العام لا يمكن التنازل عنه.

وابتدأ الرد والبدل بين رجال الأمن من جهة، وبين الأبوين من جهة

أخرى، وأخيرًا اضطر رجال الأمن إلى خطف الخادم خطفًا، وهي تصرخ بأعلى صوتها وتنوح.

وفي مقر رجال الأمن، اعترفت الخادم بأن أباها قد أمرها بإغراق الطفلة في مستودع المياه القذرة وأنكر أبو الخادم أقوال ابنته، وزعم أنها اعترفت خوفًا من الضغط والتعذيب، وأنها صغيرة لا تقدر خطورة أقوالها.

وبذل رجال الأمن محاولات كثيرة، واستعملوا كل أساليبهم في التحقيق دون أن يتزحزح أبو الخادم عن إنكاره.

وعند عرض القضية على المحاكم، حكم على الخادم بالسجن خمس سنوات تقضيها في سجن الأطفال غير البالغين؛ حيث تقوِّم أخلاقها وتتعلم حرفة من الحرف، وصدر الحكم ببراءة والدها، فغادر التوقيف بعد قضاء شهرين فيه.

وفي السجن اعترفت الخادم بكل شيء...

لقد قبض والدها مائة دينار من شابين شقيقين فصلا من الإعدادية لأنهما مهملان في الدروس وغير مستقيمي السيرة، وكان السبب في فصلهما من المدرسة والد الطفلة الغريق، الذي هو مدير تلك المدرسة. لقد أراد والد الطفلة أن يطبق النظام نصا وروحًا، وكان يشعر شعورًا كاملا بمسئوليته أمام رجال التربية والتعليم، وكان يشعر قبل كل ذلك وفوق كل ذلك بمسئوليته أمام الله سبحانه وتعالى، لهذا أصر على فصل الشقيقين غير ملتفت إلى رجاء الراجين والتماس الملتمسين.

وحين يأس الطالبان من عودتهما إلى المدرسة، أغريا والد الخادم بالمال وأمراه أن يحرق قلب والد الطفلة كما أحرق قلبيهما.

وكان أبو الخادم فرَّاشًا «آذنًا» في المدرسة نفسها، وكانا يعرفان أن ابنته تعمل في دار المدير، وهي قادرة على القضاء على حياة ابنة المدير. وقتلها يحرق

قلب المدير أكثر مما يحرقه شيء آخر.

ولكن المحاكم قضت ببراءة أبي الخادم، والمحاكم تحكم استنادًا إلى أقوال الشهود واعتراف المتهم. وفي تلك القضية بالذات، لم يكن شهود، والمتهم لا يعترف بجريمته، وكيف يعترف وهو يعرف أن الاعتراف يقوده إلى المشنقة؟

قال القضاء الأرضي كلمته، فلم تبق غير كلمة قضاء السماء، وخرج أبو الخادم من السجن يستنشق عبير الحرية، وفي أمله أن يتمتع بالمال الحرام...

فما الذي حدث؟

أقيم حفل عائلي فرحًا بخروج والد الخادم من السجن، استمر حتى الهزيع الأخير من الليل وبددت العائلة في الحفل شطرًا من المال؛ طعامًا وشرابًا.

وفي صباح اليوم التالي، سقط والد الخادم مريضًا لا يقوى على الحركة، ولجأت الأسرة إلى الأطباء يدفعون أجرة العيادة، ويدفعون ثمن الدواء.

وطالت مدة مرض الرجل، حتى امتدت إلى أربعة أشهر، كانت كافية لتبديد المال الحرام، فاضطرت العائلة إلى الاقتراض، وقصد والد الخادم المستشفى الحكومي الذي يعالج بالمجان، لأنه بدد ماله ولم يعد قادرًا على استدعاء الأطباء.

كان يشكو مرض السكر، والضغط العالي، والتدرن الرئوي، ثم أصيب بالزكام الحاد إضافة إلى كل هذه الأمراض، وارتفعت حرارته، وانهارت قواه، وكان كما يبدو في المستشفى شبحًا من الأشباح.

وفي المستشفى انتقل من طبيب إلى طبيب، ومن ممرضة إلى ممرضة، محمولاً على النقالة.

وكان كل مريض يلقى عطفًا خاصا من الناس، ولكن هذا الرجل يلقى التشفّي والاشمئزاز.

كانت الهمسات تتلقفه في كل مكان، وكان كل من يراه يشير إليه بأنه قاتل الطفلة، وأنه لا يستحق العطف والحنان.

وفي المستشفى فحصه الطبيب المختص وأعطاه الدواء اللازم، وكان من ضمن الدواء إبرة بنسلين. وزرقته الممرضة بالإبرة، فغادر المستشفى مع زوجه إلى الدار، وفي الطريق شعر بخدر في جسمه، وبارتباك نبضات قلبه، ثم صرخ فجأة: الطفلة... الطفلة...

وسألته زوجه: أية طفلة؟

وقال الرجل: ألا ترينها؟! إنها تشد بكلتا يديها - كلتيهما - على عنقي.

ومال رأسه على كتف زوجه رويداً رويداً، واحتقنت عيناه، وخفت صوته الذي كان يردد: الطفلة... الطفلة...[1].

ثم فارق الحياة بهذه الجريمة البشعة التي تأباها القلوب المؤمنة، والأفئدة الرحيمة، والصدور السليمة، وتتدنس بها القلوب المظلمة التي تعيش في الظلام، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٨، ٥٩].

وهذه عاقبة من رضي الدنيا، وعمل لها، وأبغض الآخرة ونسيها؛ أعطي نصيبه في العاجلة وعجلت له طيباته فيها، وسيتمنى يوم القيامة أن له الأرض ومثلها معها، ليفتدي بها من عذاب يوم القيامة، ولكن هيهات أن ينفع الندم في يوم توفَّى كل نفس ما عملت، لا ظلم اليوم، إن الله سريع الحساب.

وهذا جزاء من نسي الله فأنساه نفسه، وعاقبة من لم يراقب ربه، ومن أخلد إلى الأرض واتبع هواه وأراد لذة عاجلة، فعاجله الموت بعد أن فرق بينه وبين أهله، وبينه وبين لذته.

******

---

(١) عدالة السماء: ٧٩-٨٧.

خاتمة السفور والاختلاط

ديننا الإسلامي هو دين العفة والطهر والنقاء، ما من خير إلا أمرنا به وما من شر إلا حذرنا منه، وقد قضى على وحشية الجاهلية ودياثة الوثنية، وطهَّر الأعراض من الزنا والخنا والفجور، فأوجب على المرأة المسلمة أن تحتجب؛ لتستر مفاتنها وتصون محاسنها حتى لا تكون عرضة للوحوش البشرية الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، لا همَّ لهم إلا إشباع فروجهم وبطونهم فهم كالأنعام في ذلك، وتفضلهم الأنعام في التسبيح لله الواحد القهار.

قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وخير للمرأة أن تقرَّ في بيتها، وأن تقوم بشئونه وشئون أولادها، فهي راعية في بيت زوجها يقول الله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وإذا كان هذا في حق نساء النبي ﷺ فهو في حق نسائنا أكبر وألزم.

ومما يفتت القلب كمداً ما يشاهدفي كثير من بلاد المسلمين من سفور المرأة وتبرجها، واتباعها لكل ناعق وتدنسها بالقذارة الغربية حتى أصبحت بلا حياء ولا خجل.

وسأذكر واحدة من آلاف القصص الأليمة التي تبين خطورة السفور والاختلاط؛ ففي أيام الصيف في احدى البلاد وعلى ساحل البحر تحدث مآسي وأحداث، تعمل عملها المدمر في تخريب البيوت، وفي انهيار الأخلاق والفضيلة.

قبل خمسة أعوام ألحت عليه زوجه، وطالبته بالسفر إلى المصيف البحري: تستنشق نسيمه العليل، وتستحم في أمواجه، وتخالط الغادين والرائحين عارية متهتكة، متمتعة بحريتها الحمراء، تقليداً للغربيات دون رادع أو دين، وكان ما هو معروف مألوف. . . تعرفت العائلة بعائلة أخرى، وكان في العائلة شاب مفتول العضل، جميل الطلعة، له هامة وقامة، ويملك سيارة فارهة.

وعرض الشاب خدماته وأريحيته من أجل الشيطان، فكان وعد ولقاء، وكان استحمام في البحر، وكان غزل بين الشاب والزوجة، وكان الرجل - الزوج - في شغل شاغل عن زوجه وولدها الطفل في رؤية لحوم البحر البشرية كاسية عارية، وكان له موعد ولقاء حرام!

كان الشاب يتطوع كل يوم لنقل العائلة: الزوج والزوجة وطفلهما بسيارته صباحًا ومساءً إلى البحر، وكانوا يستحمون جميعًا في مكان واحد. وكانت الزوجة لا تحسن السباحة، فتطوع الشاب لتعليمها السباحة، وكان زوجها يبتعد عنهما ليلاقي من يلاقي بعيداً عن أنظار الزوجة، وكان ينشر شباكه متصيداً أعراض الناس، تاركًا عرضه لذلك الشاب، كما يترك الراعي الغنم للذئب.

وابتدأ الأمر بين الزوجة والشاب إعجابًا بالأريحية، ثم تطور الأمر إلى الإعجاب بالجسد، ونام الحارس فرتع اللص، فكان لابد للنار أن تشتعل فتحرق الإخلاص الزوجي، وتحرق الطهر والعفاف.

وكانت الزوجة تحب زوجها ولا تطيق عنه صبراً، فأصبحت تكره لقاءه وتحسب الدقائق والساعات للقاء حبيبها الجديد.

وأراد الشاب أن يتخلص نهائيًا، فبيت في نفسه أمراً. . .

أظهر إخلاصه وتفانيه للزوج، وأبدى إعجابه بمواهبه ورجولته، وكانت

زوجه لا تنفك تذكر شهامة الشاب وتحببه لزوجها، فوثق به الزوج وسلمه مقاليد أمره كله.

وفي يوم من الأيام تمارضت الزوجة، فعكفت في شقتها ومعها طفلها، فاستأذن الزوج أن يصاحب صديقه الشاب مبحرًا ليستحم في البحر.

وعاد الشاب وحده بعد ساعتين ليعلن للزوجة أن زوجها قد غرق في البحر، وأنه حاول انتشاله فباءت محاولاته بالفشل.

لقد كان البحر خاليًا من الناس، وكان البحر مائجًا صاخبًا، وكان الموج يرتفع كالجبال ويهبط كما تهبط الشهب من السماء. وكان الزوج لا يحسن السباحة، ولكن الشاب استدرجه إلى السباحة بعيدًا عن الشاطىء، ثم تركه طعمة للأمواج يستغيث فلا مجيب، ثم ابتلعته الأمواج إلى البعث والنشور.

كانت الزوجة يتيمة لا معيل لها، وكان الشاب وحيدًا في شقته بعيدًا عن أهله.

وعرض عليها الشاب بحنان ولهفة أن تشاركه شقته ومصيره، وأبدى لها استعداده لاحتضان طفلها من أجلها ومن أجل حبها غير المقدس، ووعدها بالزواج.

واستكانت الزوجة للشاب، فآوت إلى شقته واستقرت فيها، وكان طفلها في الرابعة من عمره، يظن أن الشاب أبوه، فيناديه من كل قلبه يا أبي يا أبي.

طالبته الزوجة بالزواج فماطل أولا بلطف وتودد، ثم بقسوة وعنف، وبعد أشهر تبدل الشاب اللطيف إلى صلٍّ[1] خبيث فأظهر تذمره منها ومن طفلها، وتعلق قلبه بغيرها من النساء، فأصبح في شقته حاضرًا كالغائب، يأوي

---

(١) الصِّلّ: هو نوع من الحيات خبيث.

إليها في الهزيع الأخير من الليل.

وفي ضحى يوم من أيام الشتاء، كان الشاب يتناول فطوره، وكانت تلك الزوجة تعاتبه وتطالبه بالزواج بها، فأظهر أنيابه السامة، وكشف عن الحقيقة التي كان يسترها من قبل، وطالبها بالجلاء عن الشقة لأنه اعتزم الزواج والاستقرار.

وانهمرت دموعها غزيرة، وذكرته بالماضي الحلو الجميل، ولكنه كان كالصخرة الصماء قسوة وعُنْفًا.

وكان الطفل البريء لا يعرف للدموع معنى، ولا يفهم ما يدور حوله من أحداث.

وكان الطفل يلاعب مسدس الشاب الذي كان إلى جانبه، وكان الشاب في شغل شاغل عنه، وكان يعلم يقينًا أن المسدس خال من العتاد. . . . لأنه كان قد أخرج منه عتاده بعد عودته إلى شقته في الهزيع الأخير من ليلة أمس.

ولكنه كان ثملا لا يفرق بين النور والظلام، بعيداً بعقله في تيار الخمر والرذيلة، وفجأة انطلقت رصاصة من مسدسه واستقرت في الجزء الأسفل من قلب الشاب، فتلوى لحظات ثم سقط من كرسيه فاقد الوعي.

وفي هذه اللحظات نطق الشاب بكلمات قليلة كانت آخر ما نطق في حياته، وكان الجيران قد تجمعوا فور سماع إطلاق النار، فقال مخاطبًا الزوجة: «لقد أغرقت زوجك في البحر ليصفو الجو لي معك وحدي».

وجاء الطبيب على عجل، فوجد أن أمر الشاب قد انتهى وأنه فارق الحياة[1] . ورحل في زمن لا يخطر له على بال، وكان يظن طول العمر وألهاه الأمل، ولكن حال الأجل بينه وبين كل لذة، وفارق الدنيا وهو يحمل إصره

---

(١) عدالة السماء: ٦٤-٩٦.

على ظهره، وسيقف بين يدي ربه فيقول له الغريق: لماذا أغرقتني؟ ولماذا فرقت بيني وبين زوجتي وطفلي؟ وعندما يسكت اللسان وتتكلم الجوارح بكل ما عملت، ويتمنى لو أنه سلم من مخالطة الأشرار ومن موافقة الفجار.

وما هذه القصة الإ واحدة من مئات أو أكثر تبين عاقبة السفور والاختلاط وعاقبة انعدام الغيرة، وتوضح أن من تتبع عرض غيره قُيِّض لعرضه من يتتبعه ثم يفضح في جوف داره.

******

حب الغناء طريق الشقاء

من الأمراض الفتاكة التي أضرت بالأرواح مرض الهوى، إذ هو سلاح الشيطان ومرتع العصيان حذر الله تعالى منه رسله، يقول تعالى لداود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]

وهذا المرض يهوي بالإنسان في مهاوي الردى وفي أحضان الشقاء؛ لا يعتبر بعبرة تمر عليه، ولا يتعظ بموعظة سمعتها أذناه. له قلب لا يفيق به وأذن لا يسمع بها وعين لا يبصر بها إن هو إلا كالأنعام بل هو أضل. ومرض الهوى هو المرتع الخصب لأهل القلوب المريضة الذين يتبعون الشهوات ويزهدون في الحسنات همّهم دنياهم وشغلهم أجسادهم وأهواؤهم لا تخطر الآخرة لهم على بال بل ولا يرغب أحدهم في صحبة أولى الألباب صدره ضيق عن الهداية متسع للغواية قلبه قاس أشد من الحجارة، ظلامه أكثر من ضيائه. وعلامة ذلك الإنابة لدار الغرور، والتجافي عن دار الخلود، وعدم تذكر الموت أوالاهتمام به يقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٣، ٢٤].

ومن أهل الهوى أهل الغناء المحرم الذي ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل والذي يشغل عن ذكر الله ويدنس الاسماع ويقتل الأوقات وقد ابتلي به الكثير من الشباب حتى أصبح محبوبًا يعشقونه ولربما قدموا سماعه على سماع القرآن بل ولا يجتمع حب القرآن وحب الغناء إما قرآن وإما غناء ولو لم

يكن من مفاسده إلا أنه صوت الشيطان وهو صوت ملعون فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «**صوتان ملعونات في الدنيا والآخرة مزمار عند نعْمة ورنة عند مصيبة**» حديث حسن رواه البزار وغيره.

ورغبة في إنذرار أهل الغناء من سوء الخاتمة أسوق هذه القصة التي تحكي واقعًا حقيقيًا نخشاه على الكثير من الناس وهو أن شابًا من الشباب الذين استزلهم الشيطان وزين لهم العصيان وأنساهم ذكر الرحمن وحجب عنهم الإيمان فلا اهتمام لهم إلا بظواهرهم مع دناسة مخابرهم والله تعالى لا ينظر إلى الصور والأجساد ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال بل وبين حال المنافقين فقال تعالى عنهم: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾ [المنافقون: ٤].

كان هذا الشاب يكثر التنقل بين مكة وجدة ويقطع الطريق بسماع مزمار الشيطان وما تذكر نعمة الله تعالى عليه الذي سخر له الأرض ويسر له السيارة وطوى له الأرض وسهل عليه السفر الذي هو من الأصل قطعة من العذاب وكأن هذا الشاب ما كان إذا ركب السيارة يقول بسم الله الله أكبر سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون.

مضى هذا الشاب في إحدى سفراته وفي مكان من الأمكنة انقلبت به السيارة وهو يسمع شريط غناء وتأثر أثرًا بالغا وتأثرت سيارته كذلك وحضر حادثه رجال صالحون يحبون الخير لغيرهم كما يحبونه لأنفسهم وقفوا عند الحادث وقالوا ننظر لحال هذا الإنسان وكيف أصبح مع هذا الحادث فوجدوه في النزع الأخير وفي لحظات حياته الأخيرة ووجدوا مسجل سيارته مفتوح على أغاني باطلة من أغاني الغرب والشرق فقالوا نقفل الشريط أولاً ثم نتجه إلى الشخص ونلقنه الشهادة فأقفلوا المسجل ووجدوا السائق في سكرات

الموت فقال بعضهم لبعض هذه فرصة لعل الله أن يجعل على أيدينا فلاح هذا الرجل وصلاحه ونجاته في دنياه وآخرته يقولون فأخذنا نقول له يا هذا قل لا إله إلا الله فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة فما استطاع أن يقولها بل وكأنه لا يسمعنا كان في أذنيه وقرًا وصممًا إذ حيل بينه وبين الشهادة لأنه ما كان يألفها حال الصحة وما كان يعمل بهما حال الحياة وألحوا عليه لعله أن ينطقها مرة واحدة ولكنه لم يستطع نطقها ثم قال كلمة عظيمة تشيب الرأس وتفتت القلب إذ قال يلعن دينك ودين دينيك ما بدي أصلي ولا بدي أصوم ثم مات على ذلك والعياذ بالله، وظهر على حقيقته في آخر لحظة من حياته الدنيا.

وهذه حالة مؤسفة جدا أن يودع الإنسان الدنيا بالمعصية ويستقبل الآخرة بغضب الله وسخطه ومثل هذه القصة قصة ثلاثة شباب انطلقوا في سيارة فارهة من مدينة إلى أخرى وكان يصحبهم الغناء والموسيقى بصوت مزعج وكم من حجر مروا عليه سمع غناءهم ويشهد عليهم وكم من دابة ومن أرض ومن بشر سمع ذلك ويؤدي الشهادة بين يدي الله تعالى وكل هذه الأمة معافى إلا المجاهرين يروى أبو هريرة رضي الله أن رسول الله عنه ﷺ قال: **«كل أمتي معافى إلا المجاهرين وإن من الجهار أن يعمل الرجل عملا ثم يصبح وقد ستره الله تعالى فيقول: عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه»** متفق عليه.

وفي لحظة من لحظات مسيرهم انقلبت بهم السيارة واجتمع الناس على كومة من الحديد والشباب قد تحولوا إلى كتل من اللحم داخل السيارة ونقلوا في الإسعاف ولا يزال بهم رمق من الحياة وقبل الوصول إلى المستشفى أخذ السائق يتحرك حركة خفيفة ففرح أحد المسعفين فرغب في انقاذ روحه قبل إنقاذ جسده وأحب سعادته وأحب فلاحه وصلاحه ونجاته فأخذ يقول له يا أخي قل لا إله إلا الله لتدخل الجنة وتنجو بها من النار ورددها عليه عدة مرات ولكنه استعجم أمامها وما استطاع أن ينطقها لأنه كان ممن يحاربها، وممن لم يقم

بشروطها، وممن اتبع هواه، وتتلمذ على يد الشيطان، وقدم هوى نفسه على طاعة ربه، فقال السائق وهو في السيارة هو في سقر هو في سقر وأغمض عينيه على هذه الكلمة وصمت لسانه على هذه الكلمة ولقي ربه بهذا العمل وسيتبرأ منه الشيطان عندما يقول إنما دعوتك فاستجبت لي وما كان لي عليك من سلطان ما أنا بنافعك ولا مدافع عنك مآلي أنا وإياك العذاب وبئس المصير.

وأقفلت صحيفة هذا ومن قبله على الغناء المحرم وقامت قيامته على الغضب الأليم وسيتمنى لو أنه قضى حياته مع القرآن والذكر وتطهر من الغناء والعهر ولكنه طاوع النفس الأمارة بالسوء وتلذذ بمزمار الشيطان وأحب حديثه فكانت عاقبته وخيمة.

ولو تفكر أهل الغناء لأيقنوا أنه ضيق في الصدر وزيادة في الوزر وحرمان من الأجر وانتكاس للقلب وإيقاع في الذنب وسوء في الخلق وضيق في الرزق وهم وغم وكرب وكذب فهل إلى خروج من سبيل وهل نستبدله بالكلام الجميل حتى نسلم من العذاب الوبيل فإننا إلى الآخرة راحلون عما قريب.

وهل إلى معرفة الحق من طريق؟! وهل من صحبة لأهل القرآن وبغض لأهل الغناء عسى أن يستيقظ النائمون وأن يتذكر الغافلون وأن يعود المعرضون إلى طريق المخلصين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟!

وليعلم المسلم أن العين مدخل خير أومدخل شر وإن الأذن كذلك وإن اللسان كذلك واليد كذلك وهكذا بقية الجوارح فإن سحرة فرعون تأثروا بأبصارهم وقد سمعوا بآذانهم وعظ موسى وتذكيره وتخويفه لهم بالله ولكنهم لم يسمعوا ولم يتأثروا ولما رأوا آية العصا قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون وصبروا على عذاب فرعون بعد أن وقر الإيمان في قلوبهم وقالوا لفرعون اقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا وقد سبق بيان ذلك.

ومن التأثر بالسماع ما روي عن سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير عندما تأثرا

بسماع القرآن من مصعب بن عمير رضي الله عنهم حتى قال سعد بن معاذ لقومه بعد إسلامه يا بني عبد الأشهل ماذا تعدونني فيكم قالوا أنت سيد مطاع مرنا بما تشاء فنحن خلفك ومعك قال فإن كلامكم علي حرام حتى تشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله فدخلوا في دين الله أفواجًا وما بقي بيت من بيوت بني عبد الأشهل إلا وفيه موحد لله الواحد القهار.

ومن التأثر بالصدقة وبذل المعروف باليد ما ورد عن أبي الحارس الأولاسي فيض بن الخفر قال اشتغلت في صغري وأول حياتي باللهو والغناء والمجون والخلاعة وفي يوم من الأيام مررت ووجدت فقيراً على الطريق قال لي إني أريد رُمّانة أسد بها جوعي وأقاوم بها مرضي فذهبت إلى السوق واشتريت رمّانة وأعطيته إياها فقال لي قبل الله توبتك فأجاب الله دعوته وما أن أمسيت حتى تغير قلبي وكثر صلاحي ورغبت في الخير وزهدت من الشر وكان الوقت وقت حج فعزمت على الحج فاعترضني أهل شراب وسكر فسألت الله تعالى أن يحفظني منهم فحفظني ومضيت فوجدت أسداً فسألت الله أن يصرفه عني فصرفه عني فمضيت وبينما أنا نائم رأيت كأن مخلوقًا في يدي أجره برباط فقلت له من أنت قال أنا إبليس كنت أجرك بحبل المعاصي ذات اليمين وذات الشمال فلما اهتديت وأطعت ربك كنت أنت الذي تجرني أينما تريد.

وهكذا من أطاع الله طوع الله له كل شيء وإذا أراد الله بعبده خيراً يسر له سبل الخير وسلك به طرق الهداية وقد حدثني أحد الأخوة الفضلاء أن صديقًا له في العمل كان يحب الغناء ويعشقه كثيراً ومن عشقه له فتح له تسجيلات غناء وكان يدعو الناس بها إلى المعصية وسماع المحرم وكم دعا إلى الضلال بها وفي إحدى رحلاته من مدينته إلى مدينة أخرى وجد سيارة قد انقلبت بأهلها وفارقوا الحياة وكان هو من أول من باشر الحادث فأسقط في يده وشاهد الموتى أمامه وقال لنفسه لو أنني أنا الميت بماذا ألقى الله تعالى وما العمل الذي قدمت

وعلى الفور تاب في تلك اللحظة وعقد العزم على الصدق فيها واتصل بمحل تسجيلاته الذي يملكه وقال للعامل فيه اقفله ولا تبع منها شيئا حتى آتيك ثم رجع إلى مدينته وتخلص من جميع أشرطة الغناء إذ قلبها إلى أشرطة قرآن ومواعظ بل وقلب ترخيص المحل من غناء إلى تسجيلات إسلامية وسماه تسجيلات التوبة الإسلامية وصلحت أحواله وأخذ يدعو بالشريط الإسلامي واهتدى على يديه الكثير وأخذ يكفر الماضي ونسأل الله قبول توبته.

ومثل شاب انكر عليه أخوه الأصغر سماعه للغناء فأبي الأكبر وهدد الأصغر بالضرب أو انزاله من السيارة فبكى الأصغر وقال يا أخي اسمعتني ما لم أسمعه وآذيتني بغضب الله وتريد إنزالي من السيارة واشتد بكاؤه فما كان من أخيه الأكبر إلا أن قال هذا البكاء كله من أجل الأغنية لأنها محرمة لماذا لا أفعل مثلك وأترك الغناء وعزم على تركه وتركه وصلح حاله وشكر الله الذي هداه.

و ما هذا الإ غيض من فيض وما هو إلا نزر قليل أردت به التذكير وإلا فالقصص في هذا كثيرة نسأل الله أن يطهر القلوب من الذنوب وأن يستر العيوب وأن يحفظ اسماعنا وأبصارنا وألسنتنا وجميع جوارحنا وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين لا يشبعون من سماعه ولا يملون من قراءته ولا يستبدلونه بسواه ونسأل الله أن يبصر المؤمنين بخطورة الغناء وسماعه ويكفي أنه لهو الحديث وأنه زور الكلام ولغوه وأنه صوت الشيطان وأنه السمود وأنه حديث الشيطان.

وأختم هذا التذكير بكلام الإمام العالم الرباني ابن القيم رحمه الله قال في إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان وأسماء السماع الشيطاني كثيرة منها تسميته باللهو واللعب والزور واللغو والباطل والمكاء والتصدية ورقية الزنا ومنبت النفاق وقرآن الشيطان والصوت الأحمق والصوت الفاجر وصوت الشيطان ومزمور الشيطان والسمود وغيرهما كثير ثم أورد رحمه الله تفصيل ذلك مؤيداً

بالأدلة من الكتاب والسنة وكلام الصحابة والتابعين وهو كلام نفيس جدا ينبغي لكل طالب حق وراغب في الهدى ومتبع للسنة أن يطلع عليه ليعرف الصواب ويرجع إلى رشده وصوابه ويتحرر من رق العبودية للنفس والهوى والشيطان[١].

ولقد أحسن القائل:

تلي الكتاب فاطرقوا لا خيفة ... لكنه إطراق ساه لاهي
وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا ... والله ما رقصوا لأجل الله
دف ومزمار ونغمة شادن ... فمتى رأيت عبادة بملاهي
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا ... تقييده بأوامر ونواهي
وأتى السماع موافقا أغراضها ... فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه
أين المساعد للهوى من قاطع ... أسبابه عند الجهول الساهي
إن لم يكن خمر الجسوم فإنه ... خمر العقول مماثل ومضاهي
فانظر إلى النشوان عند شرابه ... وانظر إلى النسوان عند ملاهي
وانظر إلى تمزيق ذا أثوابه ... من بعد تمزيق الفؤاد اللاهي
واحكم فاي الخمرتين أحق بالتحـ ... ـريم والتأثيم عند الله

وقال آخر.

برئنا إلى الله من معشر ... بهم مرض من سماع الغنا
وكم قلت يا قوم أنتم على ... شفا جرف ما به من بنا
شفا جرف تحته هوة ... إلى درك كم به من عنا
وتكرار ذا النصح منا لهم ... لنعذر فيهم إلى ربنا

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٢٣٧-٢٦٧).

فلمـــا اســتــهـــانوا بتنبيهنا ... رجـــعنا إلى الله في أمـــرنا
فـــغـــشنا على سنة المصطفى ... ومـــــاتوا على تنتنا تنتنا

وقال إبراهيم بن نصر الموصلي :

ألا قل لهم قــول عــبـد نصــوح ... وحق النصــيـحــة أن تسـتـمع
مـــتى علم النـاس في ديننا ... بـأن الـغـنـاء سـنـة تـتـــبـع
وأن يـأكـل المـرء أكـل الحـــمــ ... ـار ويرقص في الجـمع حتى يقع
وقـــالوا سكرنا بحب الإله ... ومـا أسكر القــوم إلا القــصـتـع
كـذلك البـهـائم إن أشـبـعت ... يرقـــصـــهـــا ريهـــا والشـــبع
ويـسـكـره الـنـاي ثـم الـغـنـا ... ويس لـو تـليت مـــا انصــدع
فـيـا للعـقـول ويا للنهى ... ألا منكر منكم للبـــدع

اللهم إحفظنا بطاعتك واشغلنا برضوانك وجنبنا سخطك واجعلنا من عبادك الصادقين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اللهم حبب إلينا القرآن وزينا بالإيمان واجعلنا من أهل الإحسان اللهم كره إلينا الغناء ولا تجعلنا به من أهل الشقاء وطيب أسماعنا وقلوبنا وجميع جوارحنا فإنك طيب ولا تقبل إلا طيبا اللهم آمين يارب العالمين .

******

فرج بعد كرب، ويسر بعد عسر

كم من المعاناة عند الكثير من النساء في البيوت من أزواجهن؛ إذ ترى فيه علامات الخير والصلاح لأول وهلة، ولا تعلم ما الذي ينطوي عليه باطنه. وتبدأ العلاقات الزوجية في أول الزواج حسنة؛ ولكنها سرعان ما تسوء، إذا ظهر هذا الزوج على حقيقته من المكر والخديعة، ولذا يجب على أولياء أمور النساء أن يختاروا لهن الرجل الصالح الذي يرضون دينه وأمانته.

فقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»** حديث حسن.

وقد سئل أحد السلف: من تُزَوِّج المرأة؟ قال: التقي الذي إن رضي عنها أكرمها، وإن غضب عليها لم يظلمها.

ومما يذكر أن امرأة تزوجت زوجًا مخادعًا، وكانت تظن به خيراً، غير أنه ظهر معدنه مع مرور الأيام. وفي مرة من المرات سقطت على الأرض مغشيا عليها.

ليست المرة الأولى.. فهي تعاني من إرهاق نفسي متواصل منذ أن تزوجت قبل سنتين..

لقد أخبروها أنه رجل طيب.. وفيه خير.. وقالوا لها: إنك بما تحملين من الخير وحب الدعوة إلى الله تستطيعين التأثير عليه لكي يتدارك أمور دينه.. ويحافظ على الصلاة مع الجماعة. وقالت أمها لها: وأنت يا بنيتي.. قد تزوجت أختك الصغرى قبلك.. وأعتقد أن هذا هو الأصلح لك..

وأصرت أمي على هذا الخاطب.. فهو ميسور الحال.. ومن عائلة معروفة.. ومركزه الوظيفي جيد.. مظاهر براقة لا تهمني..

فقد سألت عن الدين . . هذا ما يهمني . . أريد رجلا صالحًا يعينني على الخيروعلى الطاعة . . إن أحبني أكرمني، وإن كرهني سرحني سراحًا جميلا . . فما أكثر ما نسمع من تلك القصص المبكية من ظلم الأزواج ومشاكهلم مع زوجاتهم لقلة الخلق والدين!

كنت أحلم بمن يوقظني للصلاة في جوف الليل . .

كنت أدعو الله في ظلام الليل ودموعي تتساقط أن يرزقني الرجل الذي يعينني على الطاعة وأعيشِ معه على مرضاة الله .

نسير سويا متجهين إلى الله . . نقتفي أثر الرسول ﷺ وأصحابه الطيبين .

كنت أحلم بالرجل الذي يربي أبنائي تربية إسلامية صحيحة . .

كأنني أقف بالباب أرمقه هو وابني وهما ذاهبان إلى المسجد . . دعوت الله أن يتردد على مسامعي . . قول زوجي . . كم حفظت اليوم من القرآن؟ وكم جزء قرأت؟

أحلم أنني أقف بطفلي أمام الكعبة وأدعو له . . سأنجب ـ إن شاء الله ـ أكبر عدد من الأبناء طالما أن في ذلك أجر، وأنني سأخرج للدنيا من يوحد الله . . طالما حلمت الأحلام الكثيرة . . ولطالما متعت نفسي بتلك الأحلام . . الحمد لله على كل حال . . احتسبت الأجر وصبرت على زوجي . . في البداية كان ينهض للصلاة . . مع مرور الأيام بدأ يتثاقل . .

ماذا تريدين؟ الله غفور رحيم . .

سأصلي . . الوقت مبكر . .

هذا هو الرد السريع عندما أحثه على صلاة الجماعة حتى لا تفوته . . أحس أنه يتغير مع إلحاحي إلى الأفضل . . على الأقل هذا ما أتفاءل به .

كنت أخشى رفقاء السوء فقد حدثني عن بعضهم . . أصبحت أخشى

عليه من تأثيرهم، فكرت في طريقة قد تكون مجدية أكثر من نصحي له.

لماذا لا أعرفه على الشباب الصالح فقد يتأثر بهم..

زوج صديقتي شاب طيب وملتزم وصالح إن شاء الله.. أسرعت للهاتف.. رحبت صديقتي بالفكرة وشجعت زوجها.. أخبرته أن صديقتي ستأتي ومعها زوجها.. زارتني صديقتي هي وزوجها، قلبي رجف من الفرح.. عسى الله أن يُلقي في قلبه حبه.

كلما طال وقت الزيارة كلما زادت دقات قلبي..

ودعت زميلتي عند الباب..

رجعت إليه بسرعة.. جلست أضغط على أصابعي بقوة.. أنتظره يقول شيئًا.. نظرت في عينيه فقال: لقدكان لطيفًا وذا خلق عال.. ولكنه لم يبد حماسًا للقائهم وللذهاب لهم كما وعدهم برد الزيارة.. حاولت بشتى الوسائل والسبل أن أعينه على المحافظة على الصلاة في المسجد.. الآن إلحاحي زاد بعد أن أنجبت منه ابنًا.. أسهر الليالي الطويلة وحدي.

هو يقهقه مع زملائه وأنا أبكي مع طفلي.. أكثر من الدعاء له بالهداية..

قررت أن أصلي صلاة الليل في غرفتنا بجواره عسى أن يستيقظ قلبه.. أحيانًا يستقيظ ويراني أصلي.. وفي النهار ألاحظ عليه أنه يتأثر من صلاتي وطولها.

مساء ذلك اليوم أخبرني أن أجهز له ثيابه.. سيسافر.. إلى المدينة الفلانية في رحلة عمل.. لا أعرف صدقه من غيره. غالبًا يسافر ولا يتصل بنا.. أحيانًا أخرى يتصل ويترك رقم غرفته وهاتفه، إذا اتصل عرفت أين هو.. لكن أحيانًا كثيرة لا أعلم أين يذهب.. ولكني أحسن الظن بالمسلم إن شاء الله.

في مدة سفرته سأخصه بالدعاء . . في اليوم التالي لسفره . . اتصل بنا . . هذا رقم هاتفي الحمد لله . . اطمأننت أنه في المملكة . .

انقطع صوته ثلاث أيام . . وفي اليوم الرابع . . أتى صوته . . لم أكد أعرفه . . صوت حزين . . ما بك؟ . . سأعود الليلة . . لم أنم من كثرة بكائه . . ماذا جرى لك؟ . . أخذ في البكاء كالطفل . . ثم تبعته في البكاء وأنا لا أعلم ماذا به . . وبعد فترة سادها الصمت الطويل . . أخذ ينظر إلي . . والدموع تتساقط من عينيه، مسح آخر دمعة ثم قال: سبحان الله زميلي في العمل .

سافرنا سويا لإنجاز بعض الأعمال . . ننام في غرفتين متجاورتين، لا يفصلنا سوى جدار واحد . . تعشينا ذلك المساء . . وعلى المائدة . . تجاذبنا أطراف الحديث . . ضحكنا كثيراً . . لم يكن بنا حاجة للنوم . . تمشينا في أسواق المدينة لمدة ساعتين، أرجلنا لم تقف عن المشي . . وأعيننا لم نغضها عن المحرمات .

ثم عدنا وافترقنا على أمل العودة في الصباح للعمل لإ نهائه .

نمت نومًا جيدًا . . صليت الفجر عند الساعة السابعة والنصف . .

اتصلت عليه بالهاتف لأوقظه . . لم يرد . . كررت المحاولة . . لعله في دورة المياه . . شربت كوبًا من الحليب كان قد وصل في الحال . . اتصلت مرة أخرى . . لا مجيب . .

الساعة الآن الثامنة وقد تأخرنا عن موعد الدوام . . طرقت الباب . . لا مجيب . . اتصلت باستعلامات الفندق لعله خرج . . ولكنهم قالوا: إنه موجود في غرفته . .

لابد أن نفتح لنرى . . أصبح الموقف يدعو للخوف . . أحضروا مفتاحًا احتياطيا للغرفة . . دخلنا الغرفة . . إنه نائم . . يا صالح . . ناديته مرة أخرى . . رفعت صوتي أكثر وأنا اقترب منه . . نائم؛ ولكنه عاض لسانه . . ومتغير

اللون . . ناديته . . اقتربت أكثر . . لاحراك .

التقرير الطبي يقول : إنه مات منذ البارحة بسكتة قلبية مفاجئة . .

أين الصحة؟! والعافية؟! والشباب؟! البارحة كنا نسير سويا . . لم يشتك من شيء . . ليس به مرض ولم يشتك من مرض أبدًا .

أعدت حساباتي . .

هذا موت الفجاءة لا نعرف متى سيأتي . . بل بدون مقدمات . . سألت نفسي لماذا لا أكون أنا صالحًا؟ . . ماذا سأواجه الله به؟ . . أين عملي؟ . . ماذا قدمت؟ . . لا شيء مطلقًا .

عرفت أنني مقصر في حق الله . .

سكت زوجي . . بكى وأبكاني . . وبكينا سويا . .

حمدت الله على هذه الهداية . . عشنا بعدها كما كنت أحلم أو أكثر . .

في الأسبوع التالي . . شكر لي جهدي معه وحرصي على هدايته . . وأخبرني أننا سوف نذهب لأداء العمرة والمكوث في مكة إلى نهاية الأسبوع . . لنبدأ صفحة جديدة مع الاستقامة . .

أكاد أطير من الفرح . . فأنا لم أذهب إلى مكة منذ أن تزوجت . .

ضحى ذلك اليوم ذهبت إلى الحرم . .الأعداد قليلة . . فترة صيف وليس هناك زحام . . حقق الله ما كنت أحلم به وقفت بابني أمام الكعبة . . لكني لم أستطع الدعاء له لأنني بكيت وبكيت . . حتى تقطع قلبي . .

في الغد . . إن شاء الله سنطوف طواف الوداع وسنغادر هذه الأرض الطاهرة . . بعد طواف الوداع . . عدنا من الحرام، لنستعد للسفر . . ما هذا الذي معك؟ . . هذا كتاب ابن رجب «جامع العلوم والحكم» . . هذا كتاب ابن القيم «زاد المعاد في هدي خير العباد» . . هذا كتاب «الوابل الصيب» لابن

القيم . . هذا كتاب «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» . . وهذا القرآن الكريم بحجم صغير . . لن يفارق جيبي .

وتغيرت الحال وبدأت حياة السعادة تدب في منزلنا، وأنوار الإيمان تشع في جوارحنا، وأصبح كل واحد منا يدعو الآخر إلى العمل الصالح، ووجدنا اللذة التي فقدناها زمنًا طويلا، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله يهدي من يشاء، ومن يهدي الله فما له مضل، وأنقذه الله بعد غفلة، وأيقظه بعد نوم عميق مع الذنوب والآثام، فله الحمد وله المنة[١] .

*****

(١) الزمن القادم: ١/ ٣٦-٤٢ .

اليمين الفاجرة

المسلم يهاب ربه ويعظمه، ويوقره ويراقبه، ويوقن أنه يعلم ما في السماوات وما في الأرض، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم. . . ويقتنع بالحلال ولو كان قليلا، ويبتعد عن الحرام ولو كان كثيراً. . . ويعلم أن إيمانه لا يتم حتى يحب لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه؛ عملا بالحديث الشريف الذي رواه أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»** متفق عليه.

وكلما طهرت القلوب تحرت الحلال في مطعمها ومشربها وملبسها، وكلما تدنست بالآثام والمعاصي لم تتورع عن الحرام؛ بل همها امتلاك المال من أي وجه كان.

وكم يغص المجتمع بأولئك الذين يجعلون الله عرضة لأيمانهم الفاجرة يؤذون الله ورسوله ويؤذون المؤمنين والمؤمنات، لم يقدروا الله حق قدره و لم يعظموه حق تعظيمه، ولم يراعوا حرمات المسلمين، أخذوا أموال غيرهم بالأيمان الكاذبة، يلقون الله يوم القيامة وهو عليهم غضبان.

ففي حديث عبد الله بن مسعود، والأشعث بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: **«من حلف على يمين صبر، يقتطع بها مال امرىء مسلم ـ وهو فيها فاجر ـ لقي الله وهو عليه غضبان»** متفق عليه.

والحلف أنواع:

النوع الأول: اليمين الغموس، وهي المذكورة في الحديث؛ إذ تغمس بصاحبها في النار، وليس لها كفارة؛ لأنه حلف على شيء ماض، وهو كاذب متعمد للكذب، يريد بيمينه أخذ مال غيره ظلماً.

النوع الثاني: اليمين المنعقدة، وهي التي تتوفر فيها ثلاثة شروط:

١- أن يحلف على شيء مستقبل ممكن.

٢- أن يحلف مختاراً بلا إكراه.

٣- أن يحنث في يمينه بأن يفعل ما حلف على تركه، أو يترك ما حلف على فعله(١).

النوع الثالث: لغو اليمين، وأحسن ما فسر به نوعان:

١- أنها اليمين التي لا يقصدها الحالف؛ بل تجري على لسانه من غير تعقيب ولا تأكيد، كما جاء عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «هو كلام الرجل في بيته: لا والله، وبلى والله» رواه أبو داود والبخاري، مرفوعًا وموقوفًا.

٢- أن يعقد الحالف اليمين ظانا صدق نفسه، ثم يتبين خلافه(٢).

ومن الأيمان الفاجرة التي أودت بصاحبها في الهلاك ما تتضمنه القصة الآتية وهي:

أن رجلا فاجراً وقف أمام القاضي، فأنكر أنه مدين بمبلغ خمسمائة وألف من الدنانير لورثة الحاج إبراهيم محمد، فطلب منه القاضي أن يُقْسم بأن الحاج إبراهيم لم يدفع له في يوم من الأيام هذا المبلغ، وأنه ليس مدينًا له، فأقسم ثم غادر المحكمة بعد أن أفرج عنه القاضي، ونطق بالحكم عليه بالبراءة، ولم يكد يتخطى عتبة المحكمة إلا وسقط على الأرض ميتًا. ذلك ما حدث في عام ١٩٥٤م في مدينة ما من مدن العراق.

ولكن القصة لا تبدأ هكذا فلنذكر القصة كما حدثت:

---

(١) زاد المستقنع، كتاب الأيمان.

(٢) تيسير العلام: ٢/ ٣٨٠.

كان الحاج إبراهيم محمد من التجار الكبار، و كان لا يرد طلب طالب يقدر عليه، ولا يخيب رجاء قاصد.

وفي يوم من الأيام قصده المتهم في مكتبه الكائن في (خان الشط) المطل على نهر دجلة وعرض عليه أمره.

وقال المتهم للحاج: إنني جارك، وقد كان والدي من أصدقائك المقربين، وحين حضرته الوفاة أوصاني أن التجىء إليك - بعد الله - تعالى - إذا حزبني أمر أو ضايقتني أعباء الحياة.

«إن الزروع في هذه السنة - كما تعلم - لم تعط ثمن بذرها؛ فقد أمحلت الأرض، وانقطع المطر، وساء الحال، فلا أعرف كيف أدبر حالي.

وكنت قد استقرضت مالا من المصرف فلا بد لي من دفع ديوني له، وإلا افتضح أمري وشمت بي الأعداء...

واليوم أتيتك لتقرضني خمسائة وألفًا من الدنانير، لأدفع الدين الذي في عنقي لمصرف الرافدين، وأشتري البذار وأدبر حالي، وموعدي معك لوفاء دينك علي في موسم حصاد الحنطة والشعير في العام المقبل».

وقام الحاج إبراهيم إلى خزانة نقوده في مكتبه، وأخرج منها المبلغ، ودفعه إلى المتهم، وسجل المبلغ في دفتر الحسابات.

وأبدى المدين شكره وأظهر امتنانه، وأصر على كتابة سند بالمبلغ ولكن الحاج إبراهيم قال له: «لا شكر علي واجب، وبيني وبينك الله، فهو نعم الوكيل ونعم الشهيد».

وبعد سنة تقريبًا من هذا الحادث مات الحاج إبراهيم بالسكتة القلبية، وترك زوجة وأربعة أطفال، أكبرهم في الثالثة عشرة من عمره.

وراجعت زوج الرجل دفاتر زوجها وسجلاته التجارية، وأعانها على ذلك أخوها المحامي، فعرفت مما في بطون أوراقه بتفصيلات ما لزوجها من

ديون على الناس .

ومرت الأيام والشهور على موت زوجها، فبعثت إلى المتهم تطالبه بما لزوجها عليه من دين، ولكن المتهم أنكر أنه مدين بشيء لزوجها، وزعم أنه دفع ما كان عليه من دين إلى زوجها، وربما نسي زوجها أن يكتب قيد الدين في سجلاته .

وتسامع الناس بالحادث، وكان بعضهم قد سمع بأن الحاج إبراهيم كان قد أقرض المتهم بعض المال، فزعم للناس أنه وفّى للحاج إبراهيم دينه، ولو كان مشغول الذمة لعثر ورثة الحاج إبراهيم على سند الدين في مخلفاته . .

وانقسم الناس في المحلة من الجيران إلى قسمين :

قسم يؤيد ورثة الحاج إبراهيم ويذكرون أنه يعرض النقود، حسبة لله بدون مستند يثبت ذلك، وقسم يؤيدون المتهم بأنه ليس من المعقول أن يدفع الحاج إبراهيم مبلغًا من النقود للمتهم بدون مستند يثبت ذلك، ولجأت زوج الحاج إبراهيم إلى بعض أهل الخير من المحلة ليحملوا المتهم على تبديل موقفه، ولكنه أعرض وأصر، وتمادى واستكبر، وكأنه صخرة عاتية من صخور الجبال وكما أن آخر الدواء الكي، فإن آخر مطاف المتنازعين المحاكم . . .

وجاء يوم المحاكمة وحضر المتهم إلى ساحة المحكمة .

وأترك الكلام الآن للحاكم ـ الأستاذ الذي قصّ عليّ تفصيلات المحاكمة الكلام للكاتب الذي روى القصة ـ، فكان مما قاله : كنت في قرارة نفسي مقتنعًا بأن المتهم مدين للحاج إبراهيم بهذا المبلغ .

ولكن لم يكن هنالك دليل مادي غير تسجيل هذا المبلغ بخط الحاج إبراهيم في سجل ديونه على الناس، وهذا الدليل وحده لا يكفي لإثبات التهمة .

ولم ينكر المتهم بأنه استقرض هذا المبلغ من الحاج إبراهيم؛ لكنه أفاد بأنه

أعاد المبلغ إلى صاحبه بعد سنة من استقراضه .

وشهد أحد الرجال بأنه سمع المتهم يثني على الحاج إبراهيم ، ويذكر أنه انتشله من وهدة الفقر والحرمان بإقراضه بعض المال حسبة لله ، ولكن الشاهد لم يتذكر مقدار المبلغ ولا وقت سماعه حديث المتهم .

كانت القضية كلها كريشة في مهب الريح ، فحاولت أن أجُرّ المتهم إلى الاعتراف بالدين ؛ لكنه كان يفلت من الاستجواب .

إن المحاكم في مثل هذه القضية تطبق المبدأ القضائي : البينة على من ادعى واليمين على من أنكر . . . (بل هذا حديث صحيح رواه ابن عمرو بلفظ : البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه ، وهو عند الترمذي) .

وقلت للمتهم : هل تقسم بالله العظيم بأنك لست مدينًا للحاج إبراهيم بهذا المبلغ ولا بغيره ، وأنك دفعت ما كان له عليك من دين؟

وقال المتهم : أقسم . . . ثم أقسم ونطقت بالحكم! البراءة . . .

وخرج المتهم مرفوع الرأس شامخًا من المحكمة ، وكان ذا هامة وقامة ، صحيح البدن قوي البنية ، سليمًا معافى وهو في ريعان الشباب . . .

وما كاد يغادر المحكمة ومعه المستمعون إلا وسمعت ضجة خارج المحكمة ، فهرعت لأتبين جلية الأمر . . .

وصعقت لأنني وجدت المتهم الذي كان ماثلا أمامي قبل لحظات معدودات وهو في أوج صحته ، وعنفوان شبابه ، وكمال رجولته ، ممتدًا على الأرض جاحظ العينين مفتوح الفم أصفر الوجه ، كأنه شجرة خبيثة «اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار» . . .

وهتف الناس من حوله : لقد مات .

كانت زوج الحاج إبراهيم تسكن في دار قريبة من داري ، وكانت لها صلة

قربى بأهلي، واشتقت أن أسمع القصة منها، فسألتها عن الخبر، فكان مما قالته :

كان الحاج إبراهيم بارا بجيرانه، وكان يقرض المحتاجين، ويكتفي بتسجيل قرضه في سجل خاص . . .

وكنت ألومه على ذلك فيقول : المال مال الله، وقد كنت فقيراً فأغناني، وكنت يتيمًا فآواني، فلن أقهر يتيمًا ولن أنهر سائلا . . . .

وكان يختم كلامه كل مرة بقوله : يا ليت لي في كل قبر دينًا . . .

وشهدت محاكمة المتهم وأصغيت إلى أقواله، وكنت لا أشك بأن الله يسمع ويرى .

وحكم القاضي بالبراءة بعد أن أقسم المتهم اليمين، فلما أقسم اليمين اقشعرَّ بدني، فقد كنت مؤمنة بأنه كاذب، وأنه اجترأ على الله، عز وجل .

وقلت : أدعو الله سبحانه وتعالى بقولي : إنك تعلم السر وأخفى، وإنك علام الغيوب، فإن كان المتهم كاذبًا في قسمه فاجعله عبرة للناس . . . يا قوي يا جبار . .

وخرج المتهم من المحكمة وأنا أنظر إليه، ولكنه سقط ميتًا على بعد خطوات من باب المحكمة . . لقد نجا المتهم من حكم الأرض، ولكنه لم ينج من حاكم الأرض والسماوات، ولم يكن الصراع يدور بينه وبين ورثة الحاج إبراهيم؛ بل كان الصراع يدور بينه وبين جبار السماوات والأرض .

وفي ليلة من ليالي الشتاء العاتية، حين كان البرد قاسيًا والمطر مدرارًا، وحين كان الناس يأوون إلى مضاجعهم لا يغادرونها، ناعمين بالدفء والراحة .

في ذلك الوقت، في ساعة متأخرة من الليل البهيم، كان جرس دار الحاج إبراهيم يرانٌ قويا متواصلا . . وكان على الباب امرأة متشحة بالسواد، يرافقها طفل في السادسة من عمره . . .

وفتحت زوج الحاج إبراهيم الباب لترى من الطارق؟ فوجدت زوج المتهم ومعها ولدها الوحيد. . . وقالت زوج المتهم لزوج الحاج إبراهيم:

«لقد أنكر زوجي بأنه مدين للحاج إبراهيم، ولكنني كنت أعرف بأنه كاذب. . .

ورجوته أن يسدد ما عليه من دين، وألححت في رجائي، ولكنه ركب رأسه ومضى في غيه. .

لقد دفع زوجي ثمن كذبه غاليًا، وهذا هو المبلغ الذي كان مدينًا به لزوجك».

وألقت بكيس فيه خمسمائة وألف من الدنانير، ثم عادت مسرعة أدراجها إلى دارها، ومن ورائها ابنها. . قبل أن تسمع كلمة من زوج الحاج إبراهيم. .

وبقيت زوج الحاج إبراهيم على باب دارها تنظر شبحين يخبوان حتى لفهما الظلام.

وآوت إلى فراشها، وهي تستمع إلى هطول المطر وعويل الرياح الهوج. . وتذكرت قصة حواري رسول الله ﷺ: الزبير بن العوام - رضي الله عنه -:

قال عبد الله بن الزبير - رضي الله عنه - : جعل الزبير يوم الجمل يوصيني بدَيْنه ويقول: إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه بمولاي، قال: فوالله ما دريت ما أراد، حتى قلت: يا أبت! من مولاك؟ قال: الله تعالى. . ، فوالله! ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير! اقض عنه، فيقضيه. وإنما كان دينه الذي عليه أن الرجل كان يأتيه بالمال يستودعه إياه، فيقول: لا، ولكنه سلف، فإني أخشى عليه من الضيعة.

قال عبد الله: فحسبت ما عليه من الدين فوجدته ألفي ألف، ومائة

ألف، وقتل ولم يدع دينارًا ولا درهما إلا أرضين بعتهما وقضيت دينه، فقال بنو الزبير: ميراثنا؟! فقلت: والله! لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم أربع سنين: «ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه» فلما انقضت أربع سنين قسم بينهم، فنال كل وارث حقه كاملا . . .

لقد قضى مولى الزبير عن الزبير دينه . . .

كان واثقًا من الله فلم يخيب الله ظنه به . .

والله مولى الناس جميعًا، لا مولى الزبير وحده . .

ولكن أكثر الناس ينقصهم الإيمان المطلق، والثقة المطلقة بالله تعالى . . .

الله الذي لا ينسى النملة في الصخرة، والحوت في وسط البحر المالح الأجاج، فيرسل إليها رزقها من حيث لا تحتسب، لا ينسى أرزاق عباده الآخرين.

وشتان بين الرزق الطيب الحلال، وبين الرزق الخبيث الحرام.

أيها القطيع الهائم على وجهه في متاهات الكفر والضلال.

إن الثقة بالله والإيمان برسالات السماء، هما الطريق للخير والسعادة والبركة.

إيمان كبعض إيمان الزبير، وثقة كبعض ثقة الزبير، وسيقضي عنكم مولاكم كل دين، ويدفع عنكم كل كربة، ويجعل لكم بعد من عسركم يسرًا . . . وتنهمر عليكم بركات الأرض والسماء.

من هنا الطريق . . .

«ولكن أكثر الناس لا يعلمون»[1] .

ولو تفكر الناس في أموالهم، ونظروا من أين هي، أمِنْ حلال أم من

(١) عدالة السماء: ٥٣-٦٣ بتصرف.

حرام؟ لعلموا أن الأمر خطير، ولعلموا أن طريق الجنة محفوف بالمكاره، وأن الجنة طيبة، ولا يدخلها إلا الطيبون، وأن الأجساد الطيبة تألف الأعمال الطيبة والأقوال الطيبة والحياة الطيبة والآخرة الطيبة، فإن الله طيب ولا يقبل إلا طيبًا، وكل جسم نبت من سحت فالنار أولى، وربك بالمرصاد لا يغفل عن الظالم إذا ظلم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسم يظلمون.

******

هل من مدكر

آيات الله الشرعية أعظم مذكر يذكرنا بالله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وعجائب القرآن لا تنقضي، وتأثيره لا ينتهي، والمؤمنون يفخرون بهذا الكتاب العظيم. والأعداء يحاربونه ويريدون القضاء عليه. وما علم أولئك المغفلون أن الله قد تكفل بحفظه، وأن الباطل لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

وقد حاول أعداء الله أن ينزعوه من السطور ومن الصدور، فما استطاعوا وأعجزهم ذلك، وسيستمر عجزهم إلى أن يأذن الله - تعالى - برفع هذا الدستور الخالد.

ومن الذين أرادوا الإساءة له، ما ذكرته جريدة - «ترنيم النيجيرية» - الواسعة الانتشار -؛ خبراً كان حديث الناس في نيجيريا بأسرها فقد زلزل معقلا من معاقل النصرانية في ولاية كنجولا النيجيرية.

والخبر يقول: بأنه وقف القس والبروفسير راعي كنيسة المدينة، وبيده مصحف كان قد جذبه من بين يدي أحد الحاضرين ثم ألقى به على الأرض وسكب عليه مقداراً من البنزين، وهمّ بإشعال عود ثقاب على المصحف، فعادت النار إلى يده وأصيب بحروق شديدة ولم تمس النار المصحف الشريف.

وكان الحاضرون يتابعون هذا المشهد، وهم في ذهول؛ حيث جرى ذلك

أثناء قداس في الكنيسة وعقب هذا الحادث مباشرة أعلن القس فروس دخوله في الإسلام، وتبعه رئيس الكنيسة: يعقوب موسى، وتوالى دخول المبشرين النصارى في الإسلام حتى بلغ عددهم ٢٠٠ مبشر.

وقدم يعقوب موسى استقالته من منصبه كسكرتير عام للجمعية النصرانية النيجيرية للتنصير في كنجولا. وفي حديث لرئيس تحرير الجريدة الحاج إبراهيم سليمان نشر في اليوم التالي، صرح يعقوب موسى بأنه يعكف في الوقت الراهن على نشر الدعوة الإسلامية في أوساط النصارى في نيجيريا، خاصة وأنه يحمل دبلومًا عاليا في علوم الكتب المقدسة، وأعرب يعقوب عن أسفه من أن الدعوة إلى الإسلام غير نشطة في المنطقة، وقال: إنه ينوي تأليف كتابًا عن الإسلام، وقال أنه دعا أفراد أسرته إلى الإسلام فأسلموا جميعًا.

وهذه القصة تدعونا إلى الاتعاظ والاعتبار، وإلى وجوب تعظيم القرآن الكريم حسا ومعنى، وأن ندعو به الناس إلى دين الله، وأن نعلم أن من الناس من رفعه الله بهذا القرآن الكريم، ومنهم من وضعه الله بهذا القرآن، ويكفي أن أهل القرآن: هم أهل الله وخاصته.

فهل يقوم طلاب العلم بنشر دين الله، ويتخذون من كتاب الله ـ تعالى ـ سلاحًا؟ وهل يستشعرون أهمية رسالته ويعلمون أن الله سائلهم عن علمهم ماذا عملوا به[1]؟

******

(١) نوادر من التاريخ: ٤/ ١٩ , ٢٠.

مات على التوحيد بعد التمرد والشرور

الشباب أقوى مرحلة يمر بها الإنسان؛ إذ يقوى جسمه، وتتكامل أعضاؤه، ويبلغ رشده، وينضج عقله، ويصبح قادرًا على العمل محاربًا للكسل، يتذكر بشبابه أهل الجنة؛ لأنهم شباب لا يهرمون، ويظهر معه البلوغ والنبوغ وتتفتح الشهوة، فيكون بين عقل ناضج وشهوة ملتهبة؛ فإن غلّب عقله كان شبيهًا بالملائكة، وإن غلّب شهوته كان شبيهًا بالبهائم.

وقد اهتم الإسلام بالشباب فنجده يخصه بالذكر مع دخولهم في عموم المخاطبين، ونجده يثني على أعمالهم واستقامتهم قال - تعالى - عن أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

ويقول ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» متفق عليه.

وذكره للشاب الذي نشأ في عبادة الله إشادة بالشباب الصالحين الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا، قدموا طاعة الله - تعالى - على كل هوى وشهوة.

وقد ذكر لي أحد الإخوة الثقات ممن همه الدعوة إلى الله والحرص على هداية الناس، أنه تعرف على شاب في مدرسته التي يدرس فيها، رأى عليه علامات الشرود الذهني وملامح الكآبة، فسأله عن حاله وعما يعانيه، فأخبره أنه يعيش في أسرة عاصية، أغلب أوقاتها في المعاصي والمنكرات من كلام بذيء ونظرات محرمة، وسماع محرم وجناية على الأولاد، بدعوتهم إلى الفسوق والعصيان، وعاش هذا الشاب فترة طويلة على هذا الوضع المرّ وبداخل تلك

الخيمة المظلمة.

وأراد الله - تعالى - أن ينقذ هذا الشاب فقيض له من الصالحين من يدعوه إلى طريق الحق والصواب، ويحذره من طريق الغواية والعذاب، ففتح الله سمعه لسماع الحق حتى انقشعت عنه سحابة المعصية وظهرت الفطرة التي فطر عليها؛ فأحب الصالحين، ولازم مجالسهم، وسمع أحاديثهم، واتخذهم أخلاء، يستفيد من أقوالهم وأفعالهم ومعاملاتهم.

وكان يتردد على معلمه الصالح ما بين الحين والحين، ومضى العام الدراسي وبدأت الأجازة الصيفية، وازداد هذا الشاب إيمانًا وخرج هو ووالده؛ الذي كان كثيراً ما يضايقه ويثني من عزمه الصالح، ويزهده في القرناء الصالحين، ويتهمهم بالاتهامات الكاذبة.

ورافق الشاب والده لقضاء حاجة لهم، وفي أثناء الطريق انقلبت بهم السيارة ومات الابن ومات والده، وحضر الحادث جمع من الناس فكانوا يسمعون هذا الشاب يقول في آخر أنفاسه: لا إله إلا الله، وفارق الحياة بهذه الكلمة التي نسأل الله أن يدخله بها الجنة، فقد روى معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» رواه أحمد، وأبو داود بسند صحيح.

وأما والده فما سمعوه يقول شيئًا، والله أعلم بحاله. ورجعا إلى ربهما ليجزيهما على أعمالهما وقد أحصى كل شيء في كتاب، لا يضل ربي ولا ينسى.

******

التعاون على البر والتقوى

شرف الله هذه الأمة على غيرها من الأمم بقيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وكم من المعروف أمر به، ففتح الله به قلوبًا غلفًا، وآذانًا صما، وأعينًا عميًا، وهدى الله به بعد الضلالة.

وقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا» رواه مسلم.

ودعا ﷺ لمن سمع مقالته فوعاها ثم بلغها للناس، فقد روى جبير بن مطعم وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهم - أن رسول الله ﷺ قال: نضَّر الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها وحفظها، ثم أداها إلى من لم يسمعها فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة بسند صحيح.

ولو أن المسلم قاموا بهذا الواجب ما رأينا الإعراض والصدود، ولا رأينا التمرد والجحود؛ فما أكثر البيوت المليئة بأهل الصلاة، وهم لا يصلون في المساجد يسمعون الأذان؛ وكأن في آذانهم وقرًا؟! ولسنا بصدد الحديث عن

صلاة الجماعة، وإن كان الحديث عنها مهما، غير أني أورد ثمرة من ثمرات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونموذجًا من نماذج التعاون على البر والتقوى.

ففي يوم الأربعاء الموافق ١٧/ ٣/ ١٤١٥هـ، ذكر لي أحد الإخوة الفضلاء وهو ممن أثق في كلامه: أن رجلا من أهل الغفلة والتقصير في أداء الصلاة جماعة في المسجد، كان يتأخر عن كثير من الصلوات، وخصوصًا صلاة الفجر، وبجواره جار صالح يعرف حق الجوار، ويسعى إلى إسعاد جاره، وإلى أداء حقه؛ وكان يتألم كثيراً لغياب جاره عن المسجد، فأسدى له النصح مرات كثيرة، ولكنه لم يقابل بالاستجابة والاستفادة. ففكر فيما يعمله مع جاره لعله أن يهتدي على يديه، ووصل به التفكير إلى أن يجمع جماعة المسجد بعد صلاة الفجر ويتجه بهم إلى جاره المتخلف عن الصلاة، لعل هذا العمل أن يوقظه من غفلته وأن يذكره بعد إعراضه.

وقد استجاب جماعة المسجد لهذا الطلب لما يحقق من الخير، وتوجهوا إلى دار جارهم بعد أداء صلاة الفجر، وطرقوا عليه الباب وفتح لهم بعد طول انتظار، ودخلوا وهم أشد عليه من النبال وأثقل من الجبال؛ إذ فوّتوا عليه نومته وعكروا عليه صفو راحته، وانتظر خروجهم، ولكنهم أطالوا البقاء، مما اضطره إلى تقديم وجبة إفطار لهم، ثم تكلم أحدهم، وقال: يا جارنا العزيز، إننا نحب لك ما نحبه لأنفسنا، ونرضى لك ما نرضاه لأنفسنا، ولو رأيناك تحترق لأطفأنا عنك النار، ولو مرضت لعدناك، ولو ضاقت بك اليد لنفّسنا عنك، وقد رأيناك تأخرت عن المسجد، وهذا عمل لا نرضاه لأنفسنا، ولا نرضاه لك، وهو عمل لا يرضي الله -تعالى-، ولا يرضي رسوله ﷺ ولا يقره الشرع.

وواجبك علينا أن نسدي لك النصح، فإننا نسألك بالله العظيم ألا تترك

صلاة الجماعة في المسجد، وخصوصًا صلاة الفجر، وألحوا عليه إلحاحًا شديدًا؛ يريدون له النجاة، ويريدون له الحفظ في الدنيا والآخرة، ثم خرجوا من عنده وهم يدعون الله أن يهديه وأن يرشده إلى الصواب.

وبقي الرجل بعد انصراف جيرانه حيران يفكر ويقول: ما الذي جاء بهم؟! هل يريدون مالا؟ هل يريدون جاهًا؟ هل يريدون ثناءً ورياءً؟ وأجاب نفسه بقوله: لا يريدون شيئًا من ذلك؛ بل يريدون نجاتي وصلاحي، واستقامتي فهم أصدق الناس معي، وأخلصهم في دعوتي؛ إذ حرصوا على نجاتي أكثر من حرص نفسي، ودعا الله أن يجزيهم خيرًا ثم عقد العزم أن لا يترك الصلاة جماعة وخصوصًا صلاة الفجر، وصدق في عزمه، فقد واظب على الجماعة، وكان يبكر للصلوات ويستيقظ للفجر. وداوم على هذا العمل شهرًا كاملا.

وبعد الشهر قبض الله روحه وهو يصلي في المسجد، وودع الدنيا وقلبه معلق بالمسجد، وصدق في توبته وأخلص في إنابته.

ونسأل الله أن يتوب عليه، وأن يتغمده برحمته، وأن يكفر عنه جميع سيئاته، وأن يبدل سيئاته حسنات.

وبهذه الخاتمة اطمأنت نفوس جيرانه، وقالوا: الحمد لله الذي قبضه على عمل صالح؛ لنسلم من السؤال عنه يوم القيامة. وعسى أن يشفع لنا عند الله تعالى.

ومثل هذه القصة، قصة رجل سكن في حي من الأحياء، وكان جاره من الصالحين الغيورين على دين الله، الذين يداوون جراح القلوب بأدوية النصيحة، ويتابعون معالجة المرضى حتى يبرءوا وقد لاحظ هذا الجار الصالح عدم صلاة جاره الجديد في المسجد، فساءه الأمر، وذهب إليه وحياه، ودعاه إلى وليمة، ثم زاره أخرى ودعاه للصلاة في المسجد فالتمس أعذارًا واهية لا

تبرئه أمام الله تعالى، وكرر عليه النصيحة عدة مرات حتى قال المتخلف لجاره الناصح: سأذهب معك إلى صلاة المغرب، ولا تدعوني بعدها، فوافق له، وذهبا جميعًا إلى المسجد ودخلا المسجد وصليا صلاة المغرب، وبعد انتهاء الصلاة قام أحد الواعظين يعظ وأطال موعظته إلى العشاء، وتكلم عن صلاة الجماعة وأهميتها. وحان وقت العشاء فصليا مع المسلمين ثم خرجا من المسجد، فقال المتخلف لجاره: جزاك الله غني خيراً، لم أجد للحياة لذة إلا من صلاة المغرب إلى الآن، وإنني نادم أشد الندم على ما مضى من الحياة؛ ولكن يا جاري! أريد منك تلبية طلبي قال: وما هو؟ قال: أن توقظني لصلاة الفجر حتى أصلي مع الجماعة في المسجد، ثم ودعه ومضى إلى منزله ودخل داره.

فلما رأته زوجته استغربت سرعة مجيئه لأنه كان من أهل السهر الطويل على المعصية، ففرحت بدخوله، وفاجأها بقوله: أيقظيني لصلاة الفجر، فبكت من شدة الفرح، وقالت: الحمد لله الذي يقلب القلوب والأبصار، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء.

وذهب هذا التائب إلى فراشه، ونام طوال ليله النومة الصغرى ثم النومة الكبرى، وأذن لصلاة الفجر فخرج جاره الصالح إلى المسجد، ومر عليه ليوقظه، وطرق الباب ففتحت زوجته وقالت: قد أيقظته فما استيقظ، ولم تستغرب المرأة ذلك بناءً على سابق عهده؛ إذ كان لا يستيقظ وقت الفجر، وحاول جاره إيقاظه بكل وسيلة، ولكن دون جدوى، فتلمس حواسه، وحركه فوجده قد مات، ولعله أن يكون من التائبين إلى الله تعالى، ولعل توبته نصوحًا، ونسأل الله أن يجزيه بالإحسان إحسانًا وبالإساءة عفواً وغفرانًا، وأن يبدله دارًا خيراً من داره، وزوجة خيراً من زوجته، وأهلا خيراً من أهله، وأن يتقبله مع المتقين.



السفر إلى بلاد الانحلال

يخلق الله - تعالى - ما يشاء ويختار، وقد اختار من الأرض أقدسها وأفضلها: مكة، واختار من مكة: البيت الحرام «الكعبة»، فلا يوجد في الأرض بقعة أقدس منها، ولا أفضل منها؛ ولحرمتها جعل الله - تعالى - لها حرمًا كالحمى حولها، وجعل لحرمها حمى آخر، وهو ما بين المواقيت وحدود الحرم، ونهى ﷺ عن شد الرحال إلا إلى ثلاثة مواضع؛ الموضع الأول: المسجد الحرام بمكة، والموضع الثاني: المسجد النبوي بالمدينة، والموضع الثالث: المسجد الأقصى بالقدس؛ بل وضاعف الله الأجر في هذه المواضع، فصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة في غيره إلا المسجد النبوي والأقصى، وصلاة في المسجد النبوي بألف صلاة في غيره إلا المسجد الحرام والأقصى، وصلاة في المسجد الأقصى بخمسمائة صلاة في غيره إلا المسجد الحرام والنبوي.

فقد روى جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: **«صلاة في مسجدي أفضل من الصلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام والأقصى، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه»** رواه أحمد وابن ماجة بسند صحيح.

وقد تُحجب هذه الحقيقة الثابتة عن أصحاب الشهوات، الذين يفضلون البقاع التي يقضون فيها وطرهم، ويشبعون رغباتهم، ويفرغون شهواتهم. ومن البقاع المفضلة عند الشباب المنحرفين ما يسمى «بانكوك» بلد الانحلال والعهر والمسافرون إليها يسافرون لبيع أعراضهم. وقرناؤهم في سفرهم شياطين الإنس والجن، وكم من الضحايا لهذا السفر الممقوت!! ومن الضحايا رجل يروي قصته فيقول: كنت أتمايل طربا وأترنح يمنة ويسرة، وأصرخ بكل صوتي وأنا أتناول مع الشلة الكأس تلو الكأس، وأستمع إلى

صوت: مايكل جاكسون في ذلك المكان الموبوء المليء بالشياطين الذي يسمونه «الديسكو».

كان ذلك في بلد غربي أهرب إليه كلما شجعني صديق أو رفيق، فأصرف فيه مالي وصحتي، وأبتعد عن أولادي وأهلي، وأرتكب أعمالا عندما أتذكرها ترتعد فرائصي، ويتملكني شعور بالحزن والاسى؛ لكن تأثير الشيطان علي كان أكبرمن شعوري بالندم والتعب.

استمرأت هذه الحال وانطلق بي هوى النفس إلى أبعد من ذلك البلد الغربي، وأصبحت من عشاق أكثر من عاصمة أوروبية، وهناك أجد الفجور بشكل مكشوف، وسهل، ومرن.

وفي يوم من الأيام في أواخر شعبان أشار علي أحد الأصدقاء بأن نسافر إلى بانكوك، وقد عرض علي تذكرة مجانية وإقامة مجانية أيضًا ـ وهذه من أساليب شياطين الإنس إذا أرادوا اصطياد الشباب وإيقاعهم في مهاوي الردى وأحضان الرذيلة ـ يقول الشاب: ففرحت بهذا العرض وربطت حقائبي، وغادرنا بلد الإسلام والعفاف بلد الصلاة والصيام، إلى بلد الكفر والعهر، بلد الخمر والسكر، بلد الانحلال والفضيحة.

وفي ليلة حمراء اجتمعت أنا وصديقي في أحد الأماكن الموبوءة بالفجور، وفقدنا في تلك الليلة عقولنا، حتى خرجنا ونحن نترنح، وفي طريقنا إلى الفندق الذي نسكن فيه أصيب صديقي بحالة إعياء شديدة، ولم أكن في حالة عقلية تسمح لي بمساعدته، لكني كنت أغالب نفسي فأوقفت سيارة أجرة حملتنا إلى الفندق.

وفي الفندق استدعى الطبيب على عجل وأثناءها كان صديقي يتقيًأ دما. فأفقت من حالتي الرثة، وجاء الطبيب، ونقل صديقي إلى المستشفى.

وبعد ثلاثة أيام من العلاج المركز عدنا إلى أهلينا وحالة صديقي تزداد

سوءًا، وبعد يوم من وصولنا نقل إلى المستشفى، ولم يبق على دخول رمضان غير أربعة أيام.

وذات مساء ذهبت لزيارة صديقي في المستشفى، وقبل أن أصل إلى غرفته لاحظت حركة غريبة، والقسم الذي يوجد فيه صديقي مقلوب على رأسه، وقفت على الباب فإذا بصراخ وعويل، وتأكدت من الخبر وأخذت أسأل: ما الذي حصل؟ فقيل لي: مات الشاب الذي في هذه الغرفة، يعنون: صديقي، لقد مات لتوه بعد نزيف داخلي عنيف، فبكيت وخرجت من المستشفى وأنا أتخيل أنني ذلك الإنسان الذي ضاعت حياته وختمت بخاتمة سيئة، وانتهت أيامه في غمضة عين، وشهقت بالبكاء وأنا أتوب إلى الله تعالى، وعزمت على التوبة النصوح، وحمدت الله الذي أمهلني وجعل غيري عبرة لي، ولم يجعلني عبرة لغيري، وستـرني ولم يفضحني، وجعل لي درسًا عمليًا تتفطر له القلوب، وتهتز له المشاعر. وكنت أستقبل رمضان شهر العبادة والتقوى والإخلاص، والصبر على الطاعة وعن المعصية، شهر الصدق والعفاف، شهر الروحانية والانتصار؛ على هوى النفس وعلى الشيطان، شهر الاعتكاف والقيام، وقراءة القرآن ومواساة المحتاجين؛ فقررت الإقلاع عن الذنب والندم على ما فات، والعزم على عدم العودة لأي ذنب، وتركت حياة الفسق والمجون.

وفي حياتي الجديدة وجدت السعادة، ووجدت الطمأنينة، ووجدت السكينة، فقلت: الحمد لله الذي هداني لهذا، وما كنت لأهتدي لولا أن هداني الله، والحمد لله الذي رزقني الهداية في وقت المهلة قبل أن تبلغ الروح الحلقوم، وقررت مصاحبة الصالحين والابتعاد عن قرناء السوء[1].



(١) العائدون إلى الله: ٣/ ٧١، ٧٢، ٧٣ بتصرف.

غره الأمل فسارع إليه الأجل

للإنسان أمل طويل يظن أنه سيتحقق له، فتراه يعمل عمل من لا يموت؛ بل ذكره للحياة أكثر من ذكره للموت، فهو لا يذكر الموت إلا قليلا، وقد لا يذكره إلا إذا عاينه أو ابتلي بأحد نذره.

يقول الله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

وأكثر الناس اغترارًا بالأمل هم الشباب، الذين يجدون قوة وفتوة، ويتمتعون بكل جارحة، ويجدون لذة لكل طعام وشراب؛ ومن المغرورين بالأمل ثلاثة أصدقاء من الشباب، كان يجمع بينهم الطيش والعبث؛ بل لهم رابع وهو الشيطان الذي تسلم زمام كل واحد منهم ليورده الموارد. كان هؤلاء الشباب يسرحون ويمرحون لا همَّ لهم إلا دنياهم.

يقول قائلهم: كنا نذهب لاصطياد الفتيات الساذجات بالكلام المعسول، ونستدرجهن، إلى المزارع البعيدة؛ وهناك يفاجأن بأننا قد تحولنا إلى ذئاب، لا نرحم توسلاتهن، بعد أن ماتت قلوبنا ومات فينا الإحساس. هكذا كانت أيامنا وليالينا في المزارع، في المخيمات والسيارات، على الشاطىء... إلى أن جاء اليوم الذي لا أنساه.

ذهبنا كالمعتاد للمزرعة كان كل شيء مُعدا جاهزًا، الفريسة لكل واحد منا، الشراب الملعون.. شيء واحد نسيناه، وهو الطعام، وبعد قليل ذهب أحدنا لشراء طعام العشاء بسيارته، كانت الساعة السادسة تقريبًا عندما انطلق ومرت الساعات، دون أن يعود، وفي العاشرة ليلا شعرت بالقلق عليه فانطلقت بسيارتي أبحث عنه وفي الطريق شاهدت بعض ألسنة النار تندلع على جانبي الطريق، وعندما وصلت فوجئت بأنها سيارة صديقي.. والنار تلتهمها، وهي مقلوبة على أحد جانبيها.

أسرعت كالمجنون أحاول إخراجه من السيارة المشتعلة، وذهلت عندما وجدت نصف جسده وقد تفحم تمامًا، لكنه ما يزال على قيد الحياة، فنقلته إلى الأرض. . وبعد دقيقة فتح عينيه، وأخذ يهذي ويقول: النار، النار. فقررت أن أحمله بسيارتي، وأسرع به إلى المستشفى؛ لكنه قال بصوت باك: لا فائدة. . لن أصل. فخنقتني الدموع وأنا أرى صديقي يموت أمامي. .

وفوجئت به يصرخ ويقول: ماذا أقول؟. . ماذا أقول له؟ نظرت إليه بدهشة: وسألته من هو؟ قال بصوت كأنه وسط بئر من ضعفه وبعده، أريد: الله، ماذا أقول لله، وأنا أقف بين يديه، ولن ينفعني ندمي ولا تحسري هذه الساعة؟وضاع العمر وذهب الشباب وطويت صفحة الدنيا وها أنا ذا أستقبل الآخرة وأودّع الأهل والأصدقاء، ثم أغمض عينيه وسكت لسانه.

يقول الشاب: أحسست بالرعب يجتاح جسدي ومشاعري. وفجأة أطلق صديقي صرخة مدوية ولفظ آخر أنفاسه.

ومضت الأيام؛ ولكن صورة صديقي الراحل وهو يصرخ، والنارتلتهمه وهو يقول: ما ذا أقول له؟ ماذا أقول له؟ لا تزال أمام بصري وعلى مسمعي. ووجدت نفسي أتساءل: أنا، ماذا سأقول له؟ فاضت عيناي بالدموع، واعترتني رعشة غريبة، وفي نفس اللحظة سمعت المؤذن لصلاة الفجر ينادي، أحسست أنه نداء خاص لي لأسدل الستار على فترة مظلمة من حياتي، يدعوني إلى طريق النور والهداية، فاغتسلت وتوضأت، وطهرت جسدي من الرذيلة التي غرقت فيها لسنوات، وأديت الصلاة، ومن يومها لم يفتني فرض. . هذه توبة شاب نسردها لكل شاب، ليحذر من صحبة الأشرار، فعلها أن تكون موقظة لغفلة الكثير، ومحركة لسكون اللاعبين اللاهين[1].

******

(١) للشباب فقط: ٧، ٨، ٩، ١٠.

أدمن الدخان فعوقب بالخسران

أسبغ الله نعمه على عباده فلا يستطيعون عدها ولا إحصاءها، ونوع لهم المطاعم والمشارب، وأحل الحلال الطيب من المطعوم والمشروب، وحرم الحرام الخبيث من المطعوم والمشروب.

ومن المحرمات: الدخان، فإنه خبيث من الخبائث، لا يجادل في خبثه عاقل، ولا يماري في نتنه صادق، وقد كتب العلماء في تحريمه مؤلفات كثيرة؛ حذروا الناس من شره، وذكروهم بخطورته، وأوضحوا أضراره الدينية والمالية، والصحية، والاجتماعية.

وممن ألف فيه وفنَّد حكمه الشيخ: حمود بن عبد الله التويجري - رحمه الله - في كتابه: «الدلائل الواضحات على تحريم المسكرات والمفترات»، واستعرض أدلة تحريمه، وبين خطورته، وحذر منه أشد تحذير، وذكر أنه سبب لسوء الخاتمة والعياذ بالله، وقد أيد ذلك بقصص كثيرة. يقول رحمه الله: ومن أعظم مضار الدخان، أنه يكون سببًا لسوء الخاتمة - عياذًا بالله من ذلك - وقد ذكر بعض المصنفين في تحريم الدخان عن محمد البرزنجي الشافعي أنه قال: رأيت من يتعاطاه عند النزع يقولون له: قل: لا إله إلا الله. فيقول: تتن حار، تتن حار، ومات على التتن الحار، وما استطاع أن يقول: كلمة التوحيد؛ إذ حيل بينه وبينها. والذي حال بينهما هو التتن الحار.

ويقول الشيخ التويجري: ورأيت في رسالة في تحريم الدخان: ألفت في بغداد سنة ١٢٧٣هـ، وقد سقط اسم المؤلف منها، قال مؤلفها: أخبرني الشيخ محمد الفلاني المغربي - وكان من الصالحين - أن رجلا في المدينة النبوية أخبره أن أخاه احتضر، فجعل يلقنه الشهادة، فقال له المحتضر: يا أخي! إن الملك قد أمسك لساني، ويقول: لا أدعك تنطق بالشهادة؛ لأنك كنت تؤذيني بالتتن.

وقد روى جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«من أكل الثوم والبصل والكراث فلا يقرب مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»** متفق عليه.

وفي رواية البخاري لم يذكر البصل والكراث. فإذا كان الكراث والبصل والثوم وهي حلال تؤذي الملائكة فكيف بالدخان الحرام؟ وإذا أخرج صاحب البصل والثوم من المسجد نكالاً له؛ فإن شارب الدخان أولى بالإخراج؛ لنتن رائحته وخبث طبعه، وضيق نفسه وسواد صدره ومرارة لسانه، وإنني أعجب كيف يشرب الإنسان النار ويدعي طلب النجاة منها.

ويذكر الشيخ التويجري أن من أعظم مضار الدخان أنه سبب لصرف الميت عن القبلة، وأورد أن ثقة أخبره: أن مسافراً مريضًا مرَّ بهم، وأقام عندهم حتى مات وأنهم عند احتضاره كانوا يوجهونه إلى القبلة، فيصرف عنها فلما فتشوا متاعه وجدوا فيه صرة من تتن، وآلة يشرب بها.

وقد ذكر الشيخ ـ رحمه الله ـ قصصًا كثيرة وأسندها لرواتها. ومن أراد الاطلاع عليها فليرجع للكتاب المذكور أعلاه[1]. فهل يقلع أهل الدخان عن نتنهم؟ وهل يراقبون ربهم؟ وهل يرفقون بأنفسهم؟ وهل يحسنون صحبة الملائكة؟ وهل يصرفون أموالهم في الحلال؟ وهل يوقنون أن الله سيسألهم عن أموالهم من أين اكتسبوها؟ وفيما أنفقوها؟

*****

(١) الدلائل الواضحات: ١٥٧، ١٥٨.

شراب إلى العذاب

العقل نعمة كبرى أنعم الله بها على الإنسان، وميَّزه بهذه النعمة عن الحيوان؛ بل وجعل العقل مناط التكليف، فإذا وجد العقل عند الإنسان، كلفه الله بالعبادات، ورضي منه المعاملات.

ولذا حرم الله الاعتداء على العقل، وعاقب على إضاعته؛ إذ شرع حدا من الحدود من أجله وهو حد شرب الخمر، حتى يرتدع الجاني، ويعود إلى رشده وصوابه، ويترك عقله محفوظًا، ليعقله عن كل قول مشين وعن كل عمل سيىء.

ومعنا في هذه القصة شاب تذبذب بين الصلاح والطلاح، بين الهدى والغواية، وكانت نهايته الموت، وبطنه مليء بالخمر، وعقله محجوب بالسكر.

يقول صاحب القصة: كانت معرفتي بهذا الشاب بسيطة؛ إذ كنت أراه في المسجد حينًا ويغيب أحيانًا، وكنت أسلّم عليه بحرارة لعلي أكسب هدايته، وعلمت أن له رفقاء سوء يؤثرون عليه، فدعوته للزيارة ولبى ذلك، ثم خرجنا معه في نزهة إلى أرض خضراء، وزادت الصداقة بيننا، وكان بيننا وإياه ترتيب لجدولنا اليومي عند الاجتماع، واستمرت علاقتنا به لمدة شهرين كاملين، بعدها قدر الله لي أن أنتقل من جواره إلى مكان آخر، وانقطع الاتصال بيننا حتى بالهاتف لعدم توفر ذلك. وقد غبت عنه فترة ليست طويلة ولكنني علمت أنه لا بد من تعاهده وتذكيره بالله، إلا أنني كلما اتصلت به من هواتف الأصدقاء أو هواتف العملة يرد أهله بأنه غير موجود.

ومرت الأيام وزاد تأثير قرناء السوء عليه، واقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ أن تتغير أحواله، فقد أخبرني بعض الزملاء ممن كان يذهب معنا أنه عاد لرفقاء

السوء، وعاد لبعده عن الله عز وجل، وأخذت الأسفار في الباطل جل وقته، فقد أهمل عائلته، ورجع إلى سالف عهده، فترك صلاة الجماعة، وبدأ يتراجع إلى الخلف، بدأ يسمع الأغاني، وترك حفظ القرآن، وترك الشباب الصالحين، وترك الكتب القيمة.

تحسرت على ذلك، ودعوت الله لي وله، وحثثت بعض الإخوة على معاودة الاجتماع به وأخذه إلى الرحلات الايمانية، لعل الله أن يهديه وأن يوقظ غفلته وأن يفتح قلبه للخير.

وبعد مدة هاتفت أحد الزملاء وسألته عنه فتغير صوته، وبدأ الأثر عليه فسألته ثانية، فأخبرني أنه مات.

فقلت له: ماذا جرى له؟ فمنذ مدة لم أره ولم أجده في بيته، فقد اتصلت عليه كثيراً، قال لي: إنه سافر إلى شرق آسيا مع رفقاء السوء، وتناول جرعة كبيرة من المسكر أودت به إلى الهلاك، مات هناك وحمل في تابوت على متن الطائرة العائدة، ومعه تقرير يثبت أن وفاته كان سببها تناول المخدرات.

وَجلْت أيما وجل من سوء خاتمته، وأيقنت أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، قال أهله: ليته مات بأي شيء إلا هذه الموتة، وهذا التقرير فضحه في الدنيا بين معارفه، وجلب لأهله الهمَّ والغمَّ، ونكس رءوسهم بين الناس، وسيفضح على رءوس الأشهاد، وأمره إلى ربه الذي لا تخفى عليه خافية[1].

وقد روي أن الأعشى لما توجه إلى المدينة ليسلم، لقيه بعض المشركين في الطريق: فقالوا له: أين تذهب؟ فأخبرهم بأنه يريد محمداً ﷺ، فقالوا: لا تصل إليه فإنه يأمرك بالصلاة، فقال: إن خدمة الرب واجبة. فقالوا: إنه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء. فقال: اصطناع المعروف واجب. فقيل له: إنه ينهى

(١) الزمن القادم: ١/ ٨٦-٩٠.

عن الزنا. فقال: هو فحش وقبيح في العقل، وقد صرت شيخًا فلا أحتاج إليه.

فقيل له: إنه ينهى عن شرب الخمر، فقال: أما هذا فإني لا أصبر عليه، فرجع، وقال: أشرب الخمر سنة ثم أرجع إلى محمد بعد ذلك، فلم يصل إلى منزله حتى سقط عن البعير فانكسرت عنقه فمات(١).

ومضى إلى ربه بشربه، والله ـ تعالى ـ يتولاه وهو أعلم بحاله.

وكم من مفرط يقول: يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله، ويتمنى العودة عند الموت إلى دنياه، ليعمل عملا صالحًا، ولكنه هيهات؛ إذ ضيع الأوقات واشتغل بالسيئات، وأعرض عن الحسنات، وقد كان في إمكانه العمل، ولكنه غفل، واستحوذ عليه الأمل، ونسي الأجل.

ومثل هذه القصة ما حصل في إحدى ليالي شهر شوال عام ١٤١٤هـ على الطريق العام الذي يصل بين مدينتي أبها وخميس مشيط، وفي الساعة الثالثة ليلا قبل صلاة الفجر؛ إذ انقلبت سيارة بشابين في مقتبل العمر، مات أحدهما في الحال ـ وهو سكران ـ بعد أن ضيع عقله، وضيع دينه، وأسخط ربه، واتبع هواه وشيطانه، وكان يتصور أن للخمر لذة، وما علم أنه صداع في الرأس، ووجع في البطن، كما يقول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء والبول، وقد نزه الله خمر الجنة عنها»(٢).

وأما الآخر فنقل إلى المستشفى ولا يدرى عن حاله، هل عوفي أم هلك؟ وهل تاب ـ إن عوفي ـ أم استمر في غيه؟

وإنني أعجب من حال هذين وغيرهما كيف يضيعون لياليهم في المعصية، ويدمرون أوقاتهم الغالية بمعاول الشيطان؟

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٥٥, ٥٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٨.

وكيف يسكر السكران في ساعة مجيدة؟ إحدى ساعات ثلث الليل الآخر، وهو الوقت الذي ينزل فيه الرب ـ تعالى ـ نزولا يليق بجلاله ثم ينادي ويقول: هل من داع فأجيبه؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟

ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«ينزل ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟»** متفق عليه.

وكم كنت أتمنى أن الميت قبض وهو ساجد لله، أو راكع أو قائم أو صائم، ولكنه قبض وهو في حالة سجود للنفس، واتباع للهوى وانقياد للشيطان.

فهل من قلب يتحرك في الخير؟ وهل من أذن تصغى لسماع الحق والهداية، عسى أن يكون في ذلك عبرة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً.

******

الخاتمــة

أحـمـد الله ـ تعـالى ـ الذي يسَّـر لي جـمع هذا الكتـاب، وأعـانني على إخراجه، وحبب إلي الكتابة عنه؛ إذ هو موضوع مهم، خصوصًا وقد رأيت غفلة الناس وإعراض الناس، وتكالبهم على الدنيا، واغترارهم بها، وعدم اتعاظهم بما يشاهدونه وما يسمعونه من العبر والعظات؛ بل ونسوا الآخرة وما كأنها إلا خيال غير واقع، وساعد على ذلك اتباع الهوى والشيطان، ولو وقف الناس مع أنفسهم وقفة تأمل ومحاسبة لأيقنوا أنهم على خطر جسيم، يوشك أن يقبضوا وهم على المعاصي والسيئات.

والنفس في حاجة إلى مجاهدة حتى تزكو وتعلو وتطهر، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وفي حاجة إلى محاسبة دقيقة أشد من محاسبة الشريك الشحيح لشريكه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

وللإنسان أن يحاسب نفسه في وقت الإمكان قبل فوات الأوان، قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «أيها الناس حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا»، وقال أبو حازم لسليمان بن عبد الملك: «عظم الرب ونزهه وإياك أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك».

وقد آثرت أسلوب القصص لأنه أسلوب محبب للنفوس. والقصة لها تأثير عظيم، فهي ضرب من ضروب الأدب، يصغي إليه السمع، وترسخ عبره في النفس، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

وإنني أرجو الله ـ تعالى ـ أن ينفع بهذا الجهد، وأن يفتح له قلوبًا مغلقة،

وأن يلين به قلوبًا قاسية، وأن يوقظ به قلوبًا نائمة، وأن يهدي به قلوبًا معرضة، وأن ينور قلوبًا مظلمة، وأن يرزق كاتبه الإخلاص في القول، والصدق في العمل، وأن يجعله في ميزان الحسنات، وأن يوفق قارئه إلى الانتفاع به، وإنني آمل من كل مؤمن قرأه أن يدعو لأخيه بظهر الغيب بالسداد والثبات على الحق حتى الموت، وأن يستر عيبه ويصحح خطأه، وأن يحسن الظن به، وأن يعلم أن لكل جواد كبوة، ولكل سهم نبوه، ولكل قلم زلة.

وأسأل الله أن يكتب به الأجر والثواب وأن يثقل به ميزان الحسنات، وأن يقيل به العثرات، وأن يغفر الزلات، ويكفر السيئات، وأسأل الله أن يجزي من قرأه وعلمه ونشره خيراً، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كان الفراغ منه يوم عيد الفطر عام ١٤١٦هـ، أبها - آل الغليظ.

******

قائمة بمراجع الكتاب

مسلسل	اسم المرجع	اسم المؤلف	اسم المطبعة
١	صحيح البخاري	محمد بن إسماعيل البخاري	
٢	صحيح مسلم	مسلم بن الحجاج القشيري	
٣	سنن النسائي	أحمد بن شعيب النسائي	
٤	سنن أبي داود	سليمان بن الأشعث الأزدي	
٥	سنن الترمذي	محمد بن عيسى الترمذي	
٦	سنن ابن ماجة	محمد بن يزيد بن ماجة	
٧	مسند الإمام أحمد	أحمد بن محمد بن حنبل	
٨	المستدرك	محمد بن عبد الله الحاكم	
٩	فتح الباري	أحمد بن علي بن حجر العسقلاني	مصطفى البابي الحلبي
١٠	تحفة الأحوذي	محمد بن عبد الرحمن المباركفوري	دار الكتب العلمية
١١	تيسير العلام	عبد الله بن عبد الرحمن البسام	مطبعة النهضة
١٢	صحيح الجامع الصغير	محمد ناصر الدين الألباني	المكتب الإسلامي
١٣	صحيح الترغيب والترهيب	محمد ناصر الدين الألباني	المكتب الإسلامي
١٤	جامع العلوم والحكم	عبد الرحمن بن شهاب الدين ابن رجب	مؤسسة الرسالة
١٥	الجامع لأحكام القرآن	محمد بن أحمد القرطبي	دار الكتب المصرية
١٦	تفسير القرآن العظيم	إسماعيل بن عمر بن كثير	دار الكتب العلمية

تابع قائمة المراجع

مسلسل	اسم المرجع	اسم المؤلف	اسم المطبعة
١٧	دقائق التفسير	شيخ الإسلام ابن تيمية	مؤسسة علوم القرآن
١٨	إعجاز القرآن	مصطفى صادق الرافعي	دار الكتاب العربي
١٩	التذكرة	محمد بن أحمد القرطبي	دار الكتاب العربي
٢٠	القيامة الصغرى	عمر بن سليمان الأشقر	مكتبة الفلاح
٢١	معارج القبول	حافظ بن أحمد الحكمي	دار ابن القيم
٢٢	مجموع فتاوى ابن تيمية	جمع عبد الرحمن بن قاسم	دار العربية
٢٣	أحكام الجنائز وبدعها	محمد ناصر الدين الألباني	المكتب الإسلامي
٢٤	زاد المعاد في هدي خير العباد	محمد بن أبي بكر بن القيم	مؤسسة الرسالة
٢٥	دروس الحرم المكي	محمد بن صالح بن عثيمين	دار البشير
٢٦	زاد المستقنع	موسى بن أحمد الحجاوي	المطابع الأهلية
٢٧	تاريخ الأمم والملوك	محمد بن جرير الطبري	دار الكتب العلمية
٢٨	البداية والنهاية	إسماعيل بن عمر بن كثير	دار الكتب العلمية
٢٩	الكامل في التاريخ	محمد بن محمد بن الأثير	دار الكتب العلمية
٣٠	السيرة النبوية	عبد الملك بن هشام المصري	دار الفكر
٣١	دلائل النبوة	أحمد بن الحسين البيهقي	دار الكتب العلمية
٣٢	الإصابة في تمييز الصحابة	أحمد بن علي بن حجر	دار الفكر
٣٣	أسد الغابة	علي بن محمد بن الأثير الجزري	دار الفكر
٣٤	السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية	مهدي رزق الله أحمد	مركز الملك فيصل للبحوث

تابع قائمة المراجع

مسلسل	اسم المرجع	اسم المؤلف	اسم المطبعة
٣٥	صفة الصفوة	عبد الرحمن بن علي بن الجوزي	دار المعرفة
٣٦	صور من حياة الصحابة	عبد الرحمن بن رأفت الباشا	دار النفائس
٣٧	مختصر السيرة	عبد الله بن محمد بن الوهاب	توزيع دار البحوث
٣٨	التاريخ الإسلامي	محمود شاكر	المكتب الإسلامي
٣٩	سير أعلام النبلاء	محمد بن أحمد الذهبي	مؤسسة الرسالة
٤٠	شذرات الذهب	عبد الحي بن العماد الحنبلي	دار الكتب العلمية
٤١	الأعلام	خير الدين الزركلي	دار العلم للملايين
٤٢	شهداء الإسلام	علي بن سامي النشار	دار العلم للملايين
٤٣	السعداء والأشقياء	ناصر بن إبراهيم الرميح	دار الصميعي
٤٤	الزمن القادم	عبد الملك القاسم	دار الوطن
٤٥	عدالة السماء	محمد شيث خطاب	دار الفكر
٤٦	العائدون إلى الله	محمد بن عبد العزيز المسند	دار الوطن
٤٧	غرائب الأخبار	أحمد بن عيسى عاشور	مكتبة القرآن
٤٨	لسان العرب	محمد بن مكرم بن منظور	دار المعارف
٤٩	صحيح الأحاديث القدسية	عصام الدين الصبابطي	دار الحديث
٥٠	الجواب الكافي	محمد بن أبي بكر بن القيم	دار الكتاب العربي
٥١	موارد الظمآن لدروس الزمان	عبد العزيز بن محمد السلمان	مطابع الخالد
٥٢	اغتنام الأوقات في الباقيات	عبد العزيز بن محمد السلمان	مطابع المدينة

تابع قائمة المراجع

مسلسل	اسم المرجع	اسم المؤلف	اسم المطبعة
	الصالحات		
٥٣	نوادر من التاريخ	صالح بن محمد الزمام	مطابع نجد
٥٤	مع الأنبياء في القرآن	عفيف عبد الفتاح طبارة	دار العلم للملايين
٥٥	التوابين	عبد الله بن أحمد بن قدامة	دار الكتاب العربي
٥٦	إحياء علوم الدين	محمد بن محمد الغزالي	دار القلم
٥٧	الزواجر عن اقتراف الكبائر	أحمد بن محمد الهيثمي	دار الفكر
٥٨	التوبة	محمد بن أبي بكر بن القيم	دار الأندلس
٥٩	والله يعصمك من الناس	أحمد الجدع	دار المنار
٦٠	الثبات عند الممات	عبد الرحمن بن علي بن الجوزي	دار الأندلس
٦١	الكبائر	محمد بن أحمد الذهبي	دار الكتب العلمية
٦٢	البحر الرائق في الزهد والرقائق	أحمد فريد	مكتبة الصحابة
٦٣	إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد	عبد العزيز بن محمد السلمان	مطابع الخالد
٦٤	يقظة أولي الاعتبار	صديق حسن خان	دار الأنصار
٦٥	مشاهد الموت	عبد الله التليدي	دار ابن حزم
٦٦	السلوك الاجتماعي في الإسلام	حسن أيوب	دار الندوة الجديدة
٦٧	غذاء الألباب	محمد بن أحمد السفاريني	دار الاتحاد العربي

تابع قائمة المراجع

مسلسل	اسم المرجع	اسم المؤلف	اسم المطبعة
٦٨	أدب الدنيا والدين	علي بن محمد الماوردي	دار الفكر
٦٩	للشباب فقط	عادل بن محمد عبد العالي	دار المنار
٧٠	الدلائل الواضحات على تحريم المسكرات والمفترات	حمود بن عبد الله التويجري	مطابع القصيم
٧١	إغاثة اللهفان	محمد بن أبي بكر بن القيم	دار المعرفة

فهرس الموضوعات

تابع فهرس الموضوعات

تابع فهرس الموضوعات

تابع فهرس الموضوعات

******